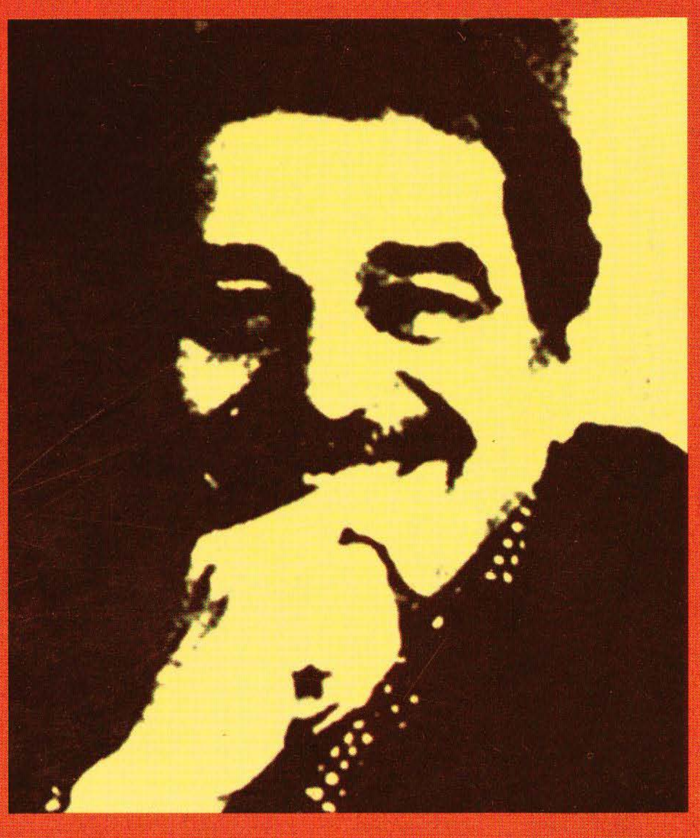
١٩٨٢
مكتبة نوبل

غابرييل غارسيا ماركيز

خَريفُ البَطريَرك



ترجمة: محمّد علي اليوسفي

علي مولا

خَريفُ البطريَرك



مكتبة نوبل

اسم المؤلف : غابرييل غارسيا ماركيز
عنوان الكتاب : خريف البطريَرك
المترجم : محمد علي اليوسفي
الناشر : المدى
الطبعة الثانية : ٢٠٠٥
الطبعة الثالثة : ٢٠٠٨

Author :Gabriel Garcia Marquez
Title : The Autumn of the Patriarch
Translator: Mouhamed ali al-yousfi
Al- Mada P.C.
First Edition : 2005
Third Edition : 2008

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان - بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

٨٢ ١٩

مكتبة نوبل

غابرييل غارسيا ماركيز

خَريفُ البَطرِيَرك

ترجمة: محمّد علي اليوسُفي



تقديم

موسوعة تعج بأغاني الساحل الكولومبي وألحانه، حيواناته وأعشابه، طرائفه ومآسيه، قصص حب وهمية وحقائق دموية، سحر وتعاويذ، مآدب من لحم بشري متبّل، وبحر يباع قطعاً مرقّمة. رواية مفزعة يتجاوز بها غابرييل غارسيا ماركيز حدود أمريكا اللاتينية، ودكتاتور كلّي الوجود يعلن حالة الحرب على كل منافسيه، من الأطفال إلى الكرسي البابوي في روما وصولاً إلى الله: أنا الربّ، يقول في ذروة خريفه، عاش أنا. ويموت ضحاياه: أطفال ومعارضون، رجال دين ومتمرّدون، هنود وهندوسيون، عرب ومضطهدون آخرون. عاش أنا، يقول. غير أنه في النهاية يجد نفسه وجهاً لوجه مع الموت في صفحات رائعة يكشف فيها ماركيز الوجه الآخر للحياة، الحياة التي لم يكن البطريرك يراها إلا من القفا.

قبل أن ينتهي زمن الأبديّة الهائل، وقبل أن تدق أجراس الحبور وتعلو معزوفات التحرّر، ومنذ طفولة البطريرك إلى تولّيه السلطة أو، بالعكس، منذ تولّيه السلطة إلى طفولته الأولى التي نتعرف عليها مندغمة ومتزامنة مع طفولته الثانية، حسب تسلسل الأحداث وتداخلها في الرواية، يوجد زمن مغلق هو الحيّز الذي تدور فيه أحداث رائعة

ماركيز هذه. حركة دائرية مغلقة ونشيد مذهل ضد الدكتاتورية، بأسلوب يجمع بين الشعر والموسيقى والسيناريو السينمائي.

لعلّ صعوبة الرواية تكمن في الجهد الذي على القارئ أن يقوم به لإعادة تركيب الأحداث. ذلك أن الرواية، بعد المشهد «البانورامي» الأول، تنطلق، مثل سمفونية مؤثرة، في حركة دائرية تجمع بين أحداث ماضية وتلميحات إلى أحداث أخرى آتية، ويتكرر فيها عزف آلات الرعب نفسه، والأناشيد المتوحشة نفسها، والصفير المكتوم المنبعث من فتق البطريرك نفسه.... غير أن اللازمة الغنائية تأتي، مع نهاية كل فصل أو خلاله، أكثر غنى وإيحاء... يموت البطريرك... لكننا نكتشفه على لسان الرواة، في الفصل اللاحق، حيّاً، وفي ذلك إيحاء بتعاقب اللحن الجنائزي ذاته -كان موته موتاً طبيعياً مزيّفاً- ولأن خليفته لا يختلف عنه، فقد عاش البطريرك ما بين ١٠٧ و٢٣٢ عاماً... إنه نموذج ١٤ جنرالاً تعاقبوا على السلطة (بعد أن يطفئ البطريرك كلّ الأضواء في قصره يلتحق بغرفة نومه وفي يده مصباح، يرى نفسه منعكساً في المرايا جنرالاً واحداً، ثم جنرالين اثنين، ثم أربعة عشر جنرالاً) يقول ماركيز، ضمن إيقاع متكرر في الرواية: حياة/ موت/ موت مزيّف/ حياة/ موت/ موت مزيّف/ للبطريرك. حتى النهاية: موت حقيقي - سقوط الدكتاتورية وخروج الحشود إلى الشوارع...

* * *

في هذه الترجمة العربية -التي تمت عن الفرنسية مع تدقيقها على النص الإسباني، لوجود بعض التصرّفات التي لم تكن موفقة دائماً في النص الفرنسي- حاولت نقل المناخ الروائي بما في ذلك طبيعة الصورة

وإيحائية اللفظة، دون اللجوء إلى الأشكال الكلاسيكية في اللغة العربية من حيث بنية الجملة أو مدلولها الحسّي الملموس، خصوصاً وأن الشعر العربي الحديث قد قطع شوطاً لا بأس به في هذا المجال. زد على ذلك أن ماركيز في روايته هذه يكثر من استعمال الصور المبتكرة والكلمات المجنّحة بالإضافة إلى اعتماده الجملة الطويلة التي تمتد صفحات وصفحات من دون تقسيمها إلى جمل أو مقاطع، الأمر الذي يعني أن هناك سطراً متواصلاً من أول الفصل إلى آخره، مع عدم وضع علامات الوقف بالنسبة للحوار أو الصيغ الاستفهامية الخ.. ولقد اضطررت إلى إضافة بعض الفواصل فقط لتفادي التباس المعنى في النص المعرّب كما توخّيت التقديم والتأخير في بعض الجمل والنعوت (الكثيرة) لتحافظ الجملة على استدارتها اللاهثة ربطاً بالأسماء الموصولة أو بالإضافة.

عمدت مراراً إلى تقوية الفعل في النص العربي، بذكر الضمير الغائب (هو) مع الفعل تأكيداً على الشخصية الوحيدة الغائبة- الحاضرة دائماً في الحوار: أي البطريرك ذاته، باعتباره محور الأشياء والأحداث والشخصيات الأخرى، التي تتراوح بين رواة عديدين بصيغة المتكلم (المفرد أو الجمع)، وراوية بصيغة الغائب يلتقط الكلام من فم الجنرال مباشرة أو من فم باقي الرواة، ليربط بين الأحداث (الأمر الذي يؤدي إلى انتقال صيغة الجملة من المتكلم إلى الغائب وأحياناً المخاطب... في السياق عينه).

بالنسبة للحوار الذي يأخذ شكل التداعي، فإنه يأتي من دون تمهيد أو حصر بين مزدوجتين، كما لو كانت هناك كاميرا تسلّط مباشرة على المتكلّم... من دون تمهيد له أو تعريف بشخصيته التي نكتشفها نحن،

فيما بعد، من خلال الحوار أو تقدّم الأحداث. وهو أسلوب يذكرنا جزئياً بجيمس جويس وفولكنر (الصخب والعنف) وكذلك السيناريو السينمائي الذي تفرغ له ماركيز في فترة سابقة من نشاطاته الفنية.

ويستخدم ماركيز في روايته كلمات تنساب متألقة في شفافية محاولاً، كما يقول، أن يجمع بين «الصورة والموسيقى». وهكذا يتحوّل الخاتم مثلاً إلى «حجر مياه صباحية» في الإصبع، ويصدر البطريرك من فمه وهو يأكل الموز «صوت حنفيّة». وتجمع لغة الرواية بين الأسلوب التقريري والشتائم السوقية والإيحاء الشعري. ولم أتوان، أمام ما تحفل به الرواية من شتائم لاذعة وصور جنسيّة مباشرة، عن المحافظة على روح النص الأصلي و«مستوياته اللغوية» في الحدود التي تسمح بعدم الإغراق في لهجة محلية عربية على حساب فهم القارئ ذي اللهجة المختلفة.

يقول ماركيز عن «خريف البطريرك» إنها أصعب من «مائة عام من العزلة»، وإنه كثيراً ما كان يكتب خمسة أسطر في اليوم ليلقي بها في القمامة في اليوم التالي. وبعد أن تم رفع الحظر عن الرواية في تشيلي «لأن الحكومة التشيلية تفضل عدم إثارة فضيحة من دون فائدة»... ذلك أن كتاب خريف البطريرك، «كتاب عسير، غير جماهيري جداً...» تساءل ماركيز: «ماذا عسى أن يحدث لو نشرت الآن كتاباً على نطاق واسع تكون قراءته في متناول جمهور واسع من القراء مثل مائة عام من العزلة»!!

* * *

أخيراً، أشير إلى بعض التصرّف فيما يتعلّق بتعريب «دروس القراءة والكتابة» التي كان يتلقّاها البطريرك عن عشيقته، ثم «زوجته الشرعية الوحيدة» فيما بعد، كما يحبّ أن يقول، نظراً لكون دروسه كانت تتمحور حول الأصوات والجِناس والحروف المتشابهة الخ..

كما فضلت ترجمة بعض الأغاني واللازمات الغنائية، شعراً.. ليحافظ النصّ على زخمه وجماليته.

محمد علي اليوسفي



انقضّت العقبان على شرفات القصر الرئاسي خلال نهاية الأسبوع، فحطّمت شباك النوافذ المعدنية بضربات مناقيرها، وحركت الزمن الراكد في الداخل برفيف أجنحتها، ومع بزوغ شمس يوم الاثنين استيقظت المدينة من سبات قرون عديدة على نسمة رقيقة ودافئة، نسمة ميِّت عظيم ورفعة متعفّنة. عندئذ فقط تجرأنا على الدخول، من دون مناطحة الجدران الحصينة المنزوعة الملاط، كما كان يرى أكثرنا أقداماً، ومن دون خلع المدخل الرئيسي بأعمدة نير الجواميس، كما اقترح آخرون، إذ أن دفعة واحدة كانت كافية لخلع الأبواب الثقيلة المصفحة عن مفاصلها، تلك الأبواب التي صمدت خلال عصر البطولات لمنجنيق وليم دامبييه. لقد خيل إلينا أننا كنا ندخل أجواء عصر آخر، إذ أن الهواء كان أكثر خفة في مستنقعات أنقاض هذا العرين الرحب للسلطة، وكان الصمت فيها أكثر قدماً، ورؤية الأشياء صعبة في الضوء الذاوي. على امتداد الباحة الأولى التي تزحزح بلاطها بضغط الأعشاب الطفيلية من تحت الأرض، شاهدنا مركز الحراسة تعمه الفوضى بعد هرب الحراس، والأسلحة المهجورة في الخزائن، كما شاهدنا طاولة الخشب الخشن الطويلة مع صحون فيها بقايا من غداء يوم الأحد الذي قطعه الذعر، شاهدنا السقيفة، مقر الخدمات المدنية تحت النور المغبش، نباتات الفطر بألوانها الفاقعة والزنابق الشاحبة ما بين عرائض الالتماس التي كانت لاتزال في

حالة انتظار، وقد كان السير الطبيعي للنظر فيها أبطأ من أكثر الحيوات إجداباً، شاهدنا في وسط الفناء جرن المعمودية حيث تمّ تعميد أكثر من خمسة أجيال بسيل من القرابين العرفيَّة، وشاهدنا في المؤخرة إسطبل حكام المستعمرات وقد غدا مرآباً للعربات، وبين زهور الكاميليا والفراشات شاهدنا سيارة زمن الضجيج البرلينية، عربة الطاعون، مركبة السنة التي ظهر فيها النجم المذنب، عربة الموتى إثر التطور في عمليات التأديب، سيارة الليموزين التي تبدو كمن يسير في نومه والعائدة إلى القرن الأول للسلام، كلها كانت في حالة جيدة تحت نسيج العنكبوت المغبر مطلية بألوان الراية الوطنية. في الباحة التالية، وخلف سياج مشبك، كانت توجد أشجار الورد المعفّرة بغبار قمري حيث كان البرصى ينامون تحت ظلالها في أيام عظمة القصر، ولقد تكاثرت وهي مهجورة من دون اعتناء، حتى كادت تنعدم أية فجوة خالية من الرائحة، في ذلك الهواء الممزوج بنتونة كانت تصلنا من آخر الحديقة، مع عفونة قن دجاج ونتانة الروث وتخمّر بول الأبقار وجنود البلاط الاستعماري الذي حوّل إلى إسطبل لحلب البقر، شاهدنا، ونحن نشق طريقنا عبر الدغل الخانق، الرّواق بشرفاته المقوسة المزدانة بأصص القرنفل وأوراق «الاسترومليياس» والنباتات المعرّشة التي كانت تغطي أكواخ المحظيات، ونظراً لتنوّع البقايا المنزلية وعدد آلات الخياطة فقد قدرنا بأن أكثر من ألف امرأة قد عشن هنا مع مجموعة أطفالهنّ الخُدج[1]، شاهدنا فوضى المعركة في المطابخ، والغسيل المتعفّن في السطول تحت الشمس، والقاع المفتوح للمرحاض المشترك المخصص للمحظيات والجنود، وشاهدنا في المؤخرة الصفصاف البابلي الذي نُقل بحراً بجذوره وترابه ونسغه

ورذاذه من آسيا الصغرى في مستنبتات زجاجية، وخلف الصفصاف شاهدنا مقرّ الحاشية المدنية رحباً وكئيباً، ومشربيات النوافذ المثلمة التي كانت العقبان تواصل تسللها منها. ولم نكن بحاجة إلى خلع المدخل، كما كنا ننوي، فقد بدت البوابة الرئيسية كأنها تفتح بقوة ضغط الصوت فقط، الأمر الذي مكّننا من الصعود إلى الطابق الأول عبر سلم حجري سحقت سجادات الأوبرا التي تغطيه بأظلاف البقر، ومن بهو الدخول حتى غرف النوم الخاصة شاهدنا المكاتب والقاعات الرسمية التي كانت الأبقار تجوبها جيئة وذهاباً دونما اكتراث وهي تأكل ستائر المخمل وتلوك ساتان الأرائك، شاهدنا لوحات بطولية تمثل قديسين وعسكريين ملقاة على الأرض بين الأثاث المحطم ولطخات من روث البقر الطري، شاهدنا قاعة أكل أتت عليها الأبقار، قاعة الموسيقى وقد انتهكها صخب الأبقار، طاولات الدومينو محطمة ومروج لعبة البلياردو وقد جزّتها الأبقار، شاهدنا آلة المراوح مهجورة في زاوية، وكانت تزيف كل ظواهر دولاب الهواء بفروعه الأربعة، لكي يتحمل سكان المنزل وطأة حنينهم إلى البحر المفقود، شاهدنا أقفاص طيور معلقة في كل مكان وهي لاتزال مغطاة بقماش الكريطون القطني، الذي ظل يحمي نوم الطيور لعدة ليال من الأسبوع الماضي، وشاهدنا، عبر النوافذ العديدة، الوحش المديني، قابعاً في براءة يوم الاثنين التاريخي الذي بدأ يعيشه، وفيما وراء المدينة، شاهدنا الرماد القمري الخشن لفوهات البراكين الخامدة المحاذية للسهل الممتد من دون نهاية، حيث سبق للبحر أن أقام. في هذا المكان المنيع المحظور، الذي لم يتمكن من معرفته سوى القليل النادر من الناس ذوي الامتياز، شممنا للمرّة الأولى رائحة جيف العقبان، وأدركنا نسمتها

القديمة وغريزتها المنذرة وقادتنا ريح أجنحتها المتفسخة إلى قاعة الاجتماعات حيث اكتشفنا هياكل الأبقار التي نخرها الدود وكانت مؤخراتها الأنثوية متكررة في المرايا الكبيرة، حينئذ دفعنا باباً جانبياً ينفتح على مكتب مخفي في الجدار، وهناك رأيناه، هو، ببدلته الكتانية الخالية من الشارات، ولفافات ساقيه ومهمازه الذهبي على الكاحل الأيسر، كان أكبر سنّاً من كل الرجال ومن كل الحيوانات القديمة في الأرض وفي الماء، كان ممدداً على الأرض وساعده الأيمن مثنيٌّ تحت رأسه على هيئة وسادة، مثلما تعوّد أن ينام، ليلة أثر ليلة، كل ليالي حياته الطويلة كطاغية متوحد. وعندما قلبناه لنرى وجهه أدركنا أن من المستحيل علينا التعرف إليه، حتى وإن لم تكن العقبان قد نقرت وجهه، ذلك أن أحداً منا لم يسبق له أن رآه قط، رغم أن صورته الجانبية كانت مرسومة على وجه العملة وقفاها وعلى طوابع البريد وشهادات نقاوة الدم وعلى أحزمة الفتق والكتفيات، ورغم أن منحوتته الحجرية المبرْوزة، مع تنّين الوطن والعلم الوطني المتقاطعين على صدره، كانت معروضة في كل مكان وفي كل ساعة، لقد كنا نعلم أنها لم تكن سوى نسخ منسوخة عن نسخ لرسوم سبق وأن اعتبرت مشوهة في زمن النجم المذنب، عندما كان آباؤنا يعرفون من يكون، لأنهم استمعوا لروايات آبائهم، تماماً كما سمع آباء آبائهم عن آبائهم، فعودونا منذ طفولتنا على الاعتقاد بأنه حيٌّ في بيت السلطة، لأن أحدهم رأى مصابيح النور المركز تضاء ذات ليلة من ليالي الحفلات، وروى أحدهم لقد رأيت العينين الحزينتين والشفتين الشاحبتين واليد المتأملة التي تلوح بالوداع إلى لا أحد، عبر زخرفة مذبح عربة الرئاسة، وذات يوم أحد، أصبح موغلاً في البعد الآن، أحُضِر

الأعمى الجوّال الذي ألقى مقابل خمسة «سانتافو» أبياتاً للشاعر المنسي روبن داريو[٢] ثم عاد سعيداً كما لم يعد أحد بالقطعة النقدية التي ربحها مقابل الإلقاء على شرف الجنرال من دون أن يراه طبعاً، ليس لأنه أعمى بل لأن أي فانٍ لم يلمحه منذ أيام الحمّى الصفراء، ورغم ذلك كنا نعرف حق المعرفة أنه كان فعلاً هناك، لأن العالم كان يتواصل، والحياة تتواصل، والبريد يصل، وجوقة البلدية كانت لاتزال تعزف كل يوم سبت مجموعة الفالس الساذجة تحت النخيل المعفر والفوانيس الكئيبة في ساحة الأسلحة، وكان موسيقيون مسنون آخرون يحلون في الجوقة محل الموسقيين المتوفين. وفي السنوات الأخيرة عندما لم نعد نسمع في الداخل، لا أصواتاً بشرية ولا تغريد عصافير، وعندما أوصدت الأبواب المصفحة إلى الأبد، علمنا أن ثمة أحداً في البيت الأهلي، إذ كنا نرى خلال الليل أنواراً تشبه أنوار الملاحة عبر النوافذ المطلة على البحر، والذين تجرأوا على الاقتراب سمعوا جلبة اجتياح أظلاف وتأوهات حيوان كبير خلف الجدران الحصينة، وذات مساء من شهر يناير لمحنا بقرة تتأمل الغسق من أعلى الشرفة الرئاسية، تخيلوا، بقرة في شرفة الوطن، يا للفظاعة، يا له من بلد قذارات، لكننا قمنا بالعديد من التخمينات، نعم كيف يمكن أن تصل بقرة إلى شرفة إذا كان الجميع يعرف أن الأبقار لا تتسلّق السلالم، وخاصة إذا كانت من الحجارة، والأدهى من ذلك إذا كانت هذه السلالم مفروشة بالسجاد، إلى حد أننا لم نعد نعرف في نهاية الأمر، أرأيناها حقاً، أم أننا خلال مرورنا ذات مساء بساحة الأسلحة حلمنا ونحن نمشي بأننا نرى بقرة على الشرفة الرئاسية هناك حيث لا شيء شوهد ولا كان ينبغي أن يشاهد مرة أخرى لأعوام عديدة حتى فجر

يوم الجمعة من الأسبوع الماضي، عندما بدأت أولى طيور العقبان تصل وترتفع من أفاريز ملجأ العجزة الفقراء حيث تغفو منذ الأزل، كانت تقبل أيضاً من الداخل، وتصل أسراباً متتالية من آخر أفق بحر الغبار هناك حيث سبق للبحر أن أقام، وظلت تحوم يوماً كاملاً في دوائر بطيئة فوق بيت السلطة حتى اللحظة التي أصدر فيها ملك، ذو إكليل وعُرف أحمر، أمراً خفياً فبدأت قرقعة الزجاج المحطم وريح ذلك الميت العظيم، وذلك الولوج والخروج للعقبان من النوافذ وهو أمر لا يمكن أن يحدث إلا في بيت لا سطوة فيه ولا نفوذ، ما شجعنا على الدخول بدورنا، وآنئذ اكتشفنا أنقاض العظمة في الحرم المقفر والجسد المنقّر واليدين الأنثويتين مع خاتم القيادة في البنصر، وكان جسده مبرعماً ببثور الحكاك الصغيرة وبحيوانات أعماق البحر الطفيلية، وخاصة تحت إبطيه وثنية الفخذين وكانت ضمادة من القطن تلف خصيته المصابة بالفتق وهي الجزء الوحيد الذي لم تهاجمه العقبان، رغم أن الخصية كانت بضخامة كلية ثور، غير أننا، وحتى تلك اللحظة، لم نجرؤ على تصديق موته إذ كانت هذه المرّة الثانية التي يكتشف فيها في مكتبه، وعلى هذا الشكل وحيداً مرتدياً ثيابه، ميتاً ظاهرياً ميتة طبيعيّة خلال نومه، كما تنبأت بذلك المياه منذ سنين عديدة في قصعات العرّافات. وأول مرّة اكتشف فيها، مع بدء خريفه، كانت الأمة لاتزال على قدر كاف من الحياة يجعله يحسّ بتهديد الموت له حتى في عزلة مخدعه، الأمر الذي لم يمنعه من الحكم كما لو أن قدره كان في عدم الموت أبداً، ذلك أن القصر لم يكن يشبه قصوراً رئاسية بقدر ما كان سوقاً ينبغي فيه شق طريق ما بين جنود وصفاء حفاة كانوا يضعون سلال الخضار وصناديق الدواجن في الأروقة ويضطرّون إلى

القفز فوق نساء ثرثارات مع أولادهن السّغّب الذين ينامون منكبين على الدرجات في انتظار معجزة الإحسان الرسمي، وكان ينبغي أيضاً تحاشي المياه الوسخة للخليلات اللواتي كنّ يفرغن أواني الزهور من أزهار الليل ليملأنها بأزهار النهار ويفركْن الطوابق ويرددن أغانيَ عن حكايات حب وهمية على إيقاع الأغصان اليابسة التي ينفضن بها السجادات على الشرفات، كل ذلك كان مختلطاً باحتجاجات الموظفين الدائمين الذين يجدون دائماً دجاجات تبيض في جوارير مكاتبهم، بالإضافة إلى ممارسات الجنود والعاهرات في المراحيض، وجلبة الطيور، ومعارك الكلاب التائهة في قاعات الاجتماعات، دون أن يدرك أحد مَنْ كان مَنْ ومَنْ كان موفداً من قبل مَنْ، في ذلك القصر المشرع الأبواب حيث الفوضى الخارقة تمنع من تحديد مقر الحكومة. أما سيد المكان فلم يكن يشارك في هذا العيد الشعبي الحزين فحسب، بل كان يحرص عليه ويقوده، فما أن تضاء مصابيح حجرته حتى تعلو نوبة الصباح من الحراسة الرئاسية، قبل صياح الدّيكة، كي تُبلِّغ ثكنة «ديل كوندي» المجاورة بالنهار الجديد وهذه بدورها تكرر التبليغ إلى قاعدة «سان خرونيمو» ومنها إلى قلعة الميناء التي تكررها للنوبات الست المتعاقبة التي توقظ المدينة أولاً ثم البلاد بأجمعها، بينما يتروّى هو، متأملاً في دلوه الصحي محاولاً بكلتا يديه أن يخنق الطنين المتولد في أذنيه، مشاهداً مرور أضواء البواخر على البحر المتقلب، البحر الزبرجدي الذي كان لايزال مرئياً في مجد تلك الأيام، من نافذته. ومنذ أن امتلك البيت، كان يومياً يراقب حلب الأبقار في الإسطبل ويقدِّر بيده كمية الحليب التي يتوجب أن تنقلها العربات الرئاسية الثلاث لتوزعها على ثكنات المدينة،

ثم يبتلع في المطبخ قدحاً من القهوة مع كعكة بالبيض دون أن يدرك بالتحديد أين ستجرّه نزوات اليوم الجديد، متنبهاً دوماً لثرثرة الخدم وهم أهل المنزل الذين يتحدث معهم اللغة نفسها ويقدِّر تملّقهم البالغ ويعرف ما يختلج في قلوبهم، وقبيل الساعة التاسعة بقليل يقضي وقتاً طويلاً في الحمام المجهّز بعجين الأوراق المبيدة لمرض الفطر في حوض الصوان المقام في باحته الخاصة تحت ظلال أشجار اللوز، وبعد الحادية عشرة فقط يتوصل إلى السيطرة على انفعالات بداية الصباح ليجابه مصادفات الواقع. أما قديماً، وفي زمن احتلال المارينز[٣]، فقد كان ينعزل في مكتبه ليقرر مصير الوطن مع قائد جنود الإنزال ويوقِّع كل أنواع القوانين والمراسيم بصماً بإبهامه، لأنه كان لا يجيد القراءة ولا الكتابة، ولكن بعد أن تركوه وحيداً مرّة أخرى مع وطنه وسلطته كفّ عن التبرّم بالقوانين المكتوبة التي ليست سوى سخافات وشرع في الحكم شخصياً بصوت حاد في كل آنٍ ومكان، كاشفاً عن هوس بالجزئيات وعن حرص لا يُتَصَوّر لدى رجل في عمره، منزعجاً من حشد البرصى والعميان والمشلولين، المتوسلين الذين يأتون لتلقي ملح العافية من يديه، ومن سياسيين متعلمين ومتملقين بلا حياء كانوا ينادون به قائداً أعلى للزلازل الأرضية، وللكسوف وللخسوف والسنوات الكبيسة[٤] وأخطاء الرب الأخرى، وقد كان يجرجر قائمتيه في كل أنحاء البيت مثل فيل ممعن في الثلوج وهو يحل شؤون الدولة ومشاكل الخدم بالبساطة نفسها التي يأمر بها: انزعوا هذا الباب من هنا وضعوه هناك، ويرفع الباب، ركِّبوه هنا، فيركَّب، أخِّروا ساعة الحائط، عليها ألا تعلن منتصف النهار في منتصف النهار بل في الساعة الثانية ظهراً حتى تبدو الحياة أطول،

وتؤخر الساعة، من دون لحظة تردد، من دون توقف، عدا ساعة الموت، ساعة القيلولة حين يلوذ بظل المحظيات ويختار إحداهنّ، ثم يثب فوقها، من دون أن يعرّيها أو يتعرّى، وحتى من دون إغلاق الباب، بحيث كان يُسمع لهاث لا رحمة فيه، لهاث زوج في حالة استحرام، ورنين متقطع صادر عن المهماز الذهبي، مع تباكيه، تباكي الجرو الصغير، وذعر المرأة التي تبدِّد وقت المضاجعة في محاولة صرف نظرات أبنائها الكدرة عنها، وصراخها اغربوا عن وجهي، اذهبوا للعب في الساحة، هذه ليست فرجة للأطفال، ثم، وكما لو أنّ ملاكاً عَبَرَ سماء الوطن، يخفت الصراخ، تتوقف الحياة ويُذهلُ الجميع، السبّابة على الشفتين، من دون تنفس، صمت، يطلق الجنرال طلقته، غير أن الذين يعرفونه جيداً لم يكونوا لينتظروا شيئاً من هدنة تلك اللحظة المهيبة، إذ كان يظهر دائماً مزدوجاً، فيشاهد وهو يلعب الدومينو في السابعة مساء ويكون في الوقت نفسه قد شوهد وهو يوقد النار في روث البقر ليبعد الحشرات عن قاعة الاجتماعات، ولم يكن أحد ليتعلّل بالأوهام مادامت أضواء النوافذ الأخيرة لم تنطفئ وما لم تسمع قرقعة الرتاجات الثلاثة وهي تغلق، ثم المزاليج الثلاثة ثم الدعامات الثلاث للحجرة الرئاسية، ومالم تسمع صدمة الجسد المنهوك منهاراً على أرض الغرفة، وتنفسه، تنفّس الطفل المغتاظ، وهو يزداد عمقاً مع ارتفاع المد البحري حتى اللحظة التي تسكت فيها قيثارات الريح الليلية أصوات الزّيزان في طبلتي أذنيه وتكتسح موجة ضخمة من ماء وزبد شوارع المدينة العتيقة مدينة حكام المستعمرات والمغامرين والقراصنة وتدخل بغتة البيت المدني من كل النوافذ كما في يوم سبت مخيف من شهر أغسطس، ضخّم حيوانات

بحرية لاصقة في المرايا وترك قاعة الاجتماعات تحت رحمة أسماك القرش الهائجة، متجاوزاً ارتفاع المحيطات ما قبل التاريخ طافحاً على وجه الأرض، والفضاء والزمان، بحيث لم يبق سواه طافياً على بطنه وحيداً فوق الماء القمري لأحلامه، أحلام الغريق المتوحد، ببزة الجندي البسيط الكتانية، ولفافتي رجليه الجلديتين، ومهمازه الذهبي، وساعده الأيمن المنثني تحت رأسه على هيئة وسادة. هذا الوجود المتزامن في كل مكان طيلة الأعوام الحصباء التي سبقت موته الأول، وذاك الصعود بينما كان ينزل، وتلك النشوة أمام البحر بينما هو يحتضر جريحاً بالحب المشؤوم، لم تكن ميزة في طبعه كما أعلن ذلك متملقوه، ولا هلوسة جماعيّة، كما أكد ذلك مغتابوه، كلا وإنما كان بكل بساطة محظوظاً في إمكانية الاعتماد على الخدمات المستقيمة وعلى أمانة الكلب الوفي التي كان يضمنها له باتريسيو أراغونيس، صنوه الكامل الذي اكتشف دون أن يبحث عنه أحد عندما وصلوا بالخبر، سيدي الجنرال، مركبة رئاسية مزوّرة تزور قرى الهنود وتعقد صفقات تجارية رابحة نيابة عنك، لقد رأينا العينين الصامتتين في الظل الجنائزي، ورأينا الشفتين الشاحبتين، واليد الشبيهة بيد الخطيبة المحسنة في قفاز من الساتان وهي ترمي بحفنات الملح إلى المرضى الراكعين في الشارع، وخلف المركبة كان ضابطان مزيفان على فرسيهما يجنيان ثمن نعمة العافية ذهباً، لكن تصور سيدي الجنرال، أي انتهاك للحرمات، أما هو فلم يصدر أي أمر ضدّ المحتال، ولم يطلب سوى الإتيان به خفية إلى القصر، ورأسه مغطى بكيس من القنّب لتفادي أي التباس، وكم شعر بنفسه مهاناً عندما اكتشف أمامه صورته تماماً، ونظيره في كل شيء، سحقاً، هذا الرجل هو

أنا، قال، وفي الواقع كان الشبه إلى حد الالتباس، هذا باستثناء نبرة الاستبداد في الصوت وهي الميزة التي لا ينجح الآخر في تقليدها البتة، وكذلك وضوح خطوط الكف حيث كان خط الحياة يتقوّس بلا موانع حول قاعدة الإبهام رغم ذلك لم يأمر بإعدامه رمياً بالرصاص فوراً، ليس لمصلحة، للاحتفاظ به كنائب رسمي، إذ أن هذه الفكرة لم تخطر له إلا فيما بعد، وإنما توهماً منه وخوفاً من أن تكون رموز مصيره مرسومة على كف المحتال. وعندما تأكد من أباطيل مثل ذلك الوهم كان سبق لـ باتريسيو أراغونيس أن نجا من ست محاولات اغتيال لم تترك فيه أثراً، بل إنه اكتسب عادة جرّ قدميه المفلطحتين بفعل ضربات المطرقة، وصار لأذنيه طنين، ولفتقه موسيقى تشدو له في صباحات الشتاء، وتعلّم خلع المهماز الذهبي وإعادة وضعه كما لو كان ربط الزنار ثم فتحه ليسا إلا ربحاً للوقت خلال الجلسات مع الهمهمة، آه تبّاً لحلقات أولئك الحدادين الفلامنديين، يا لها من خدعة، وذلك الثرثار السعيد الذي كان فيما مضى ينفخ الزجاج عند أبيه صانع القناني، صار رجلاً متأملاً نكد المزاج لا يهتم بما يقال له وإنما يتقصّى ظلال العيون ليسبر ما لا يقال، ولم يكن ليجيب عن سؤال قط قبل أن يسأل وأنت ما رأيك، والرجل المرح الخامل الذي كانه خلال تجارته بالمعجزات، أصبح رجلاً نشيطاً إلى حد الإنهاك ومشاءلا يكلّ، شديد البخل أيضاً وطماعاً، خضع للحب على عجل، وللنوم رأساً على الأرض بكامل ثيابه ممدداً على بطنه بلا وسادة، وتخلّى عن طموحه المبكر إلى شخصية متميّزة، كما تخلّى عن ميوله الوراثية كلّها وعن كل تردد محبّب لأن يبقى نافخ قنانٍ صغيراً. كان يجابه أخطر مخاطر السلطة، ويضع أحجاراً أساسية في الأماكن التي لن يوضع فيها

حجر ثانٍ، يقطع شرائط التدشين في أراضٍ معادية ويتحمل حشداً من الأحلام المبددة، والآهات المكبوتة، والأوهام المستحيلة لدى تتويجه حشداً من ملكات الجمال العابرات المنيعات دون التمكن من لمسهنّ ولو لمساً خفيفاً، ذلك أنه رضي بأن يعيش إلى الأبد قدراً ليس قدره، وهو أمر قام به ليس طمعاً أو اقتناعاً وإنما لأن فيه ضمانة لحياته مقابل تهمة محتال رسمي مدى الحياة مع راتب خمسين «بيزو» شهرياً وحظوة العيش مثل الملوك دون أن يتحمل آفة أن يكون كذلك حقاً، وماذا تودّون أحسن من ذلك. وانصهار الشخصيتين هذا، بلغ منتهاه في ليلة من ليالي الرياح الهوج حيث أنه فاجأ باتريسيو أراغونيس منصرفاً إلى مشاهدة البحر وهو يتنهّد بين روائح الياسمين الناعمة وسأله بقلق طبيعي جداً إن كانوا قد دسّوا له من عشب الأقونيط السام في طعامه لأنه يبدو جانحاً مع التيار ومدفوعاً برياح غير مواتية، لكن باتريسيو أراغونيس أجابه كلا سيدي الجنرال، إنه تسمم آخر أدهى، وكان في ذلك السبت قد توّج ملكة كرنفال، ورقص معها أول فالس، ولم يعد الآن قادراً على إيجاد بوابة الخروج من مثل تلك الذكرى، ذلك أنها كانت أجمل فتاة في العالم، فتاة لم تُجبلْ لأي كان، سيدي الجنرال، آه لو أنك رأيتها، ولكن الثاني رد وهو يتنفس الصعداء، سحقاً، تلك الأمور لا تحدث للرجال إلا عندما يُحرمون من النساء، ثم اقترح عليه مصادرتها كما فعلت العديد من الساحرات بمحظياته السابقات، سأثبتها لك على السرير بالقوة بواسطة أربعة عساكر يمسكونها لك من رجليها ويديها بينما أنت تخترقها به، سُحقاً، تنكحها عميقاً، إن أكثرهن انزعاجاً يتلوين غضباً في البداية وبعد ذلك يتوسلن إليك لا تتركني هكذا سيدي الجنرال لا تتركني مثل

تفاحة وردٍ بائسة ببذارها، لكن باتريسيو لم يكن يرغب في مثل ذلك أو بالأحرى كان يرغب في أكثر من ذلك، كان يريد أن يغدو محبوباً، إذ أنها من أولئك النساء اللواتي لا يجذبهن معسول الكلام سيدي الجنرال، سترى ما سترى لما تراها سيدي الجنرال، وهذا الأخير بدوره وصف له، كمخدر، الدروب الليلية المعتّمة الموصلة إلى حجرات محظياته وأمره أن يستعملهن «على السريع» مثله وهو بكل ثيابه، وغطس باتريسيو أراغونيس بكل ثقة في مستنقع المحبوبات المستعارات، كان يظن أنهن سوف يسكنّ حميّا رغباته الجامحة، على أن الحميّا كانت تصل به إلى حد نسيان شروط الإعارة، فكان حينئذٍ يجامع كي يتسلّى، ويتوقف أمام التفاصيل ويصطدم سهواً بالمجوهرات المخفية عند النساء الأشد بخلاً، مثيراً فيهن تنهدات وضحكات استغراب في العتمة، يا للداّعر سيدي الجنرال، يقلن له، مسنّ وملتهب حباً رغم ذلك ومن حينه لم يعد أحد الرجلين أو إحداهن ليدرك أبداً من كان ابن من ولا ابن من مع من، ذلك أن أبناء باتريسيو مثل أبنائه تماماً كانوا يولدون كلهم قبل الأوان. هكذا أصبح باتريسيو أراغونيس رجل السلطة الأول، الرجل المحبوب أكثر وربما المهاب أكثر، وتمتع هو بوقت أوسع كي يهتم بالقوات المسلحة باليقظة العائدة إلى بداية عهده، ليس لأن القوات المسلحة دعامة نظامه، كما كنا نعتقد جميعاً، وإنما بالعكس، لأنها كانت عدوّه الطبيعي الأكثر خطورة، لذلك كان يحمل بعض الضباط على الاعتقاد بأن ضباطاً آخرين يراقبونهم، كان يبعث البلبلة فيما بينهم ليمنعهم من التآمر، ويمدّ الثكنات بثماني رصاصات خلّبية مقابل عشر رصاصات حقيقية ويرسل إليها البارود ممزوجاً بالرمل البحري بينما يحتفظ في القصر بالذخيرة

الجيدة في متناول يده، مقفلاً عليها بمفاتيح تظل معلّقة في حمالة مفاتيحه التي لا نسخة أخرى لها والخاصة بالأبواب التي لا يمكن لغيره أن يفتحها، وعندما يفعل ذلك يكون في حماية الظل الهادئ لشريكي مدى الحياة الجنرال رودريغو دي أغيلار، المدفعي الخبير وخريج الأكاديمية الذي كان أيضاً وزيره للدفاع وقائد حرس القصر ومدير مخابرات الدولة وواحداً من الفانين النادرين المسموح لهم بالتغلّب عليه في لعبة الدومينو، إذ أنه فقد ساعده الأيمن بينما كان يحاول إبطال مفعول عبوة من الديناميت قبل مرور سيارة الرئاسة البرلينية بعدّة أشهر في مكان محاولة الاغتيال. كان يشعر بالاطمئنان بفضل حماية الجنرال رودريغو دي أغيلار وإرشاد باتريسيو أراغونيس بحيث صار يكثر من الظهور كل يوم ويتجرأ على النزهة في المدينة بصحبة مرافق واحد في عربته القديمة الخالية من الشعارات فيتأمل عبر ستائرها كاتدرائية الحجارة المذهبة المتغطرسة والتي أعلن بمرسوم أنها أجمل كاتدرائية في العالم، ويرصد البيوت القديمة المبنية من الحجر والإسمنت بقناطرها الآتية من عصور نائمة، ونباتات عباد الشمس المتجهة صوب البحر، والشوارع المبلطة في حي نواب الملوك بروائحها القريبة من رائحة فتيل محترق، الآنسات الداكنات وهن يغزلن الدانتيلا بذوق متناه ما بين أصص القرنفل وعناقيد الجهنمية المعرّشة في الشرفات المضاءة، ومربعات دير راهبات الباسك المتسقة مع التمارين نفسها على البيان القيثاري القديم في الساعة الثالثة بعد منتصف النهار، والتي احتفلت بأول ظهور للنجم المذنّب، وكان يخترق متاهة السوق البابلية وموسيقاها القاتلة وشعارات اليانصيب، عربات بائعي «الغوارابو»، شبكات بيض الأغوانة(٥)، سلع

الأتراك المتنوعة[٦] المبيضة من لفح الشمس، واللوحة المربعة للفتاة الممسوخة عقرباً لأنها لم تطع والديها، زقاق البؤس حيث نساء بلا رجال يخرجن عاريات مع أولى خيوط المساء لاقتناء غربان بحرية زرقاء وأسماك قجّاج ورديّة[٧] ويتلاسنّ بشدة مع بائعات الخضر بينما غسيلهن يجف على شرفات الخشب المنقوش، كان يفاجئ ريح المحار المتعفّن، ألق البجعات المعتاد بعد اجتياز منعطف الشارع، فوضى نقوش أكواخ الزنوج الماثلة على نتوء الجبل المندفع في الخليج، وفجأة، ها هوذا، إنه الميناء، آه الميناء، الرصيف بألواحه الإسفنجية، بارجة المارينز القديمة أكثر طولاً وأشد عتمة من الحقيقة، زنجيّة المرفأ وهي تبتعد بعد فوات الأوان كي تفسح المجال للسيارة المجنونة، شاعرة بأنها أصيبت إصابة قاتلة برؤية شيخ الشفق الذي كان يتأمل المرفأ بالعينين الأشد حزناً في العالم، إنه هو، صرخت مرتاعة، «فيفا الماتشو»[٨] هتفت، «فيفا» صرخ الرجال، النساء، الأطفال، الذين كانوا يهرعون ركضاً من الخمارات ومن المطاعم الصينية الحقيرة، «فيفا»، صرخ أولئك الذين شكلوا قوائم الخيل وأوقفوا السيارة لمصافحة يد السلطة، وكانت العملية ذات فعالية وغير منتظرة بحيث لم يكد يتمكن من إبعاد يد مرافقه المسلحة في الوقت المناسب وهو يؤنبه بصوت متوتّر، لا تكن أحمق، أيها الملازم، دعهم يحبّوني، وكان شديد التحمس لاندفاعات المحبّة تلك واندفاعات أخرى مشابهة في الأيام التالية، إلى حد أن الجنرال رودريغو دي أغيلار وجد صعوبة كبيرة في صرفه عن تلك الفكرة اللعينة، فكرة الخروج للنزهة، في عربة مكشوفة كي يتمكن رعايا الوطن من رؤيتي، نعم، إنها بادرة عاهرة، إذ أنه لم يكن يشك بتلقائية اقتحامه الأول للميناء، وإن كان

تلقائياً فعلاً، فإن الاقتحامات الأخرى كانت منظمة من قبل أجهزته الأمنية بالذات حتى يُجَارُوهُ دون مخاطر، كان مفتوناً بنسمات المحبة في عشية خريفه إلى درجة أنه خاطر بالخروج من المدينة بعد مرور سنوات عديدة، فأعاد سير القطار العتيق المدهون بألوان الراية الوطنية، مركبته القديمة التي تتسلق بقوائمها الأربع مرتفعات مملكته الشاسعة المضجرة فاتحةً طريقها عبر أدغال الأوركيديا والبلسمين[٩] الأمازونية، مذعرة القرود وطيور الفردوس والفهود النائمة على السكة الحديدية، حتى تبلغ القرى الباردة المقفرة في هضاب مسقط رأسه العالية ومحطّاتها حيث تنتظره جوقات جنائزية، وأجراس مأتمية، ولافتات ترحيب بالنبيل الذي لا اسم له والجالس إلى يمين الثالوث المقدس، أين احتشد على الطرقات هنود متسكعون تدفقوا لرؤية السلطة المتلفعة بظلال المقطورة الرئاسية، أما أولئك الذين يتمكّنون من الاقتراب فإنهم لم يكونوا ليروا سوى عينين ذاهلتين خلف الزجاج المغبر، كانوا يرون الشفتين المضطربتين، وكف يد من دون محتد تحيّي من حافة المجد البعيدة، بينما أحد مرافقيه يحاول إبعاده عن النافذة، احذر يا سيدي الجنرال الوطن بحاجة لسيادتك، فيجيب وهو نصف نائم، لا مدعاة للهلع أيها الكولونيل، هؤلاء القوم يحبونني، وكان ذلك هو ما يحدث سواء في تعرّجات القطار عبر الصحراء أم على متن السفينة ذات الدولاب الخشبي التي تترك ذيولاً من فالسات بيانو آلي في عطر الغاردينيا الناعم وفي سمندر[١٠] الروافد الاستوائية المتعفّن، متجنبّة هياكل التنين العظميّة العائدة إلى عصور ما قبل التاريخ وجزر القدر حيث حوريات البحر يأتين ليلدن، والعشايا الكوارثية في مدن شاسعة أصبحت أثراً بعد عين، حتى تبلغ

القرى الحارة المهجورة التي كان سكانها يهرعون إلى ضفّة النهر لمشاهدة السفينة الخشبية المدهونة بألوان الراية فلا يكادون يتوصلون إلى رؤية يد خفية مجهولة في قفاز الساتان وهي تحيي من كوة القمرة الرئاسية، أما هو فكان يشاهد على الضفة الجماعات الملوحة بأوراق «المالنغا» على هيئة أعلام، ويشاهد أولئك الذين يرتمون في الماء مع «دانتا» حيّة[١١] أو «أنيام»[١٢] ضخمة في حجم قدم الفيل، أو سلة من طيور «الغرّة» لتحضير طبخة السانكوشو[١٣] الرئاسية، فيتنهّد من التأثر في ظلال القمرة الكنسية، انظر كيف يُقبلون، كابتن، انظر كم يحبونني. وفي شهر ديسمبر عندما يصبح عالم الكاريبي شفافاً مثل الزجاج، يتسلق الطرق الساحلية الصخرية في عربته القديمة حتى يبلغ البيت المعلق في ذروة المرتفع الصخري وهناك يقضي فترة ما بعد منتصف النهار في لعب الدومينو مع الديكتاتورين القدامى لبلدان أخرى من القارة، مع آباء أوطان أخرى، مخلوعي التيجان، وفّر لهم ملجأ طيلة سنوات عديدة وقد بدأوا يشيخون الآن على مقاعد الشرفات في ظل رحمته حالمين بأوهام فرصة جديدة للإبحار والعودة، متحدثين مع أنفسهم، محتضرين وهم أموات أصلاً في بيت الطمأنينة الذي شيده من أجلهم على تلك الشرفة البحرية، بعد أن استقبلهم جميعاً مثل رجل واحد، إذ كانوا كلهم يلوحون مع الفجر مرتدين بزة العظمة بالمقلوب فوق بدلة النوم، مع صندوق يحتوى على الأموال المنهوبة من الخزانة العامة وعلبة أوسمة في الحقيبة، وقصاصات صحف ملصقة على دفاتر محاسبة قديمة و«ألبوم» صور تُظهر كل واحد منهم أثناء استقباله الرسمي الأول كما لو كان الأمر يتعلق بتقديم أوراق اعتماد قائلاً انظر، جنرال، هذا أنا لما كنت ملازماً

أول، وهنا كان يوم التقليد، وهنا الاحتفال بالذكرى السادسة عشرة لتولّي السلطة، وهنا، انظر، جنرال، أما هو فكان يهبهم اللجوء السياسي من دون أدنى اهتمام أو تمحيص في وثائقهم لأن بطاقة الهوية الوحيدة لرئيس مخلوع يجب أن تكون برأيه شهادة وفاته، ثم يستمع بازدراء مماثل إلى الخطبة القصيرة المزيّفة أتقبل حسن ضيافتكم الكريمة بينما تطالب عدالة الشعب بمحاسبة المغتصب، وهي الصياغة الأبدية للاحتفالات التبجيلية الساذجة التي سمعها فيما بعد من قبل المغتصب بدوره ثم من قبل مغتصب المغتصب، كما لو أنّ أولئك المغفلين لم يتعلّموا أنّ الذي يسقط في السياسة ينهار إلى الأبد، كان يؤويهم جميعاً لعدة شهور في المبنى الرئاسي ويجبرهم على لعب الدومينو حتى آخر فلس معهم، وبعد ذلك أمسك بي من يدي وأخذني إلى النافذة التي تطل على البحر، اشتكى معي من هذه الحياة القحبة التي لا تعرف سوى طريق واحد، ثم عزّاني بوهم الذهاب إلى هنالك، انظر، إلى هنالك، إلى ذلك البيت الضخم الذي يشبه عابرة محيط جانحة في ذروة الصخور، حيث أهبك هناك غرفة حسنة التهوئة وغذاء طيباً، ووقتاً، متّسعاً من الوقت من أجل النسيان بصحبة رفاق سوء طالع آخرين، مع شرفة بحرية حيث كان يطيب له الجلوس بعد منتصف النهار في أيام شهر ديسمبر ليس رغبة في لعب الدومينو مع تلك الزمرة من ديكة القن بل ليستمتع بحظّه الحقير في كونه ليس على مثل حالهم، لكي يتأمل ذاته في مرآة مأساتهم متوحلاً مع سعادته في المستنقع الكبير، حالماً وحده، مقتفياً، بخطى الذئب، الخلاسيات المطمئنات وهن يكنسن البيت المدني في غبش بداية الصباح، مشتمّاً فيهن رائحة الملاذ الليلي و«البريانتين»(١٤)

الرخيص، وكان يترصد الفرصة التي يختلي فيها بإحداهنّ فيضاجعها مثل الدّيك خلف أبواب المكاتب بينما هنّ يقهقهن في الظل، يا لك من بطل سيدي الجنرال، دائماً ملتهب حباً رغم الشيخوخة، أما هو فكان يقبع حزيناً بعد المضاجعة ويشرع في الغناء كيما يتعزى هناك حيث لا أحد يتمكن من سماعه كان يغني يا قمر كانون الثاني، يا مشعاً في الأعالي، انظر إليّ على مشنقة نافذتك حيث القدر رماني، كان يغني واثقاً من محبّة شعبه خلال كل شهور أكتوبر تلك دون أدنى تطيّر إلى حدّ أنه علّق أرجوحة للنوم في فناء قصر الضاحية حيث تعيش أمه بندثيون ألفارادو وتقضي القيلولة تحت ظلال شجر التمر الهندي، من دون مرافقين، حالماً بأسماك تائهة تبحر في المياه الملونة داخل الحجرات، متنهداً، الوطن هو أجمل الابتكارات، أماه، لكنه لم يكن ينتظر قط إجابة الشخص الوحيد الذي تجرّأ على توبيخه بسبب رائحة البصل الزنخة تحت إبطيه، كلا، كان يدخل القصر الرئاسي من البوابة الكبيرة مفعماً بذلك الموسم الرائع في الكاريبي خلال شهر يناير مباركاً تلك المصالحة مع العالم في قمة الشيخوخة، وتلك الأماسي الخبازية التي بعد أن صادق خلالها على السلام مع القاصد الرسولي، صار الأخير يقوم بزيارات مرتجلة له محاولاً هديه إلى ديانة المسيح بينما هما يحتسيان الشوكولا ويقضمان قطع البسكويت، وهو يحتج ضاحكاً حتى الموت ويقول إذا كان الله فحلاً بالقدر الذي تتحدث عنه، فقل له إذاً أن يخلصني من هذه الدويبة التي تطن في أذني، ثم يفك الأزرار التسعة في فتحة بنطاله ويريه الفتق العجيب، قل له أن يزيل انتفاخ هذا المخلوق، لكن القاصد الرسولي ينطلق رابط الجأش في وعظ رواقي مطوّل محاولاً

إقناعه بأن كل ما هو حق، حتى وإن لم يعجبك، يأتي من الروح القدس، ثم يرافقه حتى الباب عند أولى أضواء الليل مستغرقاً في الضحك حتى الموت، لا تتعب نفسك، أبتاه، يقول له، لماذا تريدني أن أهتدي بما أنني في كل الأحوال أقوم بما ترغبون فيه أنتم الكهنة، سحقاً. ثم تنهار تلك الطمأنينة فجأة في إحدى حلبات صراع الديكة المنسية حيث يقتلع ديك قاتل رأس منافسه ويمزقه بضربات منقاره أمام جمهور ثمل بالدم وجوقة سكارى تغني الرعب بألحان مهرجانية، وكان هو الوحيد الذي فاجأ الشؤم وأحس به جلياً ووشيكاً إلى حد أنه أمر مرافقيه خفية، بإيقاف أحد الموسيقيين، ذاك الذي ينفخ في الرماثة[١٥]، وبالفعل وجد عند الآخر بندقية مصقولة الأنبوب، واعترف تحت التعذيب أنه كان ينوي استخدامها خلال فوضى الخروج، بلى، قال، كان الأمر واضحاً، إذ أنني كنت أنظر إلى الجميع، والجميع كانوا ينظرون إليّ إلا نافخ الرماثة الدنيء هذا الذي لم يجرؤ على النظر إليّ ولو مرة واحدة يا للمغفل المسكين، إلا أنه كان يدرك أن ذلك لم يكن سبب قلقه العميق، إذْ واصل القلق إزعاجه ليلاً حتى في البيت المدني بعد أن أوضح له رجال أمنه ما من سبب يجعلك تقلق سيدي الجنرال، نحن سادة الموقف، أما هو فمنذ نذير صراع الديكة تعلّق بباتريسيو أراغونيس كما لو أنه لم يكن شخصاً آخر وإنما هو ذاته، وأخذ يرغمه على مشاركته في الطعام وكان يناوله ليشرب من عسله في ملعقته الخاصة حتى يمتلك على الأقل، سلوى الموت سوياً إذا كان ما يبتلعانه مسموماً، فكانا يجتازان الغرف المنسية مثل هاربين ويمشيان على السجادات حتى لا يسمع أحد خطواتهما الضخمة الخفية، خطوات الفيلة الآتية من مملكة سيام، ويبحران معاً في

ضوء المنارة المتقطع المتسلل من النوافذ والذي يغرق حجرات البيت كل ثلاثين ثانية باللون الأخضر عبر دخان روث البقر والوداعات الكئيبة للسفن الليلية على البحور الغافية، ويقضيان أوقات الظهر بكاملها وهما يتأملان المطر، يحصيان السنونو مثل عاشقين عجوزين في كآبات أيلول، منقطعين عن العالم بحيث لم يخالجه شك في أن صراعه الضاري من أجل أن يوجد مرتين، كان يغذي الشك النقيض، فكان الاعتقاد الأكثر صحة في كل مرة هو أن وجوده كان ينحسر، ولقد راح مرة في سبات، فضوعفت الحراسة ولم يسمح لأحد بالدخول إلى البيت الرئاسي أو الخروج منه، ورغم ذلك نجح أحدهم في اختراق الحراسة المشددة ورأى الطيور الخرساء في الأقفاص، الأبقار وهي تشرب من جرن المعمودية، البرصى والمشلولين نائمين تحت أشجار الورد، وكان الجميع يبدون في منتصف النهار كأنهم بانتظار فجر جديد، بما أنه مات ميتة طبيعية أثناء نومه كما أعلنت ذلك قصعات العرافات إلا أن السلطات العليا ظلت تؤخر النبأ محاولة فض نزاعاتها السابقة بمؤامرات دموية. ورغم جهله بتلك الضوضاء، فقد كان يعي أن شيئاً ما يوشك أن يحدث في حياته، فكان يقاطع لعبة الدومينو البطيئة كي يسأل الجنرال رودريغو دي أغيلار وماذا عن انزعاجاتنا أيها الشريك، نحن نراقب الموقف سيدي الجنرال، لا شيء جديداً، كان يرصد علامات الأحداث في أكوام الحطب الكئيبة عند الضوء الآتي من احتراق روث البقر في الأروقة، ويرصدها في المستنقعات القديمة من دون أن يجد جواباً لقلقه، وكان يذهب لرؤية أمه بندثيون ألفارادو في محل إقامتها في الضاحية عندما تخف الحرارة، فيجلسان لتنشق الهواء الندي تحت شجر التمر الهندي. هي في كرسيها

الهزاز وقد أنهكتها الشيخوخة من دون أن تؤثر في مداركها ناثرة حفنات الذرة للدجاجات والطواويس التي كانت تنقر الحب في الفناء، وهو، على كرسي من خشب السوحر(١٦) مطلي بالأبيض، متروحاً بقبعته، متابعاً بنظرة الشيخ الشبق الخلاسيات الكبيرات اللواتي كن يأتين له بعصير الفواكه الطازجة الملون مع هذه الحرارة يعطش المرء سيدي الجنرال، madre mia(١٧) بندثيون ألفارادو كان يفكر، لو أنك تعلمين كم يزعجني هذا العالم، أريد الفرار ولست أدري إلى أين، يا أمي، بعيداً عن هذه القذارة، ورغم ذلك لم يكن يفصح عن مكنونات صدره حتى لأمه، وكان يدخل المنزل الرئاسي مع أولى أضواء المساء ويدفع باب الخدم ويستمع وهو يجتاز الأروقة إلى قرقعة أعقاب أحذية الحراس الذين يحيّونه، لا جديد يذكر سيدي الجنرال كل شيء على ما يرام، ولكنه يعلم أن ذلك ليس أكيداً وأنهم يخدعونه عادة ويكذبون عليه خوفاً، وأن لا شيء كان حقيقياً في أزمة الشك تلك التي تجعل مجده مرّ المذاق وتسلب منه حتى ميوله القديمة إلى القيادة منذ مساء صراع الديكة المزعج، فكان يطيل الاضطجاع على بطنه فوق الأرض من دون أن ينام حقاً، ويسمع من النافذة المطلة على البحر، الطبول النائية الكئيبة وأنغام «الغايتا» الحزينة التي تحتفل بأحد أعراس الفقراء، بالاندفاع نفسه الذي قد يحصل احتفالاً بموته، وسمع وداع سفينة قرصنة ترفع مرساتها في الثانية صباحاً دون إذن من الربان، سمع أوراق الورود المتفتحة مع بدايات الصباح، كان عرقه بارداً، وكان يتأوّه رغماً عنه، دون توقف، متهجّساً بغريزته الوحشية من مساء مداهم حيث كان عائداً من قصر الضاحية، وفاجأه لغط العامّة في الطريق، وكانت نوافذ تفتح وتغلق،

بينما كان سرب هلع من السنونو يخترق سماء ديسمبر الشفافة، فرفع قليلاً ستارة مركبته ليرى ما يحدث قائلاً لنفسه، هذا شيء جميل، أمّاه، هذا شيء جميل، كان يحدث نفسه، شاعراً بارتياح عظيم وهو يشاهد البالونات في السماء، البالونات الحمراء والخضراء، البالونات الصفراء مثل برتقالات كبيرة زرقاء، البالونات التائهة التي لا تحصى وتشق طريقها عبر رفّ طيور السنونو المذعورة، وتطفو برهة في نور الساعة الرابعة الكريستالي ثم تتفرقع فجأة، في انفجار جماعي مكتوم يطلق آلافاً مؤلّفة من المناشير على المدينة، زوبعة من رسائل الهجاء الطائرة، في حين ينتهز الحوذي الفرصة لكي يتوارى بعيداً عن ضوضاء السوق دون أن يتعرف أحدهم على عربة السلطة، إذ كان الجميع يتنازعون من أجل مزق البالونات، سيدي الجنرال، يزعقون بما كتب على البالونات من الشرفات، يكررون غيباً ليسقط القمع، الموت للطاغية، وحتى حرس البيت الرئاسي كانوا يقرؤون في الأروقة بصوت مرتفع اتحاد الجميع دون تمييز طبقي ضد استبداد القرون، المصالحة الوطنية ضد الفساد وغطرسة العسكر، انتهى عهد الدماء، يصرخون، انتهى النهب، وكانت البلاد بأكملها تستيقظ من سباتها الدهري في اللحظة التي كان يدخل فيها من بوابة المرآب ويحاط علماً بالنبأ الرهيب سيدي الجنرال، باتريسيو أراغونيس جرح جرحاً قاتلاً بسهم مسموم. قبل سنوات، وعشية خلاف عابر، اقترح على باتريسيو أراغونيس المراهنة بحياتهما «وجهاً» أو «قفا» (طرّة أو نقشاً)، «قفا» تموت أنت، «وجه» أموت أنا، لكن باتريسيو أراغونيس أوضح له أنهما سيتعادلان في الموت إذ أن كل النقود كانت تحمل الرأس نفسه، رأسيهما، على وجهها وقفاها، عندئذ

اقترح الرّهان نفسه بلعبة الدومينو، في عشرين جولة، وقبل باتريسيو أراغونيس، لي الشرف وبكل سرور سيدي الجنرال أرجو أن توفّر لي إمكانية الربح وقبل بذلك، اتفقنا، ولعبا جولة، ثم اثنتين، ثم لعبا عشرين جولة وربح باتريسيو أراغونيس الجولات كلها، أما هو فلم يكن ليربح في العادة إلا لأنه كان محظوراً على خصمه أن يتغلب عليه، وخاضا معركة طويلة وضارية حتى بلغا الجولة الأخيرة دون أن يتمكن من ربح جولة واحدة، وجفّف باتريسيو أراغونيس عرقه بكمّ قميصه متنهداً، أنا حقاً متأسف سيدي الجنرال لكنني لا أريد أن أموت، وشرع هو يجمع قطع الدومنيو، ثم أخذ يرتبها في الصندوق الصغير قائلاً، كما ينشد معلم المدرسة أمثولة، بأنه هو الآخر لا يجد مبرراً للموت على طاولة دومينو إلا إذا تم ذلك في وقته ومكانه وبميتة طبيعية وهو نائم، كما تنبأت بذلك منذ بداية عهده، جفنات العرّافات، وربما بطريقة أخرى، لو أمعنا في ذلك أكثر، إذ أن بندثيون ألفارادو لم تلدني كي أثق بالعرافات وإنما من أجل أن أتولى القيادة، وفي نهاية المطاف أنا هو أنا، وليس أنت، إذاً اشكر الله أن ذلك لم يكن سوى لعبة، قال له مبتسماً، دون أن يتصوّر آنئذ أو أبداً أن تلك الدعابة المريعة سوف تتحول إلى واقع عشية دخل غرفة باتريسيو أراغونيس ووجده يصارع غمرات الموت، دون علاج، ودون أي أمل في الخلاص من السمّ، فحياه من العتبة، ماداً يده، ليدخلك الله فراديس جنانه، أيها الفحل، الموت في سبيل الوطن شرف عظيم. ومكث معه في احتضاره البطيء، كانا وحدهما في الغرفة، هو مقدّماً اللعقات المسكّنة التي كان باتريسيو أراغونيس يبتلعها دون أن ينبس بكلمة شكرٍ قائلاً له أتركك لوقت قصير مع عالمك القذر سيدي

الجنرال إذ أن قلبي يقول لي إنّنا سنتقابل عما قريب في أعماق جهنّم. أنا أكثر التواء من سِلّورٍ بحري بسبب السمّ وأنت رأسك على كفّك متسائلاً أين تضعه، ليكن كلامي دون أدنى احترام سيدي الجنرال، إذ بإمكاني الآن الاعتراف لك بأنني لم أحبك قط كما تتصور وأنني منذ عصر القراصنة البعيد حيث كان من نكد طالعي أن جنحت إلى منطقة نفوذك، وأنا أصلي لكل تُقتل ولو بنزاهة، حتى أتخلص من حياة اليتم هذه التي أكرهتني عليها ، بداية من فلطحتك لقدميَّ بمدقة حتى تصيرا مثل قدميك، قدميْ رجل سائر في نومه، ثم بثقبك لخصيتيَّ بمخرز إسكافي حتى يصير لي فتق ثم بإكراهي على التجرّع من صمغ البطم حتى أكف عن معرفة القراءة والكتابة، الأمر الذي كلّف أمي جهوداً كبيرة وكلفني ثمناً غالياً من أجل النسيان، وبإكراهك لي دائماً على تمثيلك في الاحتفلات العامة التي تخشاها ليس لأن الوطن بحاجة إليك حياً كما تقول وإنما لأن أكثر الرجال جرأة يصاب بالهلع عندما يتوّج قحبة جمال دون أن يعرف من أين سيصيبه الموت، ليكن كلامي من دون أدنى احترام سيدي الجنرال، أما هو فكان تأثره بوقاحة باتريسيو أراغونيس أقل من تأثره بنكرانه للجميل، باتريسيو أراغونيس الذي أحللته مثل ملك في قصر، وأعطيته ما لم يعطه أحد لأحد على وجه هذه الأرض، رغم أنني منحتك نسوتي، الأفضل عدم التحدّث في ذلك سيدي الجنرال، نعم من الأفضل أن يُخصى المرء بمطرقة على أن يقلب أمهات على الأرض كما لو كان الأمر يتعلّق بدمغ عجول بالحديد، مع فارق كون أولئك الهجينات فاقدات الروح لا ينتفضن على الأقل تحت الحديد وهنّ لا يركلن ولا يلتوين ولا يتذمّرن مثل العجول، كما أنهنّ لا يطلقن دخاناً

من أردافـهنّ ولا تشم لهنّ رائحـة شـائطة، ومـا يطلب من النسـاء عـلى الأقل، من النسـاء الحقيـقيـات، هو أن يتركن أجسـادهنّ أجسـاد الأبقـار الميـتـة، لأداء الواجب مع مـواصلة تقـشـير البطاطا والصراخ برفـيقـاتهنّ أرجـوكِ ألقي نظرة على المطبخ قليـلاً حـتى أكـمل هنا، إن طبـخـة الرزّ ستـحـترق، ليس هناك سواك للاعـتـقـاد بأن هذه القذارة هي الحب سيـدي الجنرال، لأنه الشـكل الوحـيـد الذي تعـرفـه، ليـكن كـلامي دون أدنى احـتـرام، ثم إنه بدأ بالزعـيق، اخـرسْ، سـحـقـاً، اخـرس وإلا سـوف تدفع الثمن غـالياً، ولكن باتريسـيو أراغـونيس واصل كلامه دون أدنـى نية في المزاح لماذا أسكت إذا لم تكن قـادراً على أي شيء سوى قـتلي، وأفـضلُ ما تفعله هو أن تغتنم الفرصة لمجابهة الحقيـقة سيـدي الجنرال، ولتعلم أن لا أحد قط قـال لك ما يفكر فـيه حقاً، ولكن جميعـهم يقـولون لك ما تودّ أنت أن تسمعـه في حين يركعون أمامك والبنادق تشـهر ضدك من الخلف، أشكر على الأقل الصدفة التي شاءت أن أكون الرجل الأكثر شفقة عليك في هذا العـالم إذ أنني الوحيد الذي يشـبهك، الوحيـد الذي له شـرف نقل كل مـا يقـوله الجـمـيع عنك، بأنك لـست رئـيـس أحـد وأنك لـست مـديـنـاً بعـرشك لمدافعك وإنما للإنكليز الذين نصبوك عليـه، مدعـوماً فـيـما بعـد بالغرينغو(١٨) وببـحارة مدرعـاتهم، ولقد رأيتك تـطوف هنا وتطوف هناك دون أن تعرف مـن أين ستـبدأ بالقيادة عندما صرخوا بك لقد تركناك مع فـوضى زنوجك لكي نرى كـيف سـتـتدبر أمرك دوننا، ومن يـومهـا لم تـرفع مؤخرتك عـن كـرسيك لا عـن إرادة بل عـن عـجز، اعـتـرف بذلك، إذ تعـرف أن اليـوم الذي يرونك فـيـه بكامل ثيـابك في الشـارع مثل أيّ فـانٍ بسيط سـوف ينقضـون عليك انقضـاض سرب مـن كلاب الصـيد عـلى أيّل كي

يجعلوك تدفع ثمن مجزرة «سانتا ماريا- دل- ألتار»، عذاب السجناء الذين كان يلقى بهم في خنادق القلعة كي تمزقهم التماسيح وهم أحياء، وعذاب أولئك الذين كانوا يسلخون أحياء ثم ترسل جلودهم فيما بعد إلى عائلاتهم لأخذ العبرة، قال له، وهو يُخرج من بئر أحقاده التي لا قرار لها، سلسلةً لا تنتهي من الوسائل الشنيعة المستخدمة من قبل نظام الجرائم الفظيعة هذا، حتى اللحظة التي لم يعد فيها قادراً على الكلام أكثر إذ أن ممشاطاً من نار مزّق أحشاءه، فارتخى قلبه وانتهى إلى القول دون نية إهانة وبنبرة توسل تقريباً، أحدّثك جاداً سيدي الجنرال، اغتنم فرصة موتي لتموت معي، لا أحد أرفع مني مقاماً كي يقول لك ذلك إذ لم يخطر ببالي قط أن أشبه أيّاً كان وبالأخصّ أن أكون بطلاً وطنياً، فقط نفّاخ زجاج يصنع قارورات، مثل أبي، لا تتردد سيدي الجنرال، ليس ذلك مؤلماً كما يُظن، ولفظ تلك الكلمات بنبرة صدق جلية إلى حدّ أن غضبه خفت ولم يسعفه بالردّ، وحاول أن يسنده على كرسيه عندما رأى أنه بدأ يتلوّى ماسكاً معدته بكلتا يديه، منتحباً بدموع الألم والخزي، يا للمصيبة سيدي الجنرال كلي براز، فظنّ أن الآخر كان يقول ذلك بالمعنى المجازي ويقصد القول إنه يموت من الخوف، إلا أن باتريسيو أراغونيس، أجابه كلا، أقصد أنني أفعلها تحتي سيدي الجنرال، فتمكّن من التوسل إليه تمالك نفسك يا باتريسيو أراغونيس، تمالك نفسك، نحن جنرالات الوطن ينبغي أن نموت مثل سائر الناس رغم أننا نبعث فيه الروح، لكنه قال ذلك متأخراً إذ أن باتريسيو أراغونيس ترنّح وسقط عليه مرتعشاً ألماً وملطخاً بالبراز وبالدموع. وفي المكتب المجاور لقاعة الاجتماعات توجّب عليه فرك الجسد بقفاز من شعر وبالصابون لطرد أثر الموت وألبسه

القماش الذي جهزه، ووضع له ضمادة الكتان، ولفّافاته والمهماز الذهبي على الكعب الأيسر، شاعراً في الأثناء أنه صار الرجل الأكثر عزلة على وجه الأرض، وأخيراً محا كلَّ أثر لتلك الخدعة واحتاط لأصغر التفاصيل كما رآها في مياه القصاع، كي تكتشف منظّفات المنزل في الغداة، الجسد مثلما تمّ لهن اكتشافه، ممدّداً على وجهه فوق أرض المكتب، ميتاً لأول مرة ميتة زائفة طبيعية، خلال نومه، مع بدلة القماش دون شعارات، واللفافات والمهماز الذهبي، والساعد الأيمن تحت رأسه على هيئة وسادة. في تلك المرة أيضاً لم ينتشر الخبر فوراً، بعكس ما كان يأمل، ولكن مرّت ساعات وساعات، ساعات حذر وتحقيقات سرية، وأخذ وعطاء بين ورثة النظام الذين كانوا يحاولون كسب الوقت بتكذيب اللغط حول موته بمختلف أنواع الصيغ المتضاربة، وجلبت أمه بندثيون الفارادو إلى شارع السوق حتى نلاحظ أن هيئتها لا تدل على الموت، ألبستُ، سيدي، فستاناً مزيناً بالزهور مثل قردة سيرك، وأجبرتُ على شراء قبّعة من ريش الببغاء كي يرى كل الناس جيداً أنني سعيدة، وتوجّب عليّ أيضاً شراء كل التفاهات التي كنا نجدها في المحلات، أما أنا فكنت رغم ذلك أقول كلا، سيدي، ليس الوقت وقت تسوّق وإنما وقت بكاء بما أنني تيقنت أن الميت إنما كان ابني، وكنت أجبر على الابتسام عندما يُمطرني المصوّرون بوابل من الصور، أما العسكريون فكانوا يقولون إنه ينبغي ذلك من أجل الوطن بينما هو يتساءل منزعجاً في مخبئه ماذا يحدث إذاً في دنيا الأحياء حتى لا يتحرّك شيء منذ الخدعة المتعلّقة بوفاتي، ترى كيف أشرقت الشمس مرتين من دون تذمّر، لماذا هذا الجو الاحتفالي، أماه، لماذا هذه الحرارة الدائمة رغم موتي، كان يتساءل مستغرباً، ولكن

في اللحظة نفسها، دوّت طلقة مدفع مباغتة في قلعة الميناء، ودقت نواقيس الكاتدرائية وبدأت جلبة عارمة ترتفع حتى البيت المدني، حشد من الناس أيقظهم أهم نبأ في العالم من ركود القرون، عندئذٍ فتح باب الغرفة قليلاً وظهر في قاعة الاجتماعات، فرأى نفسه مسجّى في غرفة الموتى، أكثر موتاً وزركشة من كل بابوات المسيحية المتوفين، متأثراً بفظاعة جسده الرجولي وخزْيِه، جسد جندي ممدد بين الزهور والوجه أدكن تحت مسحوق الأرز، الشفتان مطليتان، واليدان الشبيهتان بيدي فتاة قوية ثاويتان على الصدر المدجّج بميداليات الحروب، وهو في البزة العظيمة البرّاقة مع الشموس العشر الغسقية لجنرال الكون، اللقب الذي ابتُكِرَ من أجله بعد وفاته، حسام ملك الكبّا[١٩] الذي لم يجرّد من غمده مطلقاً، لفافات الجلد المبرنق على ساقيه مع المهمازين الذهبيين، مآثر القوّة والأمجاد الحربية الكئيبة المتقلصة في حجمه البشري، حجم اللوطي الكسول، سحقاً إذاً، كلا، هذا ليس أنا، حدث نفسه ساخطاً، هذا ليس صحيحاً، يا للفوضى، حدّث نفسه متأملاً الموكب الذي يتقاطر حول جثته، وللحظة نسي عزمه الغامض على المخادعة وأحس بنفسه مهاناً، متقلصاً بصرامة الموت أمام عظمة السلطة، ورأى الحياة من دونه، رأى بنوع من الشفقة حال الرجال الذين هجرتهم سطوته، رأى بقلق خفي أولئك الذين لم يأتوا إلا لحل اللغز، أذاك هو حقاً أم لا، رأى شيخاً حيّاهُ بتحية ماسونية كما كانت الحال خلال الحرب الفيدرالية، رأى رجلاً في حِداد يقبّل خاتمه، رأى تلميذة تضع زهرة على جثته، رأى بائعة سمك غير قادرة على تصديق حقيقة موته وهي تترك سلّة أسماكها الطازجة تقع وتضمّ الجثة المعطرة باكية ومولولة إنه هو، يا يسوع الطيب، من لنا

بعده، كانت تبكي، إذاً إنه هو، كانوا يصرخون، إنه هو، صرخ الحشد المختنق تحت شمس ساحة الأسلحة، ولكن فجأة انقطع قرع النواقيس الحزينة وأعلن ناقوس الكاتدرائية ونواقيس الكنائس كلها عن أربعاء الحبور، وانطلقت أسهم الفصح النارية وطقطقت مفرقعات الفرح، ودقت طبول التحرير، وشاهد جماعات المهاجمين تندفع من النوافذ مع صمت الحرس المتواطئين، رأى المحرضين الشرسين يشتتون موكب الجنازة بالهراوات ويوقعون بائعة السمك شديدة الحزن على الأرض، رأى أولئك الذين كانوا يتعلقون بالجثة في ضراوة، الرجال الثمانية الذين أخرجوه من حاله السحيقة في القدم ومن زمنه الوهميّ، زمن زهرة العشاق ودوّار الشمس ثم نقلوه وهم يجرجرونه على السلالم، وأولئك الذين انتشلوا أمعاء جنّة البؤس والرخاء ظنّاً منهم أنهم كانوا يتلفونها إلى الأبد بإتلاف عرين السلطة، وتخريب تيجان الأعمدة اليونانية المصنوعة من الكرتون المقوّى، وستائر المخمل والأعمدة البابلية المتوّجة بالنخيل المرمري، وبرمي الأقفاص الملأى بالطيور من النوافذ، وكذلك عرش حكام المستعمرات، والبيانو المذنّب، وبتدنيس أقبية الموتى مع رماد الرجال العظام المجهولين، بتمزيق البسط حيث الصبايا كنّ ينمن على جندولات خيبة، بتحطيم رسوم الأساقفة والعسكريين القدامى الزيتية ولوحات المعارك البحرية التي لا يمكن تخيّلها، بإفناء العالم حتى لا تتبقى في ذاكرة الأجيال القادمة أدنى ذكرى عن سلالة العسكريين الملعونة، ثم نظر إلى الشارع عبر فجوات النافذة كي يقدّر مساحة الدّمار الذي أحدثه رمي النوافذ وبنظرة واحدة رأى من الأعمال الشائنة ونكران الجميل ما لم يرَ ويبكِ مثله قط بعينيٍّ منذ ولدت، أمّاه، رأى أرملاته فرحات يهجرْن

البيت من أبواب الخدمة ساحبات خلفهنّ بالحِبَال بقرات اسطبلاتي، ناقلات أثاث الحكومة، وأواني قفير نحلك، ماما، رأى أبناء الهجناء يجهزون أوركسترا مرحة بأدوات المطبخ، وبكنوز الكريستال ومعدّات ولائم البذخ منشدين زاعقين كما الرّعناء بابا مات تحيا الحريّة، رأى الجمر متقداً في ساحة الأسلحة لإحراق الرسوم الرسمية والتقاويم التي كانت توجد في كل مكان وفي كل آن منذ بداية عهده، ورأى جسده ذاته يجرجر مخلّفاً على بلاط الشارع عدداً من النياشين والكتفيات وأزرار السترة ذات العرى المزخرفة ونسالة الدّيباج والمشابك المزركشة وشرابات حسام وأوراق لعب، وشموس ملك الكسوف والخسوف العشر الحزينة، أمّاه، انظري في أية حال جعلوني، كان يقول، وهو يشمّ على لحمه بالذات، خزي البصاق ومباول المرضى التي كانت تفرغ من أعالي الشرفات أثناء مروره، مرتاعاً من إمكانية أن يُمزّق وتأكله الكلاب والعقبان بين العواء الهائج ورعود الناريات احتفالاً بكرنفال موتي. وبعد مرور الكارثة واصل سماع المطالع الغنائية النائية في مساء بلا ريح، وواصل قتل زيزان أذنيه بالضربات نفسها لأنها كانت تعرقل تفكيره، واصل مشاهدة احمرار الحرائق في الأفق، والمنارة التي كانت تخطط جسمه بالضوء الأخضر كل ثلاثين ثانية عبر فجوات النافذة، كان يفاجئ تنفس الحياة اليومية التي تستعيد مجراها الطبيعي كلما صار موته شبيهاً بميتات أخرى ماضية، وكذلك فيض الواقع المتدفق الذي كان يحمله نحو أرض الشفقة والنسيان التي لا اسم لها، سحقاً إذاً، ليذهب الموت إلى الجحيم صرخ، مغادراً مخبأه، متيقناً بحماس من أنّ ساعته، ساعته الكبرى، قد أزفت، اجتاز القاعات المنهوبة مجرجراً ساقيه

المتثاقلتين، ساقي العائد من موته وهو بين بقايا حياته السابقة، في الظلمات التي كانت تعجّ بروائح الزهور المحتضرة وشموع الدفن، دفع باب قاعة المجلس الوزاري، واستمع عبر الهواء الدخاني إلى الأصوات المنهكة حول طاولة خشب الجوز الطويلة، ورأى عبر الدخان أنَّ كل من كان يرغب في حضورهم كانوا حاضرين، من الليبراليين الذين باعوا الحرب الفيدرالية، وإلى المحافظين الذين اشتروها، جنرالات القيادة العليا، ثلاثة من وزرائه، كبير المطارنة والسفير «شنونتنر»، كلهم مجتمعون من أجل الخديعة نفسها، متذرعون باتحاد الجميع ضد استبداد القرون لاقتسام غنيمة موته فيما بينهم، كانوا غارقين في مستنقعات الجشع بحيث لم ينتبه أحد منهم إلى ظهور الرئيس بلا قبر، والذي ضرب ضربة واحدة على الطاولة بكف يده وصاح آه آه ولم يجد شيئاً آخر يفعله إذ ما كاد يرفع يده حتى بخّرهم الرعب ولم يبق في القاعة الفارغة سوى منافض السجائر الطافحة، فناجين القهوة، الكراسي المقلوبة على الأرض، وشريكي مدى الحياة الجنرال رودريغودي اغيلار في بدلته الريفية، كان صغيراً هادئاً وهو يبعد الدخان بيده الوحيدة كي يشير إليه ارتمِ أرضاً سيدي الجنرال الآن سوف يشتد القتال. وانبطح كلاهما على الأرض في اللحظة نفسها التي بدأ فيها نشيد الرشاشات المميت أمام المنزل، المهرجان الدموي لعناصر الحرس الرئاسي، الذين كانوا ينفذون بكل سرور وشرف عظيم سيدي الجنرال أمره الضاري بألا يخرج أحد حياً من مؤامرة الخيانة هذه، فقضوا برشاشاتهم على أولئك الذين حاولوا الهروب من الباب الرئيسي، واصطادوا مثل العصافير أولئك الذين كانوا يلوحون من النوافذ، ومزقوا بالقنابل الفوسفورية أولئك الذين كانوا

ينجحون في الخروج من الفخ ويلجأون إلى البيوت المجاورة، وأجهزوا على الجرحى بما أن كل متبق على قيد الحياة، حسب المعيار الرئاسي، هو عدو لدود مدى الحياة، أما هو فكان في الأثناء منبطحاً على مقربة خطوتين من الجنرال رودريغو دي اغيلار متحملاً ذلك الوابل من الزجاج المكسور والأنقاض التي كانت تدخل من النافذة لدى كل انفجار، وكان يهمهم دون انقطاع كما لو كان يصلي، انتهى، يا شريكي، انتهى الإزعاج، من اليوم فصاعداً، سوف أحكم وحدي دون أولئك الغوغائيين، يجب البتّ في الغداة ومنذ الساعة الأولى فيما يجدي وفيما لا يجدي من أجل التغيير، وإذا أعوزتنا الكراسي فليتمّ مؤقتاً اقتناء ست مناضد جلدية خفيفة من النوع الرخيص، وبعض حصائر القنّب كي تعلّق هنا وهناك وتسد الثغرات، وبعض التفاهات الأخرى وسوف يصير الوضع جيداً هكذا، لا صحون ولا ملاعق ولا شيء آخر، سوف آتي بها من الثكنات لأنني لم أعد راغباً في أن يكون لي جنود ولا ضباط، سحقاً لهم، ليسوا صالحين إلا لشرب حليبي وفي الساعات العصيبة، لقد رأيت ذلك بنفسك، يبصقون على اليد التي تطعمهم، وأظل أنا وحيداً مع حرسي الأوفياء الشجعان، كلا، كلا، لن أشكل وزارة جديدة، ياللفوضى، لا أحد سوى وزير صحة جيد، الأمر الوحيد الضروري في الحياة، وربما أيضاً وزير آخر يكون له خط جميل من أجل ضرورات المراسلة، وهكذا يمكن تأجير مباني الوزارات والثكنات وتوفير الأموال من أجل التعهدات، ليست السواعد هي التي تنقصنا وإنما المال، سوف نعيّن خادمتين نشيطتين، واحدة من أجل المطبخ وتدبير البيت والثانية من أجل الغسيل والكي، وسوف أتولى أنا أمر الأبقار والطيور عندما أحصل

عليها. انتهى زمن مشاجرات القحاب في المراحيض والبرصى تحت أشجار الورد. انتهى زمن الدكاترة المختصين في كيت وكيت والذين يعرفون كل شيء والسياسيين الذين يرون كل شيء، إذ في نهاية الأمر نحن هنا في بيت الرئيس لا في فوضى زنوج، كما كان باتريسيو أراغونيس يقول بصدد ما ذكره له اليانكي، أشعر أنني أكثر من كافٍ لمواصلة الحكم حتى مرور النجم المذنّب مرّة أخرى بل حتى مروره عشر مرات أخرى، لأنني لن أموت أبداً على ما أتصوّر، سحقاً إذاً، فليمت الآخرون بدلاً مني، كان يقول، مسترسلاً دون أن يتوقف للتفكير، كما لو كان يستظهر درساً حفظه عن ظهر قلب، ولقد صار يعرف منذ الحرب أنه بالتفكير بصوت عالٍ يتمكن من تخويف خوفه من عبوات الديناميت التي كانت تزعزع البيت، وكان قد شرع في تهيئة خطط من أجل الغداة، ومن أجل ما بعد منتصف نهار القرن المقبل، عندما دوّت الضربة القاضية الأخيرة في الشارع، وزحف الجنرال رودريغو دي أغيلار مثل الثعبان حتى بلغ النافذة، وأمر، هاتوا سلال النفايات لحمل القتلى، ثم خرج من القاعة، ليلة سعيدة سيدي الجنرال، ليلة سعيدة يا شريكي، وشكراً جزيلاً، أجابه، وهو لايزال منبطحاً على وجهه فوق المرمر الجنائزي في قاعة مجلس الوزارة، وبعد ذلك ثنى ساعده الأيمن على هيئة وسادة ونام فوراً، أكثر عزلة من أي وقت آخر، مهدهداً بزوبعة الأوراق الذاوية في خريفه المحزن الذي كان قد بدأ تلك الليلة وإلى الأبد في الأجساد المحترقة وفي مستنقعات الأقمار الحمراء بعد المذبحة. ولم يلجأ إلى تنفيذ أي قرار من قراراته المزمعة إذ أن الجيش تفكك تلقائياً، والأفواج تشتَّتَتْ، والضباط القليلين الذين قاوموا حتى اللحظات الأخيرة في

ثكنات المدينة وعشر ثكنات أخرى في البلاد أبادهم الحرس الرئاسي بمساعدة متطوعين مدنيين، أما الوزراء المتبقون على قيد الحياة فقد هاجروا مع الفجر ولم يبق سوى الاثنين الأكثر وفاء، أحدهم كان طبيبه الشخصي والآخر أحسن خطاط في الأمة، ولم يكن عليه أن يتقبل المساعدات الأجنبية ذلك أن خزينة الدولة كانت تغصّ بخواتم الزواج وأكاليل الذهب التي جمعها أنصار غير متوقعين، ولم يكن عليه أيضاً أن يقتني حصائر القنّب ولا المناضد الجلدية ولا كل ما هو بأبخس الأثمان لترميم خسائر الهجوم على النوافذ، فقبل الانتهاء من إعادة الهدوء إلى البلاد كانت قاعة الاجتماعات مرمّمة وأكثر بذخاً من السابق وكان هناك أقفاص ملأى بالطيور في كل مكان ببغاوات الغواكامايا الوقحة، وببغاوات ملكية تنشد على الكورنيش نعم لإسبانيا ولا للبرتغال، ونساء رصينات وخدومات كن يحافظن على نظافة المنزل وترتيبه مثل سفينة حربية، وظلت لازِمات أناشيد المجد نفسها تدخل من النوافذ، مفرقعات الفرح نفسها، الأجراس الجذلى نفسها التي بدأت الاحتفال بموته، وها هي الآن تحتفل بخلوده، بينما تظاهرة دائمة تدور في باحة الأسلحة ترافقها هتافات التحام أبدي ولافتات كبيرة، حفظ الله العظيم الذي قام في اليوم الثالث من بين الأموات، مهرجان لا ينتهي، لم يكن عليه أن يمدّده بالمكائد السرية كما كان يلجأ إلى ذلك في أزمنة أخرى، إذ أن شؤون الدولة تنظمت تلقائياً، وتحرك الوطن، واستفرد هو بالحكومة ولم يعد يأتي أحد ليكدّر إرادته بالأقوال أو بالأفعال، كان متوحداً بمجده بحيث انعدم وجود أي عدو له، ومن هنا اعترافه بالجميل لشريكي مدى الحياة الجنرال رودريغو دي أغيلار، وإذا كان قد كفّ عن الانزعاج من استهلاك

الحليب في الثكنات فقد صفّ في الباحة بالمقابل الجنود العاديين الذين تميّزوا بالشجاعة وبحس الواجب، وبمجرد الإشارة نحوهم بإصبعه حسب ما توحي له نزواته يرفعهم إلى أعلى الرتب، غير متجاهل أنّه إنما كان بذلك يعيد بناء الجيش الذي يبصق على اليد التي تطعمه، أنت أرقيك إلى رتبة كابتن، وأنت ماجور، أنت كولونيل، ماذا أقول، جنرال، وكل الآخرين، برتبة ملازم أول، يا شريكي، تتحدث عن جيش، وكان جدّ متأثر بأولئك الذين بكوا أمام جثته إلى حد أنه أمر بإحضار الشيخ صاحب التحية الماسونية والرجل الذي قبّل خاتمه وكان في حداد لكي يقلدهما ميدالية السلام، وأمر بإحضار بائعة السمك لكي يهبها، كما قالت، ما هي بحاجة إليه أكثر، أي بيتاً كثير الغرف لتعيش فيه مع أبنائها الأربعة عشر، وأمر بإحضار التلميذة التي وضعت زهرة على جثته لكي يقدم لها: ما أرغب فيه أكثر من أي شيء آخر في العالم هو أن أتزوج من بحّار، على أنه رغم تلك الأعمال المشجعة لم يشعر بلحظة هدوء مادام لم يشاهد جماعات المهاجمين الذين نهبوا وخرّبوا مقر الرئاسة، موثقين ومهانين، ويسّرت له ذاكرة الحقد العنيدة التعرّف عليهم واحداً واحداً، فوزّعهم في مجموعات مختلفة حسب فداحة الخطأ، أنت هنا، مشيراً إلى الذي كان يقود الهجوم، وأنتم هناك، لأولئك الذين أوقعوا بائعة السمك شديدة الحزن على الأرض، وأنتم هنا، لأولئك الذين سحبوا الجثة من النعش وجروها على السلالم وفي أوحال البرك، والبقية إلى هذا الجانب، الأنذال، وفي الواقع لم تكن العقوبة هي التي تهمه بقدر ما كان يهمه أن يبرهن لنفسه بأن تدنيس الجسد والهجوم على البيت لم يكونا عملاً شعبياً تلقائياً وإنما كانا عملية قذرة قام بها

مرتزقة، فتعهّد أمام نفسه باستجواب المساجين شخصياً وبصوت عالٍ كي يسمع منهم طوعاً الحقيقة الوهمية التي كانت تقضّ مضجعه، ولكنْ اذهبْ إلى الجحيم، عندئذ أمر بتعليقهم على عارضة أفقية مقيدي الأرجل والأيدي ورؤوسهم إلى أسفل مدّة ساعات وساعات، ولكنْ اذهبْ إلى الجحيم، عندئذ أمر برمي أحدهم في أحد خنادق الباحة ليشاهد الآخرون تماسيح الكايمان وهي تمزّقه وتلتهمه، ولكنْ اذهبْ إلى الجحيم، عندئذ اختار واحداً من المجموعة الرئيسية وأمر بسلخه حيّاً على مرأى الجميع، والجميع رأوا الجلد الليّن الأصفر مثل غشاء جنين ولد حديثاً وأحسّوا بأنهم تبللوا بذلك السائل الدموي الغالي من لحم مسلوق يحتضر واثباً على بلاط الباحة، وشرعوا يعترفون بما كان يريد، لقد قدّم لهم أربعمائة بيزو ذهبية كي يجرّوا الجثة حتّى مرافق السوق، ولم يكونوا يريدون ذلك لا عن نزوة ولا عن طمع في المال إذ لم يكونوا يضمرون شيئاً ضدّه، خاصة إذا كان قد مات، ولكن خلال اجتماع سرّي حيث كان هناك جنرالان من القيادة العليا، أرهبوا بكل أنواع التهديدات، ولذلك السبب عزمنا على التنفيذ سيدي الجنرال، نقسم بشرفنا، عندئذ تنفس الصعداء وأمر، ناولوهم طعاماً، دعوهم يستريحوا هذه الليلة ثم ألقوا بهم غداً للتماسيح، لقد خُدع هؤلاء الفتيان المساكين، قال متنهداً، ثم عاد إلى القصر وروحه متحررة من آثار الشك، مهمهماً، الأمر واضح، سحقاً إذاً، الأمر واضح، هؤلا القوم يحبونني. وتصميماً منه على إخماد آخر وميض من القلق الذي أشعله باتريسيو أراغونيس في قلبه، فقد قرر أن تكون عملية التعذيب تلك هي النهائية في عهده، فقتلت التماسيح، وهدمت غرف التعذيب حيث أمكن سابقاً سحق كل العظام عظمة إثر

عظمة دون القتل، وأعلن العفو العام، وتم التخطيط للمستقبل بفضل فكرة سحرية أظهرت أن كل الاضطرابات المزعجة في هذا البلد كانت تأتي من واقع أنه كان للقوم متسع من الوقت للتفكير، فتم البحث إذاً عن طريقة لإشغالهم، أقيمت ألعاب مارس الزهرية والمسابقات السنوية لملكات الجمال، وشيّد ملعب لكرة القدم أكبر ملعب في الكاريبي، وألزم فريقنا بشعار النصر أو الموت، وصدر أمر بتأسيس مدرسة مجانية للكناسة في كل مقاطعة وقد واصل طلابها المتحمسون بالتشجيعات الرئاسية كنس الشوارع بعد أن انتهوا من كنس البيوت، ثم الطرقات فالدروب القروية، بحيث نقلت أكداس النفايات ثم أعيدت من مقاطعة إلى أخرى دون التوصل إلى معرفة كيفية التخلص منها، ولقد حدث ذلك في مواكب رسمية مع أعلام الوطن ولافتات عريضة: حفظ الله الطاهر الذي يسهر على نظافة الأمة. بينما كان يجرجر قدمي الحيوان المتأمل البطيئتين باحثاً عن صيغ جديدة لتسلية السكان المدنيين، شاقاً طريقه بين البرصى والعميان والمشلولين الذين كانوا يتوسلون إليه أن يقدم لهم ملح العافية، معمّداً باسمه في صحن الدار أطفال محمييه ما بين المتزلّفين بلا حياء الذين كانوا يعلنونه فريداً فذاً إذ لم يعد يلجأ إلى مساعدة أحد مهما كان يشبهه، كما توجّب عليه أن يكون صنو نفسه في قصر السوق العمومي، حيث كانت تصل يومياً أقفاص وأقفاص لطيور عجيبة منذ عرف عن أمّه بندثيون الفارادو أنها مربية طيور، وهكذا، وإذا كان بعضها يرسل إليه تملقاً وبعضها الآخر سخرية فإنه سرعان ما انعدم وجود حيز شاغر لتعليق أقفاص إضافية، ورغب أيضاً في الانصراف إلى معالجة عدّة قضايا عموميّة في الوقت نفسه، بحيث لم

يعد بالإمكان التمييز بين الخادم والمخدوم في هذه الحشود التي تملأ الباحات والمكاتب، فهدم عديداً من الجدران لاستقبال الناس وفتح عديداً من النوافذ لرؤية البحر، حتى صار مجرّد المرور من قاعة إلى أخرى بمثابة مخاطرة على جسر مركب شراعي جانح في فصل الخريف عندما تتعارض الرياح. كانت صابيات[٢٠] آذار هي الرياح المثابرة على الدخول من شباك المنزل، أما الآن فقد صاروا يقولون له إنها رياح السلام سيدي الجنرال، كان طنين الأذنين نفسه هو الذي يزعجه منذ سنوات، غير أن طبيبه بالذات قال له إن ذلك ليس سوى طنين السلام سيدي الجنرال، ذلك أنه منذ اليوم الذي وجد فيه ميتاً للمرّة الأولى، تحولّت كل أشياء الأرض وكل أشياء السماء إلى أشياء السلام سيدي الجنرال، وكان هو يصدق ذلك، ويصدّقه بشدة إلى حدّ أنه في شهر ديسمبر، تسلق الشاطئ الصخري مجدّداً حتى بلغ منزل قمة الصخور، رغبة منه في الترويح عن النفس والاستماع إلى مآسي زمرة الدكتاتوريين القدامى التواقين إلى الوطن، فكانوا يتوقفون عن لعبة الدومينو ليحكوا له، لنقل مثلاً إنني الستّة المزدوجة ولنفترض أن المحافظين العقائديين يمثلون الثلاثة المزدوجة، وهكذا لم أتوجس من تحالفهم السرّي، تحالف الماسونيين والاكليروس من كان ليتوقع ذلك، تبّاً لهم، دون الانتباه إلى الحساء الذي أخذ يتجمّد في الصحن بينما أحدهم يفسّر أن آنية السكر هذه مثلاً كانت البيت الرئاسي، هنا، وهناك المدفع الوحيد الذي كان لايزال في حوزة العدو، وهو ذو مدى أربعمائة متر مع الريح المواتية، بحيث كان يكفي انحراف بسيط باثنين وثمانين سنتمتراً كي أكون غير موجود هنا معكم، وحتى أولئك الأكثر تخمة بسمك المنفى كانوا يبددون آمالهم في رصد سفن

أوطانهم في الأفق، وكانوا يتعرفون عليها من لون دخانها، ومن صدأ أبواقها، وينزلون إلى الشاطئ تحت رذاذ بداية الصباح باحثين عن الجرائد التي استخدمها البحارة للفّ ما كانوا يخرجونه من طعام السفينة، فيجمعونها من سلال النفايات ويقرأونها صفحة قبل أخرى حتى السطر الأخير لكي يتنبّأوا بمستقبل البلاد عبر الأنباء، فلان مات وعلان تزوج فلانة، بعض الفلانات عزموا فلاناً ولم يعزموا علاناً إلى احتفال بذكرى مولد، مستكشفين قدرهم بحسب اتجاه سحابة كبيرة من سحب العناية الإلهية ستنفجر فوق بلادهم بزوبعة قيامة حقيقية تجعل الأنهار تفيض وهذه بدورها تحمل حواجز السدود والأخيرة تكتسح القرى وتنشر البؤس والطاعون في المدن، وسوف يقبلون إلى هنا متضرعين إليّ كي أنقذهم من الكارثة والفوضى، سوف ترون، ولكن في انتظار اللحظة الحاسمة ينبغي الانفراد بالمنفيّ الأصغر سناً والطلب إليه هلا تفضّلتم بأن تدخلوا لي هذا الخيط في الإبرة عليّ أن أرتق هذا البنطال الذي لا أريد أن ألقي به إلى النفايات، تعرفون جيداً أن ذلك يمس بالعواطف، ويتم غسل الملابس خلسة وتشحذ شفرات الحلاقة التي استخدمها القادمون الجدد، وكل واحد يعتزل في غرفته كي يأكل إذ لا ينبغي أن يكتشف الآخرون أنه يعيش على الفضلات ولا ينبغي عليهم أن يدركوا كم هو مخجل هذا البنطال الملطخ بسلس بول الشيخوخة، وذات خميس وككل أيام الخميس الأخرى كنا نقلد لواحد منّا شعاراته على آخر قميص له، ونلفّ جسده في علمه، ونعزف له نشيده الوطني، ثم نرسله ليحكم النسيان، في أعماق الصخور دون ثقل آخر سوى قلبه المنقرض، دون فراغ آخر في هذا العالم سوى فراغ مقعد بحري على مصطبة دون آفاق حيث كنا نجلس لنقترع

على تركة المتوفّي، إذا كان قد خلف تركة، سيدي الجنرال، تصور، كم هي بائسة هذه الحياة المدنية بعد المجد العظيم. وفي شهر ديسمبر آخر بعيد، ويوم تدشين البيت، شاهد من هذه المصطبة سحابة من الجزر الوهمية، جزر الأنتيل، وقد نبهه إليها أحدهم بإصبعه الممدود نحو واجهة البحر، رأى بركان المارتينيك المضمّخ بالطيب، هنالك سيدي الجنرال، رأى مستشفى المسلولين، والعملاق الأسود في قميصه الدانتيل يبيع باقات «الغاردينيا» لزوجات الحكام عند فناء البازيليك، رأى سوق باراماريبو الجهنمي، هنالك سيدي الجنرال، السرطانات التي تخرج من البحر عبر الأجمات ثم تتسلق طاولات بائعي المثلجات، وهنالك الألماس المرصّع في أسنان الجدات السود اللواتي يبعن رؤوس هنود حمر وعروق زنجبيل وهن جالسات على مؤخراتهن الصامدة برباطة جأش تحت وابل المطر، رأى الأبقار المرصعة بالذهب نائمة على شاطئ تاناغوارينا سيدي الجنرال، وأعمى غويرا صاحب الرؤى الذي يقبض ريالين مقابل طرد دجاجة الموت الحبشية بِكَمان من وتر واحد، رأى الثالوث المحرق في شهر أغسطس، والسيارات السائرة إلى الوراء، والهندوسيين الخضر وهم يتغوّطون وسط الشارع أمام دكاكينهم التي تعرض أقمصة دودة القزّ ورسوم موظفي الامبراطورية الصينية القديمة محفورة على ناب الفيل بأكمله، رأى كابوس هايتي وكلاب الدرواس الزرقاء، عربة الثيران التي تجمع الموتى من الشوارع منذ الصباح الباكر، رأى زهور الخزامى الهولندية تنمو في براميل بنزين كوراساو، بيوت طواحين الريح مع سقوفها الخاصة بالثلج، عابرة المحيط الغامضة وهي تخترق قلب المدينة عبر مطابخ الفنادق، رأى سور قرطاجنة دي أنديا الحجري، وخليجها المغلق بسلسلة، النور الثابت

في الشرفات، الهياكل العظمية لجياد عربات الأجرة وهي تواصل تثاؤبها خلف معالف حكام المستعمرات ورائحة الغائط المنبعثة منها، سيدي الجنرال، يا لها من أعاجيب، هه اعترف بأن العالم واسع، فعلاً هو كذلك، وليس واسعاً فقط وإنما ماكر أيضاً إذ أن صعوده في شهر ديسمبر إلى منزل الشاطئ الصخري لم يكن من أجل الثرثرة مع هؤلاء الهاربين الذين يكرههم مثل صورته الشخصية في مرآة المحن، وإنما ليكون حاضراً في لحظة المعجزة عندما تفيض أنوار ديسمبر فيتمكن من رؤية عالم الآنتيل بأكمله مجدّداً من البارباد حتى فيراكروز، وينسى عندئذ من كان يحمل بين يديه ورقة الثلاثة المزدوجة، وينحني على الشرفة ليتأمل سحابة الجزر غريبة الأطوار وهي تلوح مثل تماسيح نائمة في حوض البحر، وكان أثناء تأمله للجزر يتذكر ويعيش مجدّداً يوم تلك الجمعة التاريخية من شهر أكتوبر حين خرج من غرفته فجراً وفوجئ بالجميع في البيت الرئاسي يرتدون قبّعات حمراء، والمحظيات الجديدات يكنسن القاعات ويغيّرن ماء الأقفاص مرتديات قبّعات حمراء، وكان حالبو الأبقار في الإسطبلات والحرس في أكواخهم والمشلولون على درجات السلم والبرصى تحت أشجار الورد كانوا معتمرين أيضاً قبعات كرنفال الأحد الحمراء، فأخذ يبحث عندئذ عما حدث في العالم أثناء نومه حتى صار قوم منزله وسكان المدينة يتجولون بقبعات حمراء حاملين معهم في كل مكان سبحة من الجلاجل، وانتهى به البحث بأن وجد أحدهم ليقول له: الحقيقة سيدي الجنرال، وصل غرباء يرطنون بتعابير جميلة إذ أنهم لا يقولون البحر وإنما اليمّ ويسمّون الغواكامايات ببغاوات، وزورق الخشب جذعيّة، وخطاف صيد الأسماك رمحاً، وعندما

رأونا نقبل لاستقبالهم سابحين حول باخرتهم التجأوا إلى أعلى الصواري صارخين بعضهم ببعض، انظروا كيف أنهم حسنو التكوين ولهم أجسام سليمة ووجوه جميلة، وشعور في طول هلْب[٢١] الخيول تقريباً. وعندما رأوا أننا كنا مطليين كي لا تتقشر جلودنا من لفح الشمس أخذوا يتململون مثل الدّرة[٢٢] المبتلّة زاعقين انظروا كيف أنهم يتخضّبون بألوان غامقة، لونهم مثل لون سكان جزر الكناري، لا هم سود ولا هم بيض، ولم نفهم، يا للفوضى لماذا كانوا يسخرون منا بتلك الطريقة سيدي الجنرال إذ كنا مثلما ولدتنا أمهاتنا، أما هم فقد كانوا مكسوّين بالمقابل مثل أعرج البستوني في ورق اللعب رغم الحرارة، وهي كلمة ينطقون بها على طريقة المهربين الهولنديين، أما شعرهم فهو مصفّف مثل النساء رغم كونهم رجالاً، إذ أننا لم نر أثراً لامرأة واحدة، وكانوا يصرخون بأننا لا نفهم كلام المسيحيين في حين كانوا هم الذين لا يفهمون ما كنا نصرخ به، أقبلوا نحونا في زوارقهم التي يسمّونها جذعيّات، كما ذكرنا ذلك، وكانوا يستغربون وجود حسكة لسمكة شابل على رؤوس خطافاتنا ويسمونها سنّ سمكة، وقايضونا كل ما كنا نملك مقابل هذه القبعات الحمراء وسبحات اللؤلؤ الزجاجية التي علقناها حول رقابنا إرضاء لهم، وكذلك مقابل جلاجل الصفيح هذه التي لا تساوي مرابطيّاً[٢٣] واحداً، وصحفات ونظارات وخردوات فلمندية، وكل ما هو رخيص الثمن سيدي الجنرال، وعندما وجدناهم خدومين ومهذّبين أوصلناهم برفق حتى الشاطئ إلا أن الفوضى بدأت عندئذ، فبين بادلني هذا الشيء بذاك، وأبادلك هذا مقابل هذا، حدثت مضاربات شيطانية وسرعان ما تخلص الجميع من ببغاواتهم، ودخانهم، ورؤوس الكاكاو، وبيض الأغوانة، وكل ما خلقته

السماء، إذ أنهم كانوا يقبلون كل شيء ويعطون كل ما يملكونه بسخاء، بل أبدوا رغبة في مبادلة أحدنا بصدريّة مخمل كي يعرضونا في بلدان أوروبا، تخيل ذلك سيدي الجنرال، يا لها من بلبلة. لكنه كان غارقاً في التأمل بحيث عجز عن فهم ما إذا كانت قصّة المجانين هذه من اختراع حكومته، فعاد إلى غرفته وفتح النافذة على البحر آملاً في اكتشاف بارقات جديدة تمكّنه من توضيح هذا الاضطراب، عندئذٍ رأى عند حافة الرصيف بارجة كل يوم، تلك التي هجرتها قوات المارينز، وخلف البارجة، اكتشف مراكب الكارافيل الثلاثة راسية في البحر القاتم.

* * *

الهوامش:

١- الخُدج : جمع خديج وهو المولود تلقيه أمه قبل أوانه بغير تمام الأيام وإن كان تامّ الخلق .
٢- روبن داريو : شاعر نيكارغوي (١٨٦٧-١٩١٦) كان شعره منطلقاً لحركة «الحداثة» في أمريكا اللاتينية .
٣- المارينز : اسم يطلق على الجنود الرماة في البحرية الأمريكية والبريطانية .
٤- السنة الكبيسة (٣٦٦) يوماً ، وتأتي كل أربع سنوات ، ويكون شهر شباط (فبراير) فيها مكوناً من ٢٩ يوماً .
٥- عظاءة أمريكية عاشبة .
٦- الأتراك : اسم يطلق في كولومبيا ، على السوريين واللبنانيين وكل من هم من أصل عربي إجمالاً .
٧- القجاج : سمك بحري لذيذ الطعم قريب من المرجان .
٨- عاش الفحل .
٩- البلسمينة أو المجزاعة نبات تستعمل أزهاره الجميلة والمختلفة الألوان ، للزينة .

١٠- من العظاءات الخرافية .
١١- حيوان استوائي أمريكي يشبه الخنزير .
١٢- نوع من نباتات المناطق الحارة ذات الدرنات النشويّة .
١٣- طبخة يسلق فيها الموز مع خضار أخرى محلية .
١٤- مستحضر زيتي لتلميع الشعر .
١٥- نوع من الأبواق .
١٦- نوع من الصفصاف .
١٧- أمّاه .
١٨- لقب لسكان الولايات المتحدة الأميركية الأنكلو-سكسونيين .
١٩- الملك الذي عليه شارة القلب في ورق اللعب .
٢٠- رياح تهب من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي .
٢١- الهُلْب : شعر ذيل الحصان .
٢٢- الدرّة : أنثى الببغاء .
٢٣- Maravedi اسم نقود إسبانية قديمة مشتق من العربية ، وكان المرابطي الواحد يساوي قرشاً ونصف القرش .



عندما اكتشفناه في المرة الثانية، وقد تآكلته العقبان في المكتب نفسه، بالبزة نفسها وعلى الوضع نفسه، لم يكن أحد منّا مسنّاً بما يكفي كي يتذكر ما حصل في المرة الأولى، إلا أننا كنا ندرك انعدام أية حجة بيّنة على موته بما أن كل حقيقة تخفي دائماً حقيقة أخرى. وحتى الأقل حذراً لم يكونوا ليثقوا بالمظاهر، ولقد تأكد مراراً أن الصّرع كان يفتك به فينهار على عرشه في غمرة الاجتماع، متلويّاً من جرّاء التشنجات ومتقيئاً رغوة من المرارة، لقد فقد صوته من طول ما خطب، وكان هناك مقماقون[1] مختفون خلف الستائر ليوهموا الجمع بأنه هو الذي يتكلّم، وكانت حراشف سمكة شابل تنبت على جسده لتقتصّ منه جزاء فساده، وفي برودة (ديسمبر) كان فتقه يعزف له طنين الموسيقى ولم يعد قادراً على التنقل إلا بواسطة مقعد مقوّم للأعضاء يجرجر فيه خصيته المفتوقة، ولقد قامت عربة عسكرية في منتصف الليل ومن باب الخدمة بتسليم نعش مع أغشية ذهبيّة وزخارف أرجوانية، ورأى أحدهم ليتسيا نازارينو تنفجر باكية في حديقة المطر، ورغم ذلك، وعندما تتأكد شائعة موته أكثر كان يلوح أكثر حياة وأكثر سلطة من السابق في اللحظة الأقل افتراضاً كي يفرض علينا مرافئ أخرى غير مواتية تتخلل بحر مصيرنا. كان من السهل اللجوء إلى الاقتناع بالعلامات الظاهرة للخاتم الرئاسي أو بالحجم الفائق لقدميه، قدمي المشّاء الذي لا يكل أو بالوضوح الشاذ

لتلك الخصية الضخمة التي لم تجرؤ العقبان على نقرها، ولكن لا بد من وجود شخص ما لا يزال يحتفظ دائماً بذكرى حول علامات أخرى مشابهة لدى موتى آخرين أقل أهمية في الماضي. وحتى التفحص المتناهي الدقّة للبيت لم يقدم هو الآخر أي عنصر ذي قيمة لإثبات هويته. وفي حجرة بندثيون ألفارادو، التي نسينا تقريباً مهزلة تقديسها بمرسوم، وجدنا بعض الأقفاص مفتوحة وفيها هياكل صغيرة لطيور حجّرتها السنون، شاهدنا مقعداً من أغصان السوحر وقد قضمته الأبقار، شاهدنا علباً للرسم المائي وآنيات ريش الرسم التي كانت تستعملها مربيات الطيور في المرتفعات لكي يبعن في الأسواق الشعبية طيوراً ذاوية ملونة بألوان الصّفاريات، شاهدنا جرة وفيها غرسة ترنجان واصلت نموّها في النسيان فتسلقت أغصانها الجدران، لتخرج عبر العيون في اللوحات ومن النافذة لكي تتشابك في النهاية مع الأوراق البريّة في الباحات الأخرى، غير أننا لم نعثر على أي أثر يدلّ على حضوره الفعلي في الغرفة. وفي غرفة عرس ليتسيا نازارينو التي لنا عنها صورة أكثر وضوحاً لأنها حكمت خلال فترة قريبة العهد ولأن تصرفاتها العلنية أصبحت أحدوثة، شاهدنا سريراً صالحاً لأفراح الجسد مع قبّة من قماش التول تحولت إلى خم للبيض، شاهدنا في الخزائن بقايا ياقات من فرو الثعالب المفضّضة وقد قرضها العثّ، هياكل التنانير المسلكة القاسية القماش، وغبار التنانير الداخلية المقرس، وصدارات من تخريمات بروكسيل، أحذية الرجال النصفية التي كانت تحتذيها والخفاف الساتانية ذات الكعب العالي والسيور وكانت تنتعلها عند الاستقبالات، والقبعات ذات البنفسجات اللبديّة وشرائط التفتا إبّان رونقها الجنائزي كسيدة

البلاد الأولى وثوب الترهب الكتاني الخشن مثل جلد خروف أغبر والذي أحضرت فيه من جامايكا محبوسة في صندوق من بلّور بكارا الفرنسي الشفاف لكي تجلس على كرسيها المنجد رئيسة مترهبّة، إلا أننا لم نجد أي أثر يبرهن لنا بأن عملية الحبس على طريقة القراصنة تلك، إنما كانت بوحي من الحب. وفي الحجرة الرئاسية، وهو المكان الذي قضى فيه الجزء الأكبر من سنواته الأخيرة، لم نجد سوى سرير ميدان غير مستعمل، ودلو صحيّ كالذي يجلبه بائعو الأثريات من البيوت التي هجرها المارينز، وخزنة حديدية تحتوي على أوسمته الاثنين والتسعين مع بزّة كتانية بلا شارات مثل التي ترتديها الجثة، مثقوبة بست رصاصات من العيار الكبير وقد أحدثت أضرار حريق باختراقها الظهر وبروزها من الصدر، ما دعانا إلى التفكير بأن تلك الأسطورة القائلة بأن الرصاص الذي يطلق عليه من الخلف غدراً، يخترقه من دون أن يجرحه، إنما كانت أسطورة صادقة، وإن الطلقة التي تطلق عليه من الأمام ترتد، بعد ملامسة جسده، على المعتدي، وإنه لم يكن قابلاً للانجراح إلا برصاص شفقة الشخص الذي يحبّه إلى درجات الموت بدلاً منه. كانت البزّتان جدّ ضيقتين بالنسبة للجثة، غير أننا لم نستبعد إمكانية أن تكونا له، إذ تم التأكد أيضاً في مرحلة معينة أنه واصل النمو حتى مائة عام وإنه بعد مائة وخمسين عاماً نمت أسنانه للمرّة الثالثة، وفي الواقع مهما كان الجسد المشوه بالعقبان جسد رجل ذي قامة معتدلة، فإن أسنانه كانت سليمة، صغيرة ومثلمة مثل أسنان الرضاعة، وكان جلده، ولونه بلون المرارة، مبقعاً ببقع الشيخوخة، وخالياً من الندوب مع جيوب متورّمة في كل مكان كما لو أنه كان سميناً فيما مضى، ولم يبق له تقريباً سوى

المحجرين الخاليين من عينيه اللتين كانتا قديماً صامتتين، والشيء الوحيد الذي كان خارج مقاييس التناسب، إلى جانب الخصية المتورّمة، هما قدماه الضخمتان المربّعتان المفلطحتان، مع مخالب صقر صخرية معقوفة. وإذا كانت الملابس ذات قياسات بالأحرى صغيرة، فإن وصف مؤرّخيه لها كان وصفاً من الحجم الكبير، إذ أن النصوص الرسمية في المدارس تقدمه بوصفه بطريركاً عملاقاً لا يخرج البتّة من بيته لأنه لا يستطيع اجتياز الأبواب، يحبّ الأطفال والسنونو ويعرف لغة بعض الحيوانات وله ملكة في توقع خطط الطبيعة كما أنه يسبر الأفكار بالنظر في عينيك ويملك سرّ ملح يداوي جراح البرصى ويعيد الحركة لأعضاء المشلولين. ورغم خلوّ النصوص من أي تلميح لأصله، فقد جرى الاعتقاد بأنه رجل آت من عزلة الصحارى حسب ما كانت توحي به شراهته للسلطة وطبيعة حكمه وقسوة قلبه المتناهية التي دفعته إلى بيع بحرنا لقوة أجنبية، حاكماً علينا بالعيش أمام سهل بلا أفق يغطيه غبار قمري خشن ويصيبنا كل غسق فيه بجراح تسكن الروح. ويقدر عدد الأطفال الذين أنجبهم خلال حياته الطويلة بأكثر من خمسة آلاف طفل، كلهم ولدوا قبل الأوان، من عشيقات دون حبّ لا يحصى لهن عدد وكن يتوالين على حريمه كلما جمحت به الشهوة، ولم يحمل أي من أولئك الأطفال اسمه أو لقبه، إذا استثنينا ذلك الطفل الذي أنجبته ليتسيا نازارينو والذي سمّي منذ ولادته جنرالاً ذا إقليم وقيادة، إذ أنه كان يعتبر أن لا أحد هو ابن أحد إن لم يكن ابن أمّه فقط. ويبدو هذا اليقين صحيحاً حتى بالنسبة إليه إذ أنه من المعروف أنه كان رجلاً بلا أب مثل الطغاة الأكثر شهرة في التاريخ، وقريبه الوحيد الذي عرف، وربما الوحيد حقاً، هو أمه العزيزة،

بندثيون الفارادو التي تنسب لها كتب المدارس معجزة كونها حبلت به ولم يمسسها بشر واستلمت في المنام المفاتيح الخفيّة لرسالته الإنقاذية، أمه التي أعلنها بمرسوم أم الوطن بفضل هذا البرهان البسيط على أن ليس هناك سوى أم واحدة، أمّي، امرأة غريبة الأطوار ذات أصل مريب أثارت روحها البسيطة استنكار المتعصّبين للشهامة الرئاسية في فجر عهده إذ لم يكونوا يجيزون أن تعلّق أم رئيس الدولة كيساً من الكافور حول عنقها لاتقاء شر الأوبئة، وأن تأكل الكافيار محاولةً تمرير حبيباته في أسنان شوكتها أو أن تمشي مثل بطّة في خفّها المبرنق، كلا، لم يقدروا على التسليم بأن تؤوي خلايا نحل في شرفة قاعة الحفلات الموسيقية، ولا أن تربّي ديكة رومية وطيوراً مطليّة بالدهان المائي في مكاتب الخدمات العامة أو أن تنشر أغطية الأسرّة على الشرفة الرسمية، لم يقدروا على تحمّل سماعها وهي تقول له خلال استقبال دبلوماسي سئمت الصلاة إلى الله كي تتم الإطاحة بابني إذ أن العيش في المنزل الرئاسي يا سيدي الطيب يشبه إنْ قليلاً أو كثيراً البقاء في أيما ساعة والنّور مضاء، قالت ذلك بلا تصنّع، تماماً مثلما ذات يوم من أيام الأعياد الوطنية اجتازت حرس الشرف بطريقة طبيعية حاملة سلة من القوارير الفارغة والتحقت بسيارة الليموزين الرئاسية التي أخذت تشق موكب الأفراح عبر هرج ومرج هتافات حماسية وأناشيد وطنية وزوابع من الزهور، ثم وضعت سلتها في السيارة من البوابة صارخة بابنها بما أنك ستمرّ من هناك انتهز الفرصة لتعيد هذه القناني إلى الدكان الذي عند الزاوية، يا للأم الساذجة. وكان لانعدام الحس التاريخي هذا أن يبلغ ذروته ذات مساء، خلال مأدبة احتفال أعددناها لمناسبة نزول المارينز بقيادة الأميرال

هغنغسون، عندما رأت بندثيون ألفارادو ابنها في بزّته العظيمة مع الميداليات الذهبية وقفازي الساتان التي توجب عليه ارتداؤها مدى الحياة، وعندما لم تستطع كبح جماح كبريائها الأمومي صارخة بأعلى صوتها أمام السلك الدبلوماسي بكامله: لو علمت بأن ابني سوف يصير رئيس جمهورية لكنت أرسلته إلى المدرسة، آه يا سيدي، وكانت الفضيحة بحيث نفيت إلى مقر في الضواحي، وهو قصر ذو إحدى عشرة غرفة ربحه في لعبة النّرد ذات ليلة معطاء عندما تقاسم قادة الحرب الفيدرالية حول طاولة اللعب مقر إقامة المحافظين الهاربين المدهش، وباستثناء ازدراء بندثيون الفارادو للزخارف الامبراطورية التي تجعلني أفكر بأنني زوجة قداسة البابا فقد فضلت أن تتقاسم حجرات الخدمة مع خادماتها الست الحافيات واستقرت مع آلة خياطتها وأقفاص طيورها المبرقشة في السقيفة المنسية حيث كانت الحرارة لا تصل وكان من السهل اصطياد البعوض في الساعة السادسة، كانت تجلس لتخيط في الضوء الخافت في الفناء الكبير مستنشقة هواء أشجار التمر الهندي الصحّي بينما الدجاجات تتيه في الصالونات ورجال الحراسة يرصدون الخادمات في الحجرات المقفرة، وكانت تجلس لتدهن الصّفاريّات بالطلاء المائي وتشتكي وخادمات النحس من سلوك ابني المسكين الذي جرجره البحارة إلى البيت الرئاسي، بعيداً يا سيدي الطيّب عن أمّه، من دون زوجة متفانية كي تساعده في منتصف الليل إذا ما أقضّ مضجعه داء، وهو ينهك نفسه بوظيفة رئيس الجمهورية هذه، مقابل راتب بائس من ثلاثمائة بيزو شهرياً، يا لحبيبي الصغير. وكانت تدرك جيداً عمّا تتحدّث، إذ أنه اعتاد زيارتها يومياً ساعة تتخبط المدينة في حمى القيلولة، وكان يأتي

لها بالثمار المعقدة بالسكر، المولعة بها وينتهز الفرصة ليطلق مكبوتاته قربها متشكياً من وضعه المقرف المسخّر للبحارة، ويروي لها كيف أنه يضطر إلى إخفاء البرتقال المعقّد، والتين مع شراب السكر في الفوطة لأن سلطات الاحتلال لها محاسبون يسجلون في كتبهم كل شيء حتى فضالة الطعام، ويتذمر، ذات يوم ليس ببعيد جاء قائد البارجة إلى مقر الرئاسة مع قوم، لو أنك رأيتهم لقلت هم فلكيو اليابسة ثم إنهم قاسوا كل شيء ولم يتفضلوا حتى بتحيتي غير أنهم مرروا متراً قماشياً فوق رأسي وأخذوا يقومون بحساباتهم بالإنكليزية، وكان المترجم يزعق بي ابتعد من هنا، وكان يبتعد، اغرب عن شمسي، وكان يبتعد، اختبئ في زاوية حتّى لا تضايقنا، يا للفوضى، لم يعد يعرف أين يقف من دون أن يزعجهم إذ أن بعض المسّاحين بالمتر كانوا يقيسون حتى نور الشرفات، ولكن الأدهى، أمّاه، هو أنهم طردوا محظيتيه الأخيرتين الكسيحتين لأن الأميرال رأى أنهما غير جديرتين برئيس، وظلّ محروماً من النساء إلى حدّ أنه في العديد من الأماسي كان يتظاهر بمغادرة قصر الضاحية إلا أن أمّه كانت تسمعه وهو يغازل الخادمات في ظليل الحجرات، وكانت تحزن لذلك إلى درجة أنها كانت تعمد إلى إزعاج الطيور في أقفاصها كي لا يفاجئ أحد كبت ابنها، وترغمها على الغناء حتى لا يسمع الجيران صخب الهجوم، خزي الاغتصاب والتهديدات المكبوحة ابق عاقلاً سيدي الجنرال وإلا سأخبر أمك، كانت تقطع قيلولة طيور السرب مرغمة إياها على الشدو بأعلى صوتها حتى لا يسمع لهاثه الذي لا يرحم، لهاث المتزوج في حالة نزو، وحظّه العاثر، حظّ العاشق وهو بكل ثيابه، وتباكيه، تباكي الجرو الصغير، ودموعه المتوحّدة الدكناء التي كانت تبدو

كأنها تتعفّن بؤساً تحت قوقأة الدجاجات الجفلة في الحجرات من هذا الغرام اللجوج والطقس مثل الزجاج الذائب في شهر أغسطس اللعين، والساعة الثالثة بعد الظهر، يا لصغيري المسكين. وكان على هذا القحط أن يدوم حتى هجرة قوات الاحتلال من البلاد فزعاً من وباء الطاعون في حين كانت سنوات عديدة لا تزال تفصلهم عن ساعة الإبحار، ففكّكوا مساكن الضباط ورقّموها القطعة بعد القطعة ثم أغلقوا عليها في الصناديق، واقتلعوا آخر عشبة في السهول الزرقاء وحملوها مطويّة مثل السجادات، وغطوا خزانات المياه المعقمة المطاطية المرسلة إليهم من بلادهم كي لا تتمكن يرقانات روافدنا من أكلهم داخلياً، هدموا مستشفياتهم البيضاء، ونسفوا الثكنات كي لا يعلم أحد كيف بُنيت، وعلى الرصيف هجروا بارجة الإنزال القديمة التي ظل يطوف على جسرها، في ليالي حزيران، شبح أميرال تائه في زوبعة، إلا أنهم قبل أن يحملوا فردوس الحروب المتنقلة، هذا، في قطاراتهم الطائرة، قلدوه ميدالية حسن الجوار، وقدموا له كل التشريفات التي تليق برئيس دولة وقالوا له بصوت عالٍ حتى يسمع الجميع لقد تركناك هنا مع فوضى زنوجك كي نرى كيف تتدبر أمرك من دوننا، ولكنهم رحلوا، أماه، يا للفوضى، لقد هجرونا، وللمرّة الأولى منذ تلك المرحلة الطويلة التي قضاها ثوراً مهاناً من الاحتلال صعد درجات الحكومة وقادها بصوت عالٍ وبصفته الشخصية عبر الصخب الذي كان يتوسل إليه أن يعيد صراع الديكة، حسناً، أعيده، وأن يسمح من جديد بطيارات الورق وتسليات أخرى للفقراء منعها، حسناً أسمح بها، وكان واثقاً من استبداده إلى حدّ أنه عكس ألوان العلم وبدّل القبعة الفريجية[٢] التي على الشعار بتنين الغزاة

المندحرين، ذلك أننا أخيراً أصبحنا السادة، أمّاه، عاش الطاعون. وكان على بندثيون الفارادو أن تتذكر طيلة حياتها هذه الانتفاضات في السلطة وأخرى غيرها أكثر قدماً وأشد مرارة، غير أنها لم تذكرها قط بإرهاق بالغ مثلما فعلت بعد عملية الخداع المأتمية، عندما كان يتخبط في بركة الرخاء بينما هي تواصل نحيبها لعدم وجود شخص ينصت إليها، لا جدوى من أن تكون أم رئيس كلا، وهل ذلك إلا لامتلاك آلة الخياطة الكئيبة هذه ولا شيء سواها، أما ابني المسكين هذا الذي تشاهده في مركبته وسط شارات السلطة فليس له ولو حفرة كي يموت فيها بعد أن خدم الوطن كل هذه الفترة الطويلة، آه، يا سيدي الطيب، أين هي العدالة، زد على ذلك أنها لم تعد تشتكي عن عادة أو خديعة وإنما لأنه انقطع عن إخبارها بخيباته وكفّ عن الاندفاع نحوها ليقاسمها الأسرار الكبيرة للدولة، ولقد تغير منذ مرحلة قوات الإنزال إلى حد أن بندثيون ألفارادو صارت تجده أكبر سنّاً منها، لقد أحرق الوقت وسبقها في حصاد الزمن، وكانت تشعر بأنه صار يرتبك في الكلام، وتختلط عليه الحسابات اليومية، وأحياناً كان لعابه يسيل، ولقد اجتاحتها رأفة البنوّة لا الأمومة عندما رأته يقبل إلى مقرها في الضاحية محملاً برزمات كان يحاول فتحها كلها بعنف وفي وقت واحد، فكان يقتلع الأسلاك بأسنانه، ويكسر أظافره على شرائط اللف الحديدية من دون أن يترك لها وقتاً لتبحث عن المقص في سلة خياطتها، ويخرج كل شيء بكلتا يديه من أكوام النجارة متورّطاً في لهفة اندفاعه انظري إلى هذا قليلاً هه، ماما، كان يقول، عروس بحر حيّة في حوضها، ملاك من قياس طبيعي يعبّأ فيطير عبر الغرف معلناً عن الساعة بواسطة جرس، صَدَفة ضخمة يسمع

فيها النشيد الوطني عوض سماع البحر أو الريح، يا لها من أشياء رائعة، ماما، هل رأيت ما أجمل ألا نعيش في البؤس، يقول، إلا أنها لم تكن تبدي فرحها، بالعكس فقد شرعت في عضعضة الريش وتلوين الصفّاريات إذ لا ينبغي أن ينتبه إلى أن قلبها كان يتمزّق حسرة وهي تتذكر ماضياً تعرفه أحسن مما يعرفه أيّ كان، تتذكر، وماذا كلّفه الجلوس على ذلك الكرسي حيث كان يجلس، ليس في هذه الأيام، سيدي الطبيب، ليس في هذه الأيام السهلة حيث السلطة شيء ملموس وقضية شخصيّة، كرة من زجاج في كفّ اليد، كما يقول، ولكن عندما كانت السلطة سمكة شابل تسبح هاربة بلا ربّ أو قانون في قصر الفوضى، ملاحقة بسرب ضار ونهم من آخر قادة الحرب الفيدرالية الذين ساعدوني على الإطاحة بالجنرال الشاعر لوتارو مونيوز، وهو مستبد مستنير رحمه الله مع كتبه المقدسة اللاتينية لسويتون(٢) وجياده الأصيلة الاثنين والأربعين ولكنهم مقابل الدعم المسلّح استولوا على مزارع قدماء السادة المنفيين ومواشيهم وتقاسموا البلاد مقاطعات مستقلة متعلّلين بهذه الحجة غير المجدية، هذه هي الفيدرالية سيدي الجنرال، إنما من أجل ذلك أهرقنا دماءنا، وحكموا في أراضيهم حكماً مطلقاً، بقوانينهم الخاصة، وأعيادهم الوطنية، وأوراقهم الشخصية، وبزاتهم العظيمة مع السيوف المرصعة بالجوهر، وستراتهم ذات العرى الذهبية، والقبعات ذات القرون الثلاثة وريش الطواويس، المستعارة من رسوم قدماء ملوك الوطن، وكانوا غير مهذبين وعاطفيين، يا سيدي، ويدخلون إلى قصر الرئاسة من البوابة الكبرى من دون إذن لأن الوطن ملك الجميع سيدي الجنرال، وقد ضحينا بحياتنا كي يصير كذلك، كانوا يخيّمون في قاعة الاحتفالات

مع نسائهم وذريتهم، وحيوانات مزارعهم التي يعدّونها بمثابة ضرائب السلام أينما حلّوا كي يجدوا دائماً ما يقتاتون به، وكانوا يسحبون وراءهم مرافقيهم من المرتزقة المتوحشين الذين يلفون أقدامهم بالخرق بدلاً من احتذاء الجزم ولا يكادون يتكلمون لغة المسيحيين إلا أن أحداً لم يكن يجاريهم في الخداع أثناء لعبة النرد، واستعمال الأسلحة بمهارة فائقة بحيث أصبح بيت السلطة شبيهاً بمخيم للغجر، نعم يا سيدي، صارت له عفونة نهر فائض، ونقل ضباط مجلس القيادة أثاث الجمهورية كله، إلى مزارعهم، وكانوا يلعبون الدومينو على امتيازات الحكومة غير مبالين بتوسلات أمّه بندثيون الفارادو التي كانت تحاول جاهدة كنس كل أوباش حفلة الغابات تلك، وكانت الوحيدة التي أرادت ملاحقتهم بضربات المكنسة عندما رأت البيت ملوثاً بأولئك التافهين الذين يتنافسون بلعب الورق على سلب مقاعد القيادة العليا، لقد رأتهم ينصرفون إلى ممارسة أعمالهم اللوطية الوسخة خلف البيانو، لقد رأتهم يتغوّطون في أواني المرمر رغم إنذاراتها، كلا، يا سادتي، هذه ليست أسطلاً صحية وإنما هي أوانٍ أثرية وجدت في مياه بانتلاريّا، لكنهم كانوا يصرّون على أنها مراحيض أغنياء يا سيدي، وما من قدرة إنسانية استطاعت إقناعهم بعكس ذلك، مثلما لم تستطع أية قدرة إلهية أن تمنع الجنرال أدريانو غوزمان من حضور الحفلة الدبلوماسية التي أعدّت لمناسبة الذكرى العاشرة لارتقائي رئاسة الدولة، ولكن من كان ليتصوّر ماذا كان ينتظرنا عندما ظهر في قاعة الرقص ببزّة الكتان البيضاء الخشنة التي انتقاها للمناسبة، وكان غير مسلح كما وعدني مقسماً بشرفه العسكري، مع مرافقيه من اللاجئين الفرنسيين في ثياب مدنية محمّلين بهدايا

أنثوريوس كايينا التي وزعها الجنرال أدريانو غوزمان واحدة بعد الأخرى على زوجات السفراء والوزراء بعد أن طلب الإذن بانحنائه أمام أزواجهن، إذ أن مرتزقته أخبروه أن ذلك من قبيل اللياقة والأدب في فرساي، ما جعله يؤدي ذلك بذوق رجل المجتمع، وبعد ذلك مكث جالساً في زاويته، مركّزاً انتباهه على الراقصين، فكان يؤيدهم برأسه مستحسناً، رائع، يقول، متأنقو أوروبا يرقصون جيداً، يقول، لكل اختصاصه، يقول، وكان منسياً في كرسيه المنجّد بحيث كنت الوحيد الذي تفطّن إلى أن أحد مرافقيه كان يملأ له قدحه بالشامبانيا كلما ابتلع القدح السابق، ومع مرور الساعات كان يبدو أكثر صرامة وأكثر دموية من العادة، وكلما هزته جشأة مخنوقة فتح زراً من أزرار بزته التي بلّلها العرق، وكان يكابد النعاس، أمّاه، عندما نهض فجأة بصعوبة خلال توقف الرقص وانتهى بأن فك سترته، ثم فك أزرار فتحة بنطاله واندفع مثل الأنبوب مرشرشاً فساتين السفيرات والوزيرات المقوّرة والمعطرة بأنبوبه الذاوي، أنبوب العقاب العجوز، فأغرق أحضان الموسلين الناعمة، وصدارات الدّيباج والذهب، ومراوح ريش النعام، ببول الجندي السكير الحامض وهو يغنّي هادئ الأعصاب رغم انتشار الهلع العام، أنا عاشق نفورك ولهان، اسقي الورود في بستانك الظمآن، أيتها الورود ما أشهاك، كان يغني دون أن يتجرأ أحد على عرقلته، ابتداء منّي أنا، إذ كنت أعرف أن لي من النفوذ أكثر من أي واحد منهم على حدة ولكن أقل بكثير من أيّما اثنين متواطئين منهم، غير مدرك بعد أنه إنما كان يرى الآخرين كما كانوا في حين لم ينجح الآخرون قط في استشفاف الفكرة الخفيّة للشيخ الصوّاني برصانته التي لم يكن يدانيها سوى حذر

دقيق وميل إلى الانتظار لا حدود له، ولم نكن نرى سوى العينين الكئيبتين، والشفتين المتصلّبتين، ويدي الفتاة المحتشمة اللتين لم ترتجفا قط على مقبض السيف خلال منتصف ذلك النهار الرهيب عندما أخبر بالنبأ سيدي الجنرال القائد نارسيزو لوبيز المدمن على الكوكائين والأنيسون اختلى في المرحاض بأحد حرّاسك الشبان، جعله ينتعظ مثل امرأة متهيجة ثم أجبره على أن يدخله له، ستدخله فيَّ كله، انتبه، هذا أمر، كلّه، يا حبيبي، وحتى خصيتيك، وهو يبكي ألماً وغيظاً، حتى اللحظة التي وجد نفسه فيها مرتمياً على أربع وهو يتقيأ من الإذلال، ورأسه في بخار حوض المرحاض النتن، عندئذ رفع ذلك «الأدونيس[٤]» الصغير في بزته العسكرية وسمّره بواسطة رمح مثل فراشة على البسط الربيعية لقاعة الاجتماعات من دون أن يجرؤ أحد على اقتلاعه قبل ثلاثة أيام، المسكين، أما هو فكان يكتفي بمراقبة رفاقه القدامى في السلاح كي لا يتآمروا ولكن دون التدخل في حياتهم الخاصة، مقتنعاً بأنهم سوف يقضون على بعضهم البعض قبل أن يحاط علماً بالنبأ سيدي الجنرال الأمر يتعلق بالجنرال يسوع المسيح سانشيز فقد اضطرّ مرافقوه إلى قتله ضرباً بالكراسي لأنه أصيب بنوبة كَلَب بعد أن عضّه قط، المسكين، ولم يرفع نظره عن قطع الدومينو حتى وُشوش إليه بالخبر سيدي الجنرال لوتاريو سيرينو غرق إذ أن حصانه مات فجأة وهو يجتاز نهراً، المسكين، نعم لم يكد يقطّب حاجبيه حتى أعلم بالنبأ سيدي الجنرال، الجنرال نارسيزو لوبيز أدخل عبوة ديناميت في مؤخرته ونسف أمعاءه خزياً من شذوذه الجنسي المتأصل، وكان هو يعلّق المسكين كما لو أن أحداث الموت الشائنة تلك لم تكن تعنيه، وأصدر مرسوماً يحتفظ بشرف

ما بعد الموت للجميع، وأعلن أنهم شهداء سقطوا في خدمة الوطن ودفنوا بمواكب جنائزية رائعة على مستوى الارتفاع نفسه في مدفن عظماء الأمة، ذلك أن وطناً بلا أبطال إنما هو بيت بلا أبواب، كان يقول، وعندما لم يبق سوى ستّة جنرالات حرب في كامل البلاد استدعاهم للاحتفال بعيد مولده في القصر مع شلة من الأصدقاء، كلهم دفعة واحدة، سيدي، بمن فيهم الجنرال خاثينتو ألغارابيا الأكثر غموضاً ودهاء، والذي كان يتبجّح بأنه أنجب طفلاً من أمّه ولا يشرب سوى كحول مستخرج من خشب معطّن بالبارود، ها نحن وحدنا في قاعة الاحتفالات كما في الزمن الغابر سيدي الجنرال، كلنا بلا سلاح مثل إخوة في الرضاعة ولكن مع مرافقينا المتكتلين في القاعة المجاورة، وكلهم محمّلون بهدايا رائعة للشخص الوحيد بيننا الذي عرف كيف يفهمنا جميعاً، كانوا يقولون، وإنما كانوا يعنون بذلك الوحيد الذي استطاع أن يديرنا بدهاء، الوحيد الذي استطاع أن يخرج الجنرال الأسطوري ساتورنو سانتوس من وكره النائي في الصحارى، هندي حقيقي ومريب، كان يمشي دائماً مثلما خرج من حضن أمّه الداعرة ورجلاه على الأرض سيدي الجنرال، أما نحن فلا نقدر على التنفس إذا لم نحس بالأرض تحت أقدامنا، لقد وصل متلفّعاً بغطاء مزخرف بحيوانات غريبة ذات ألوان فاقعة، وحيداً كعادته، بلا مرافقين، تسبقه نسمة سوداء، ولم يكن سلاحه سوى ساطور قطع القصب الذي رفض أن ينزعه من نطاقه إذ أنه ليس سلاحاً حربياً وإنما سلاح عمل وقدم لي نسراً مروّضاً من أجل حروب الإنسان، وقيثارة، أمّاه، الأداة المقدّسة التي كانت علاماتها الموسيقية تتضرع إلى العاصفة وتسرّع في دورات الحصاد والتي كان الجنرال

سانتوس ينقر عليها بمهارة عاطفية أيقظت فينا جميعاً ذكريات ليالي الرعب في زمن الحرب، أمّاه، وحركت فينا رائحة كلبة الحروب الجرباء، التي أثارت في ذاكرتنا أنشودة مركب الحرب الذهبي(٥) الذي عليه أن يأخذنا، وبدأوا الإنشاد معاً من أعماقهم، عدت من الميناء مغرورق العينين، كانوا يغنّون وهم يتناولون دجاجة رومية محشوة بالخوخ المجفف ونصف خنزير رضيع، وكل واحد منهم يشرب رأساً من زجاجته، كل واحد يحتسي كحوله الخاص، كلهم ما عداه هو والجنرال ساتورنو سانتوس الذي لم يشرب في حياته ولو قطرة من مشروب روحي، ولم يدخّن، ولم يأكل سوى اللازم الضروري، وأنشدوا إكراماً لي أنشودة الصباحات التي كان ينشدها الملك داوود، وأنشدوا وهم يبكون كل أغاني التهاني بعيد المولد المنغّمة قبل وصول القنصل هانيمان ببدعة جديدة، سيدي الجنرال، «الغراموفون» وإسطوانة Happy Birthday، وأخذوا يغنون نصف نائمين، نصف هالكين، بعد تلك الفظاظة، كفوا عن الاكتراث لذلك العجوز الصموت الذي أخرج مصباحه مع دقة منتصف الليل وذهب يتفقّد البيت قبل الركون إلى النوم طبقاً لعادة رجل ثكنة والذي رأى لآخر مرّة خلال عودته وهو يمر بقاعة الاحتفالات، الجنرالات الستّة متقلّصين على الأرض، متحاضنين، ساكنين ووديعين، تحت حماية المجموعات الخمس من المرافقين الذين كانوا يراقبون بعضهم بعضاً، إذ كانوا يخشون بعضهم بعضاً، حتى وإن كانوا نائمين ومعرقلين تماماً مثلما كان يخشاه كل واحد منهم تقريباً، ومثلما كان هو يخشاهم عندما يختلي اثنان منهم ببعضهما من أجل التآمر، ثم أعاد تعليق المصباح فوق الباب وأغلق المزاليج الثلاثة، والدعامات الثلاث، ورتاجات مخدع نومه الثلاثة، ونام

أرضاً على بطنه وساعده الأيمن منثنياً تحت رأسه على هيئة وسادة، في اللحظة التي اهتزت مداميك المنزل بانفجار كثيف من كل أسلحة المرافقين التي انطلق رصاصها دفعة واحدة، مرّة أولى، يا للفوضى، بلا انقطاع، بلا تأوه، ثم مرّة ثانية، يا للفوضى، انتهى الأمر انتهى الإزعاج، ولم يبق في صمت العالم سوى رائحة البارود، ولم يبق سواه سليماً معافى إلى الأبد بعد هذه المحاولة لإزالة السلطة، ورأى عبر الألوان الخبازية لليوم الجديد حرس الخدمة وهم يتخبطون في مستنقع قاعة الاحتفالات الدامي، رأى أمّه بندثيون ألفارادو يغشى عليها من الهول وهي تكتشف بأن الدم كان ينضح من الجدران رغم تجفيفه بالكلس وبالرماد، نعم، يا سيدي الطيب، كانت السجادات تواصل قذف الدم حتى وهي ملويّة، كان الدم يتدفّق سيولاً عبر الأروقة والمكاتب التي بذلت كل الجهود لغسلها وإخفاء مدى امتداد المذبحة التي تمّ فيها القضاء على آخر ورثة حربنا، هؤلاء الذين حسب البلاغ الرسمي اغتيلوا من قبل مرافقيهم وقد ثار جنونهم، فزينت جثثهم الملفوفة في علم الوطن مدفن عظماء الأمّة بعد مآتم جنائزيّة فخمة، إذ لم ينجح أي واحد من المرافقين في الخروج حيّاً من الشرك المأساوي، كلا، لا أحد سيدي الجنرال باستثناء الجنرال ساتورنو سانتوس الذي كان محصناً بسبحاته الكتفيّة وكان ملمّاً بأسرار الهنود في مجال المسخ والتحول لدى الحاجة، يا للمخلوق الرجيم الذي كان قادراً على التحول إلى «أرمديل[٦]» أو إلى مستنقع سيدي الجنرال والذي كان قادراً على أن يصير رعداً، أمّا هو فقد أدرك أن كل ذلك كان حقيقة إذ أن أدهى جواسيسه أضاعوا أثره منذ عيد الميلاد، وأشرس كلابه المدرّبة كانت تبحث عنه في الاتجاه المعاكس،

لقد استدلّ عليه بواسطة العرّافات في أوراق اللعب وكان على هيئة ملك كبًّا، وكان حيًّاً، ينام نهاراً ويسافر أثناء الليل عبر الوديان والماء مخلّفاً وراءه سحابة من صلوات تشوش مدارك ملاحقيه وتشل إرادة أعدائه، أمّا هو فلم يتخلّ لحظة من الليل أو لحظة من النهار عن مطاردته طيلة سنوات وسنوات حتى تلك السنة التي رأى فيها من بوابة القطار الرئاسي حشداً من الرجال والنساء مع أطفالهم، وحيواناتهم وأدوات مطابخهم، وكان قد سبق له أن رأى مثلهم خلف الجنود أثناء الحرب، رآهم يمرّون تحت المطر حاملين مرضاهم على أسرّة معلّقة خلف رجل شديد الشحوب يرتدي سترة من كتّان القنّب ويزعم أنه مرسل من السماء سيدي الجنرال، عندئذ ضرب على جبينه، يا للقذارة، كان ذلك الجنرال ساتورنو سانتوس وهو يتسوّل إلى الحجّاج بقيثارته ذات الأوتار الناقصة، كان بائساً كئيباً تحت قبعته اللبديّة البالية ومعطف البونشو الممزّق، وحتى في تلك الحالة الحزينة البائسة، لم يكن من السهل القضاء عليه كما كان يفكر، فبعد أن قطع رؤوس ثلاثة من أفضل جنوده جابه الأكثر فتكاً بقدر عالٍ من الشجاعة والمهارة إلى حد أنه تمّ الإيعاز للقطار بالتوقف أمام المقبرة الكئيبة حيث كان مبعوث السماء يبشّر، وأسرع الجميع بالانسحاب عندما قفز الحرس الرئاسي وأسلحتهم بين أيديهم من المقطورة المطلية، بألوان الراية، ولم يبقَ أحد سوى الجنرال ساتورنو سانتوس قرب قيثارته الأسطورية، ويده ماسكة بقبضة ساطوره، كان يبدو مفتوناً برؤية العدو القاتل الماكث هناك على مقعد المقطورة، في بزّته الكتانية الخالية من الشارات، وهو من دون أسلحة، أكبر سناً وأكثر بعداً كما لو أننا لم نر بعضنا منذ قرن سيدي الجنرال، بدا لي متعباً ووحيداً، جلده الشاحب كمن

يعاني داء الكبد وعيناه دامعتان، ورغم ذلك كله كان له الإشراق الأكهب لذلك الذي ليس سيِّد سطوته فقط وإنما سيد سطوةٍ زاحم عليها موتاه أيضاً، تهيّأت إذاً للموت من دون مقاومة لفرط ما بدا لي أنه من غير المجدي معاندة شيخ أتى من البعيد من دون سبب آخر أو جدارة سوى نزعة القيادة، لكنه أظهر له باطن يده المشقق الأقرن وقال له ليحفظك الله، ماتشو، الوطن بحاجة إليك، إذ كان يعرف دوماً أنه لا يوجد سلاح آخر، ضد رجل لا يقهر، سوى الصداقة، ثم إن الجنرال ساتورنو سانتوس قبّل الأرض التي داسها وتوسل إليه: هب لي نعمة خدمتك كما تود سيدي الجنرال طالما ظلت ليدي القدرة على جعل هذا الساطور يغنّي، وقَبِل بذلك، حسناً، وجعل منه حارسه الخاص بشرط واحد هو ألا يمكث ورائي أبداً، واتخذه شريكاً في لعبة الدومينو فسلبا معاً وبأيد أربع هذه المرة العديد من المستبدّين المنكوبين، كان يرتضيه حافي القدمين في عربته الرئاسية ويصطحبه إلى حفلات الاستقبال الدبلوماسية رغم رائحة أنفاسه، أنفاس النمر التي تثير الكلاب وتصيب زوجات السفراء بالغثيان، كان يرغمه على النوم ليلاً أمام باب حجرته كي يشعر بخوف أقل من النوم عندما تصبح الحياة من المجازفة بحيث يرتجف لفكرة أن يوجد بمفرده مع أناس الأحلام، وأبقاه على مسافة إصبعين من ثقته، طيلة سنوات عديدة، حتى اليوم الذي شل فيه تبلّر بوله قدرته على جعل ساطوره يغني حينما طلب اقتلني بيديك سيدي الجنرال لكي لا أعطي أحداً لذّة قتلي من دون أدنى حقّ، لكنه أرسله يموت مع معاش جيّد وميدالية امتنان في تلك البؤرة للصوص المواشي حيث ولد، ولم يستطع منع دموعه عندما تخلّى الجنرال ساتورنو سانتوس عن كل حياء ليقول له

في دفق من النحيب أترى سيدي الجنرال هذه الحماقة، حتى الفحول الأشد سفاداً ينتهون بالتحول إلى كائنات بائسة. بحيث أن أحداً لم يكن يفهم أفضل من بندثيون ألفارادو الابتهاج الصبياني الذي كان يستردّ به السنين السود وعدم الإدراك الذي كان يدفعه إلى تبذير نقود السلطة كي يمتلك، شيخاً، ما كان يحتاج إليه صبيّاً، لكنها كانت تغتاظ من استغلال براءته المبكرة لبيعه سقط متاع الأمريكيين هذا الذي لم يكن رخيص الثمن ولا يقتضي الدهاء، كالطيور المزيّفة التي لم تجد أكثر من أربعة أشخاص لاقتنائها، لا بأس من أن تغتنم الفرصة، كانت تقول، لكن فكر في المستقبل، لا أريد أن أراك تتسوّل بقبّعة عند باب كنيسة إذا ما غداً أو بعد غد لا سمح الله طردت من هذا الكرسي الذي تجلس عليه، على الأقل لو كنت تجيد الغناء، أو كنت مطراناً أو بحاراً، لكنّك لست سوى جنرال، إذاً فأنت لا تجيد سوى إصدار الأوامر، اطمر النقود التي بقيت معك من الحكومة في موضع أمين، كانت تنصحه، حيث لا يتمكن أحد من الوصول إليها، حتى إذا ما توجّب عليك ذات يوم أن تهرب مثل هؤلاء الرؤساء المساكين الذين لا أوطان لهم والذين يجترّون النسيان وهم يتسوّلون وداعات السفن في بيت الصخور، انظر إلى نفسك في مرآتهم، كانت تقول له، غير أنه لم يكن يكترث وكان يكمّم قلقه بصيغة سحرية لا تقلقي يا أمّاه، هؤلاء القوم يحبونني. وكان على بندثيون ألفارادو أن تعيش سنوات لا بأس بها وهي تشتكي من عوزها، وتتخاصم مع الخادمات بسبب حسابات السوق وتمتنع عن أكل بعض وجبات الطعام كي تقتصد من دون أن يجرؤ أحد على إعلامها بأنها إحدى أغنى النساء على وجه الأرض، وأن ما يراكمه بفضل أعمال

الحكومة إنما كان مسجّلاً باسمها هي، وأنها لا تملك عدداً لا يحصى من الأراضي والأنعام فحسب، بل كل عربات الترام المحلية ومراكز البريد والبرق ومصلحة مياه الأمّة أيضاً، بحيث أن كل سفينة تمخر روافد الأمازون أو البحار الإقليمية كان يتوجب عليها أن تدفع لها ضريبة ظلّت تجهلها حتى موتها، كما جهلت طيلة سنوات أن ابنها لم يكن محروماً بالقدر الذي كانت تتصوّره عندما كان يصل إلى قصر الضاحية مذهولاً دهشاً بألعاب الشيخوخة، إذ بالإضافة إلى الضريبة الشخصية التي كان يجبيها على كل رأس من الماشية يذبح في البلاد، بالإضافة إلى مكافأة فضائله والهدايا ذات الشأن التي كان يرسلها إليه أنصاره، فقد رسم وأخذ يستغل منذ زمن لا بأس به طريقة ناجعة للحصول على النقود من اليانصيب. كان ذلك بالضبط بعد ميتته الزائفة، في أزمنة الضجيج، سيدي، التي لم تسمّ بذلك الاسم كما يعتقد الكثيرون بيننا بسبب هدير الأرض الباطني الذي فاجأنا في كل أرجاء الوطن ليلة استشهاد القديس هراكل والذي لم يتم توضيحه البتة بجلاء، وإنما بسبب الاضطراب المتواصل للأشغال المتعهّدة التي كانت أسسها تعلن بأنها أكبر منشآت في العالم والتي ظلت رغم ذلك غير مكتملة، في زمان هادئ حيث كان يجمع مجلس الوزراء ساعة القيلولة في قصر الضاحية، ويتمدد في أرجوحة نومه مروّحاً لنفسه بقبعته تحت أغصان شجر التمر الهندي الندية، وينصت وعيناه مغمضتان إلى الدكاترة ذوي الحديث الذهبي والشوارب الممحوّة الذين كانوا يجلسون، حول أرجوحة النوم، وهم كابون من الحرارة في سترات «ردنغوت» من الجوخ وياقات «سلّولويد» ليناقشوا الوزراء المدنيين المقيتين والمدعوين رغم ذلك لأنه كان يرى فائدة

في محاورتهم في شؤون الدولة وسط صخب الديكة التي تغازل الدجاجات في الفناء، والصفارة المتواصلة للزيزان والفونوغراف المصاب بالأرق وهو يزعق في الجوار مكرّراً سوزان، تعالي يا سوزان، ويسكتون فجأة، صمتاً، الجنرال نام، لكنه كان يخور من دون أن يفتح عينيه، ومن دون أن ينقطع عن الشخير، لم أنم أيها الأوغاد، تابعوا، فكانوا يتابعون، حتى اللحظة التي كان يخرج فيها مثل طائر «تنطل» متخبط في نسيج عنكبوت القيلولة ويعلن أنه في هذا الكيس من الحماقات ليس هناك سوى شريكي وزير الصحة على حقّ، سحقاً انتهى الإزعاج، وفعلاً ينتهي الإزعاج، وكان يثرثر مع معاونيه الخصوصيين ويأخذهم من زاوية إلى أخرى بينما هو يأكل، الصحن في يد والملعقة في الأخرى، قبل أن يصرفهم بكل برود على الدرج افعلوا مثلما شئتم فأنا القائد في نهاية الأمر، سحقاً إذاً، لقد أضاع نزق السؤال عمّا إذا كان محبوباً أم غير محبوب، وكان يقصّ أشرطة تدشين، ويظهر نفسه في الأماكن العامة من شعره إلى أخمص قدميه كاملاً، متحملاً مخاطر السلطة كما لم يفعل في أزمنة أهدأ، سحقاً إذاً، كان يلعب الدومينو مطولاً مع شريكي مدى الحياة الجنرال رودريغودي أغيلار وشريكي وزير الصحة، الوحيدَيْن اللذين يثقان به ليطلبا منه إطلاق سراح أحد السجناء أو العفو عن أحد المحكومين بالإعدام، الوحيدَيْن اللذين يتجرآن على أن يقترحا عليه استقبال ملكة جمال الفقراء في جلسة خصوصية، مخلوقة رائعة من ذلك المستنقع البائس الذي كنا نسميه حي معارك الكلاب إذ أنّ كل كلاب الحي كانت تتصارع فيه منذ سنوات من دون هدنة لحظات، بؤرة مشؤومة حيث لم تعد دوريات الحراسة الوطنية تدخل، ذلك أنها كانت تخرج منها

عـارية تماماً، وحـيث يخـتلسـون منك قطع السـيّـارة كـمـا في وسـائل الشـعوذة، وحـيث الحـمـيـر البائسـة التـائهـة تدخل من شارع وتخـرج من الطرف الآخر على هيئة كومة صغيرة من العظام في كيس، حيث يأكلون أطفال الأغنيـاء مـشويين، سيـدي الجنرال، ويبـيـعـونهم في السـوق على شكل نقانق، تصـوروا هنالك ولدت وهنالك عـاشت مـانويلا سـانشـيـز تعـاسـتي هذه، وردة مزبلة كـان جـمـالهـا الذي لا يصـدّق يذهل الوطن بكامله سيـدي الجنرال، وأحس أنه معنيّ بهذا البوح إلى حدّ أنه إذا كـان كل ما تقوله حقيقة فإنني لن أكرمها بجلسة خصوصية فحسب بل سوف نرقص أيضاً أوّل فاس، سحقاً إذاً، فلتعلن الصحافة ذلك، أصدر أمره، الفقراء يهيمون بهذا النوع من الحماقات. ورغم ذلك، ففي المساء الذي أعقب الجلسـة، وبينما كانا يلعبان الدومينو، أكّد الجنرال رودريغو دي أغيلار بنوع من المرارة أن ملكة الفقراء لم تكن تستحق أن يضيع الواحد وقتـه في مـراقـصـتـهـا، وإنهـا لم تكن تـختلف عـن سـائر «المانويلات سـانشـيـز» في الضـواحي بفسـتـان الحـوريّة ذي دوائر الموسلين، وتـاجـهـا المذهب والمرصّع بجـواهر البـازار والوردة في يدها، تحت حـراسـة أمـهـا اليقظة التي كانت تراقبها مثل تمثال من ذهب، حسناً، ولقد أعطاها كل مـا كـانت ترغب فيـه على الإطلاق الكهـرباء والماء الجـاري من أجل حارتها، حارة معارك الكلاب تلك، ولكن أنذرك بأنها المرة الأخيرة التي أقبل فيها التماساً، تبّاً، لا أحد يعتمد عليّ للحديث مع الفقراء منذ اليـوم، أعلن ذلك، ومن دون أن ينهي الأمر، صفق الباب واختفى، سمع دقات الساعة الثامنة النحاسية، فعاين البقرات في الإسطبلات، أخرج الرّوث، فـتّش كـامل البـيت، وصحنه في يده، وهو يأكل فـاصـوليـاء مع

اللحم والأرز وقطعاً من الموز الأخضر، أحصى الحرس من بوابة الدخول حتى الغرف، كان عددهم كاملاً وكلهم في مراكزهم، أربعة عشر، رأى بقية حرسه يلعبون الدومينو في الباحة الأولى، رأى البرصى نائمين تحت أشجار الورد، والمشلولين على درجات السلم، عند الساعة التاسعة وضع على حافة إحدى النوافذ صحنه الذي أكل نصفه ثم وجد نفسه وهو يتقلّب في أجواء مخيّم محظياته الموحل واللواتي كن ينمن أحياناً كل ثلاث على سرير واحد مع أطفالهن المولودين قبيل الأوان، جثم على كدس له رائحة طبيخ الليلة وأبعد من هنا رأسين ومن هناك ست أرجل وثلاثة سواعد دون أن يتساءل إن كان سيعرف مَنْ كانت مَنْ، ولا حتى من هي المرأة التي مكّنته من المتعة دون أن تستيقظ، ودون أن تحلم به، ومن تلك التي همست وهي نائمة في سرير آخر افعل ذلك بهدوء سيدي الجنرال، إنّك تخيف الصبيان، عاد إلى غرفته، تفحّص غلاقات الثلاث وعشرين نافذة، أشعل الرّوث على امتداد خمسة أمتار الرّواق وحتى الحجرات الخاصة، اشتم رائحة الدخان وعادت به الذاكرة إلى طفولة غامضة قد تكون طفولته، وكانت لا تنبثق من جديد إلا في تلك اللحظة ذاتها عندما يبدأ الدخان بالارتفاع، لكنه كان ينساها مباشرة، استدار قليلاً ليطفئ من الاتجاه المعاكس أضواء الحجرات الأخيرة حتى الرّواق وهو يغطي أقفاص الطيور النائمة التي كان يحصيها قبل أن يغطيها بستائر الكريطون، ثمانية وأربعون، جاب المنزل كلّه مرة أخرى والمصباح في يده، رأى نفسه أربعة عشر جنرالاً يسيرون مع مصباح مضاء في المرايا، الساعة العاشرة، لا جديد يذكر، عاد إلى غرف الحرس الرئاسي وأطفأ أنوارها، تصبحون على خير يا سادتي، فتش المكاتب العمومية في

الطبقة الأرضية ومداخل غرف الانتظار والمراحيض وخلف الستائر وتحت الطاولات، لم يكن هناك أحد، أخرج مجموعة المفاتيح التي كان قادراً على تمييزها واحداً واحداً باللمس، أغلق المكاتب، صعد إلى الطابق الأول لتفتيش الغرف غرفة غرفة وإقفال الأبواب، أخرج إناء العسل من مخبئه خلف إحدى اللوحات وتناول منه الملعقتيْن اللتيْن كان يتناولهما دائماً قبل النوم، فكّر في أمه النائمة في قصر الضاحية، بندثيون ألفارادو ناعسة في ساعة الوداع بين الصعتر البرّي والاترنج بيدها الفقيرة الدم، يد مربية الطيور، رسامة الصفاريات وهي تشبه أمّاً ميتة نائمة على جنب، تصبحين على خير، أماه، نامي جيداً، تصبح على خير يا بني أجابته أمه بندثيون ألفارادو وهي نائمة في قصر الضاحية، علق فوق باب حجرته مصباح اليد الذي لا يجب أن يتحرّك من هناك ما دام نائماً، كان الأمر صارماً لا تطفئوه لأنه ذبالة الانطلاق نحو الكارثة، دقت الساعة الحادية عشرة، فتش البيت لمرّة أخيرة، في العتمة، تحسباً من إمكانية تسلّل أحدهم ظناً منه أنه نائم، وكان يترك وراءه سحابة الغبار الكوني من مهمازه الذهبي في الأسحار المتلاشية، دفقات النور الخضراء التي كانت المنارة تبثها وهي تدور مثل أجنحة مطحنة، ورأى بين بارقتين من النور أبرص تائهاً يمشي نائماً، اعترض طريقه، قاده نحو الظلّ دون أن يلمسه مضيئاً إياه بفانوس يقظته، ثم هجره عند أشجار الورد وأعاد إحصاء الحرس في العتمة، التحق بحجرته، فكان يرى وهو يمرّ أمام النوافذ بحراً مماثلاً في كل نافذة بحر الكاريبي في شهر أبريل، نظر إليه ثلاثاً وعشرين مرّة بلا توقّف، كان كعادته في نيسان شبيهاً بمستنقع مذهّب، استمع إلى دقات منتصف الليل، ومع آخر دقّة لناقوس

الكاتدرائية أحسّ بالتواء الصفير المكتوم المتأتي من آلام الفتق، ولم يعد ثمّة ضجيج على وجه الأرض، وحده كان كل الوطن، شدّ الرتاجات الثلاثة، المزاليج الثلاثة، دعامات الغرفة الثلاث، تبوّل جالساً على سطله الصحّي، قطرتيْن، أربع قطرات، سبع قطرات شاقة، ترك جسده يقع وجهاً على الأرض ونام فوراً دون أن يحلم، كانت الساعة الثالثة إلا ربعاً عندما استيقظ مبلّلاً بالعرق، يزعزعه اليقين بأن شخصاً ما نظر إليه عندما كان نائماً، شخص له القدرة على التسلّل دون لمس المزاليج، نادى، من هناك، لا أحد، أطبق عينيه، أحس من جديد أن شخصاً ما ينظر إليه، فتح عينيه كي يرى، مرتعباً، عندها رأى، يا للفوضى، لقد كانت مانويلا سانشيز تقطع الغرفة جيئة وذهاباً دون أن تفتح أيَّ مزلاج أو رتاج، كانت تدخل وتخرج كما ترغب مخترقة كل الجدران، مانويلا سانشيز شقائي هذه في فستانها الموسلين، وجمرة وردتها في يدها ورائحة السوس الطبيعي في أنفاسها، قولي لي إن ذلك وهم، إنني أهذي، كان يقول، قولي لي بأنك لست أنت، قولي لي بأن دوار الموت هذا ليس تلاشي السوس من أنفاسك، لقد كانت هي فعلاً، كانت وردته، وكانت أنفاسها الدافئة تعطر الغرفة بأكملها مثلما رصيف مرجاني أبعد سطوة وأكثر قدماً من رئتي البحر، مانويلا سانشيز مصيبتي هذه التي لم يكن قدرها مرسوماً على باطن يدي، ولا في تفل قهوتي، كلا، ولا حتى في مياه موتي في جفنات العرافات، لا تلمسي هوائي؛ لا تلمسي نومي؛ لا تلمسي عتمة هذه الحجرة حيث لا امرأة دخلت قط ولا كان لها أن تدخل، أطفئي هذه الوردة، كان يتأوه جاثماً على أربع وهو يبحث عن مفتاح الكهرباء فلا يجد من الضوء سوى مانويلا سانشيز جنوني، سحقاً

إذاً، لماذا عليّ أن ألقاك من جديد إن لم تكوني قد أضعتني، خذي بيتي إن شئت، كلّ الوطن مع تنّينه، ولكن دعيني أضيء النور، آه يا عقرب ليالي، يا مانويلا سانشيز فتقي، يا ابنة القحبة، صرخ، ظناً منه أن النور سيحرره من السحر، أخرجوها، كان يصرخ، خلصوني منها، اقذفوا بها من أعلى قمم الصخور مع مرساة في عنقها حتى لا يتعذب أحد أبداً من وهج وردتها، بح صوته رعباً عبر الأروقة، كان يتخبط في روث العتمة الموحل، متسائلاً في ذهوله ترى ماذا يجري؟ أوشكت الساعة على الثامنة صباحاً والجميع في بيت الأنذال هذا، نائمون، استيقظوا أيها المخدوعون، كان يصرخ، أضيئت الأنوار، قرعت نوبة الصباح في الساعة الثالثة فأعادتها قلعة الميناء، ثكنة سان خيرونيمو، وثكنات البلاد، فكانت هناك فرقعة لأسلحة مجنونة وورود تتفتح رغم أن ساعتين تفصلانها عن هطول الندى، ومحظيات سائرات في نومهنّ كنّ ينفضن السجادات تحت النجوم، ويبحثن عن أقفاص الطيور النائمة ويستبدلن أزهار هذه الليلة البيضاء بأزهار عشية البارحة في الأصص، وكانت فرقة من البنائين ترفع حيطاناً استعجالية وتغيّر وجهة دوار الشمس بإلصاق شموس من ورق مذهب على زجاج النوافذ حتى لا يتم الانتباه إلى أن الليل لا يزال في السماء وأن الأحد ٢٥ لا يزال في البيت وأن (أبريل) لا يزال على البحر، وكان رهط من الكوّائين الصينيين يلقون بآخر النائمين عن أسرّتهم كي يحملوا الأغطية، وعميان متنبّئون يعلنون عن الحب في أماكن لا حبّ فيها، وموظفون فاجرون يكتشفون دجاجات تبيض بيض يوم الاثنين في حين كان بيض البارحة لا يزال في جوارير المحفوظات، كانت هناك جموع مذهولة تتدافع وكلاب تتقاتل في مجلس

الوزراء الملتئم على جناح السرعة في حين كان هو يفتح طريقاً أضاءه الصباح المفاجئ ما بين المتملقين بلا حياء الذين كانوا يعلنونه بالج الفجر، آمر الزمن ومؤتمن الضياء، حتى اللحظة التي تجرّأ فيها ضابط من القيادة العليا على إيقافه في الرواق وانتصب بالتحيّة ومعه النبأ سيدي الجنرال كانت الساعة لم تتجاوز بعد الثانية وخمس دقائق، ثم صوت آخر، في الساعة الثالثة وخمس دقائق صباحاً سيدي الجنرال، غير أنه سدّد له صفعة بقفا يد متوحشة وعوى بملء صوته الهلع حتى تتمكن كل الأرض من سماعه، إنها الساعة الثامنة، يا للفوضى، الساعة الثامنة، أقول لك، إنه أمر من الرب. سألته بندثيون ألفارادو عندما رأته يدخل قصر الضاحية من أين أنت قادم بهذه السحنة وكأنّما لسعتك رتيلاء تارنتيّة سامة، ولماذا تحتفظ بيدك على قلبك، قالت له غير أنّه انهار فوق أريكة السوحر من دون أن يجيبها، حوّل يده عن مكانها، ونسيها من جديد، عندما صوّبت أمه فرشاة الصفّاريات إليه وسألته متحيّرة إن كان يظن نفسه قلب يسوع حقّاً بهاتين العينين السقيمتين وهذه اليد على صدره، فأخفاها مرتبكاً، سحقاً أمّاه، صفق الباب وذهب أو أنّه بالأحرى أخذ يلف ضمن دائرة في البيت ويداه في جيبه حتى لا تتمكنا تلقائياً من الانتقال إلى الموضع الذي لا يجب أن تستقرا فيه، تأمّل المطر من النافذة، رأى الماء ينساب على نجوم أغلفة البسكوت وأقمار الورق الفضّي التي تم إلصاقها على الزجاج للإيهام بأنها الثامنة مساء في الساعة الثالثة بعد الظهر، رأى الحرس مرتجفين برداً في الباحة، رأى البحر كئيباً، مطر مانويلا سانشيز في مدينتك وهي خالية منها، الصالون الرهيب خالياً، الكراسي مقلوبة على الطاولات، الوحدة

المتفاقمة مع بداية العتمة أثر يوم سبت آخر زائل، ليلة أخرى من دونها، سحقاً إذاً، ليتهم يقدرون على تخليصي من هذا الهوس الذي هو أشد ما يعذبني، تنهّد، خجل من حالته، استعرض كلّ مواضع جسده حيث يمكن وضع يده التائهة باستثناء قلبه وانتهى بأن وضعها على موضع الفتق الذي سكّنته الأمطار، إنه هو نفسه وله الشكل نفسه، الثقل نفسه، وحدّة الألم نفسها، كان ذلك أفظع ممّا لو كان قلبه مستأصلاً ومستقراً على كفّ يده، وأدرك عندئذٍ ما قاله له أناس كثيرون من عصور أخرى إن القلب هو خصيتنا الثالثة سيدي الجنرال، سحقاً إذاً، ابتعد عن النافذة، وأخذ يقطع قاعة الاجتماعات جيئة وذهاباً مع غمّ لا يزول لرئيس دولة ليس يموت وقد انغرزت حسكة سمكة في روحه، وجد نفسه في قاعة مجلس الوزراء وهو يستمع كعادته من دون أن يفهم، من دون أن ينصت، وجد نفسه يتلقّى تقريراً مملاً حول الوضع الضريبي، فجأة حدث شيءما، قوطع وزير المالية، أما الآخرون فكانوا ينظرون إليه عبر شقوق قوقعة صدّعها الألم، رأى نفسه وحيداً أعزل عند آخر طاولة خشب الجوز وهو يرتجف لكونه فوجئ في وضح النهار ويده على صدره في حالة يرثى لها، هي حالة رئيس مدى الحياة، حياته احترقت في الجمر الجليدي المنبثق من عيني الصائغ، عيني شريكي وزير الصحّة، وهما عينان شديدتا التدقيق بدتا تتفحصانه داخلياً في حين كان شريكي يدير سلسلة ساعة الجيب الذهبيّة، انتبه، قال أحدهم، ربما كان هجوماً، أما هو فكان قد وضع يده، يد حورية البحر المتيبسة من الحنق، على طاولة خشب الجوز، استرجع نضارة وجهه، وقذف عبر الكلمات وابلاً قاتلاً من السطوة، تمنيتم لو كان ذلك هجوماً، أيها الأدنياء، فلنواصل، فواصلوا،

لكنهم كانوا يتحدثون من دون أن ينصتوا لبعضهم البعض اعتقاداً منهم أن وراء هذا الغيظ أمراً خطيراً كان يعذبه بلا ريب، تهامسوا بذلك، سرت الغمغمة، أخذوا يشيرون إليه بالأصابع، انظروا ماذا أصابه حتى يمسك بقلبه على تلك الطريقة، تفتّقت ثيابه، كانوا يتهامسون، وانتشرت الشائعة بأنّه استدعى وزير الصحة على جناح السرعة وأن هذا الأخير وجده وذراعه اليمنى مستقرة مثل قائمة خروف على طاولة الجوز وهو يصرخ آمراً ابتر لي هذه يا شريكي، شاعراً بالخزي من حالته، حالة الرئيس المجهش بالبكاء، إلا أن الوزير أجابه سيدي الجنرال هذا الأمر لن أنفّذه حتى وإن أعدمت رمياً بالرصاص، قال له، إنها مسألة عدل سيدي الجنرال، قيمتي أقل بكثير من ذراعك. كانت هذه الرواية وروايات أخرى غيرها حول حالته تنتشر كل يوم مع تأكيدات أكثر في حين كان هو يكيل الحليب في الإسطبل من أجل الثكنات مشاهداً ثلاثاء رماد مانويلا سانشيز يرتفع في السماء، ويطرد البرصى عن أشجار الورود حتى لا يفسدوا ورود وردتك، مانويلا، ويبحث عن الزوايا المخبأة المقفرة كي يغني خفية أول فالس للملكة، حتى لا تنسيني، كان يغني، حتى تحسّي أنك تموتين لو نسيتني، كان يغنّي، وكان يغرق في حجرات محظياته محاولاً إيجاد بلسم لعذابته، ولأول مرة في حياته الطويلة، حياة العاشق العابر، بدت غرائزه منطلقة في جموحها، كان يتأخر في نزواته، ويستثير آهات النساء الأكثر تقتيراً فيضحكن مذهولات تحت العتمة، ألا تخجل سيدي الجنرال، وأنت في هذا العمر، أما هو فكان يعرف جيّداً أن إرادة المثابرة لديه ليست سوى وهم يتشبث به لقتل الوقت، وأن كل خطوة في وحدته، كل صعوبة تعترض تنفسه، إنما كانت

تقرّبه بلا جدال من قيظ الساعة الثانية ما بعد ظهر يومٍ لم يكن منه مفر حين ذهب يتوسّل لوجه الله محبّة مانويلا سانشيز في قصر المزابل ومملكتك المتوحشة في حيّ معارك الكلاب، ذهب إلى هناك في ثيابه المدنية، من دون مرافقين، في سيارة تاكسي كانت تفرّ وهي تحدث ضجة متواصلة عبر بخار البنزين في المدينة المنهكة المتخبطة في سبات القيلولة، وتتلافى، متعرّجة، قرقعة السلع الآسيوية، رأى البحر الواسع بحر مانويلا سانشيز تعاستي مع بجعة وحيدة في الأفق، رأى عربات الترامواي المخلوعة التي تصل حتى بيتك وأمر باستبدالها بعربات صفراء ذات زجاج ملوّن مع عرش مخملي لمانويلا سانشيز، رأى شواطئ أيام آحادك المقفرة على ساحل البحر وأمر بإنشاء حجرات خاصة لنزع الثياب وارتدائها، وبرفع علم ذي ألوان مختلفة باختلاف ميول الزمن، وأسلاك شائكة حول شاطئ سباحة مخصص لمانويلا سانشيز، رأى فيلاّت الأربع عشرة عائلة التي اغتنت بفضل عطاياه، مع شرفاتها المرمرية ومروجها الحالمة، رأى فيلاً أكبر مساحة مع نافورات ماء مدوّمة وشرفات زجاجية حيث أريد أن أراك تعيشين من أجلي فقط، فتم انتزاع ملكيتها بمحاصرتها والتصرف بمصير ساكنيها في حين كان هو يحلم مفتّح العينين على المقعد الخلفي للسيارة ذات الألواح المرتجّة، حتى اللحظة التي انقطع فيها النسيم البحري وتوارت المدينة، وتسرّب عبر فجوات البوابات الصخب الشيطاني من حيّ معارك الكلاب وهناك رأى نفسه فلم يصدّق وهو يفكّر، أمّاه بندثيون ألفارادو انظري أين أنا من دونك، ساعديني، ولكن لا أحد تعرّف في الضوضاء على العينين المتوحشتين، الشفتين الواهنتين، اليد المرتخية المستقرّة على القلب، صوت والد الجدّ المتناوم

الذي كان وهو في بدلته الكتانية البيضاء، وتحت قبعة رئيس عمّال، يميل عبر الزجاج المحطّم كي يعلم أين تسكن مانويلا سانشيز حيائي، ملكة البؤساء، سيدتي، تلك التي في يدها وردة، متسائلاً بهلع كيف يمكنك أن تقطني ما بين هؤلاء الوحوش ذوي النظرات الشيطانية، والأنياب المعوجة المدمّاة في رهط من العواء الهارب والأذناب المحشورة بين القوائم، مذبحة كلاب تمزّق بعضها بالأنياب وسط الوحل، أين تختبئ رائحة السوس المتصاعدة من أنفاسك في هذا الصخب الدائم حيث ابنة القحبة هي أنت يا عذاب قلبي مع هؤلاء السكيرين المطرودين بضربات الجزمات على أقفيتهم من مسالخ المقاهي الرديئة، أين ذهبت لتضيعي في هذه النوبة التي لا نهاية لها من «المارانغوانغو» و«البوراندانغا» شراب المحبّة لاحتجاز الإنسان، ومن «الغوردولوبو[٧]» و«الماريجوانا» والنقانق الفظيعة المثقوبة مثل العضو والسانتافو الأسود للمومس التي ستفتح حولها فيما بعد مناقصة ضمن الهذيان المتواصل في الفردوس الأسطوري لآدم الأسود[٨]، و«خوانسيتو تروكوباي[٩]»، يا للفوضى، أين هو بيتك في هذا الخليط من الجدران المثلّمة ذات اللون الأصفر اليقطيني والدّعائم البنفسجيّة والنوافذ الخضراء بلون أنثى الببغاء والحواجز الزرقاء كصبغ الغسيل الأزرق والأعمدة الوردية مثل الوردة التي تحملها يدك، كم تكون الساعة في اعتقادك إذا كان هؤلاء المتضاربون على أقفيتهم يجهلون أوامري التي تريد أن تكون الساعة الآن الثالثة بعد الظهر وليس الثامنة مساء من مساء البارحة كما تبدو الحال في هذا الجحيم، أي واحدة أنت من بين هؤلاء النسوة اللواتي يهززن برؤوسهنّ في الحجرات الخالية وهن يتروحن بتنوراتهنّ، مفرجات ما بين سيقانهن على المقاعد

متنسمات بين أوراكهن من الحرارة بينما كان هو يسأل عبر فتحة البوابة أين تسكن مانويلا سانشيز غيظي، تلك التي لها فستان من زبد متلألئ بالألماس، وإكليل من الذهب الممتلئ وهبه لها في الذكرى الأولى لتتويجها، أعرفها، سيدي، قال أحدهم في الضجيج، وهي امرأة بدينة عجزاء تظنّ نفسها أنثى غوريلا، إنها تسكن هنا، سيدي، هنا، في بيت مثل سائر البيوت، فاقع وفق المراد مع آثار أقدام حديثة لأحد المارة وقد زلت به قدمه فوق بقايا براز كلب عند فسيفساء حاجز الآجر، بيت مسكين لفقيرة مختلفة تماماً عن مانويلا سانشيز وهي جالسة على الكرسي المنجّد الخاص بالحكام، يصعب التصديق بأنه بيتها، إلا أنه كان بيتها حقاً، أمّاه بندثيون ألفارادو هبيني القدرة على الدخول، أماه، إذ أنه بيتها حقاً، لقد جاب الحيّ عشر مرات لكي يستعيد أنفاسه، لقد دق على الباب ثلاث دقات بدت وكأنها على مفاصله، انتظر في ظل تعريشة الممشى الملتهب من دون أن يعرف إن كان الهواء العفن الذي يتنسّمه مفسداً بارتداد الشمس أم بالتلهّف، انتظر من دون أن يفكّر في حالته حتى اللحظة التي أدخلته فيها والدة مانويلا سانشيز إلى الفيء الندي حيث بقايا رائحة سمك مقلي في القاعة الكبيرة العارية تقريباً داخل المنزل الأكثر اتساعاً من الداخل منه من الخارج، تفحّص إطار حرمانه وهو جالس على منضدة جلديّة في حين كانت والدة مانويلا سانشيز توقظ هذه الأخيرة من قيلولتها، رأى الحيطان المتصدّعة مع آثار سيلان لأمطار قديمة، أريكة منقّبة، منضدتين أخريين بسطح جلدي، بيانو بلا أوتار في إحدى الزوايا، فقط، سحقاً إذاً، كل هذا العذاب من أجل امرأة غبيّة، قال متنهّداً عندما عادت والدة مانويلا سانشيز مع سلّة

أشغال وجلست كي تشتغل الدانتيلا، وفي الأثناء كانت مانويلا سانشيز ترتدي ثيابها وترتّب شعرها وتنتعل أجمل أحذيتها مهيئة استقبالاً لائقاً بالشيخ المفاجئ الذي كان يتساءل مرتبكاً أين أنت يا مانويلا سانشيز شقائي إذ أنني جئت أبحث عنك ولست أجدك في بيت الشحاذين هذا، أين أنت يا رائحة السوس في هذه العفونة لطبق الطعام البارد، أين هي وردتك، أين هو حبّك، أخرجيني من زنزانة الشكوك المدنّسة، كان يتنهّد، عندما رآها تظهر وسط إطار الباب كما صورة في الحلم معكوسة في مرآة حلم آخر بفستانها من قماش الايتمين الذي تكلّف الياردة الواحدة منه أربعة فلوس، وشعرها المرفوع بمشط على عجل، وحذائها المتشقّق، ورغم ذلك كانت أجمل امرأة متكبّرة على وجه الأرض بوردتها المضاءة في يدها، كانت رؤية فاتنة إلى حدّ أنه لم يكد يتمكن من استعادة رشده كي ينحني أمامها عندما حيّته برأس شامخ ليحفظ الله سموكم، جلست أمامه على الأريكة، هناك حيث لا يمكن أن يطالها فوحان رائحة الشيخوخة الكريهة، عندئذ تجرأتُ على النظر إليه في وجهه للمرة الأولى وأنا أدير جمرة وردتي بين إصبعيَّ حتى لا يلاحظ هلعي، تفحّصت من دون رحمة شفتيه الشبيهتين بشفتي الوطواط، وعينيه الصامتتين اللتين بدتا كأنهما تلمحانني من قاع مستنقع، وجلده الأملط كمدر من تراب مطروقة بزيت الحقد، أكثر امتداداً وسماكة لدى يده اليمنى المنهكة على ركبته والتي كانت تحمل الخاتم مع ختم الرئاسة، وبدلته الكتانية الضيّقة كما لو كانت خالية، وزوجيْ حذائه الشبيهين بحذاء الجثة، وفكره اللامرئي، سلطته الخفيّة، الشيخ الأكثر شيخوخة في العالم، الأكثر رهبة، الأكثر مقتاً والأقل شكوى في الوطن متروّحاً بقبّعة رئيس عمّال وهو

يتأملني صامتاً من ضفّته الأخرى، يا إلهي يا له من رجل مغتمّ، فكرت مذعورة، سألت ببرود أي خدمة لسموكم، فأجاب بنبرة ارتسامية جئت فقط أسألك معروفاً يا جلالة الملكة، وهو أن تستقبليني. وزارها بكل إخلاص يومياً لمدّة أشهر خلال ساعات اشتداد القيظ التي كان يزور فيها أمّه عادة، حتى يظنّ رجال الأمن أنّه في قصر الضاحية، وكان هو الوحيد الذي يجهل ما كان يعلمه الجميع بما في ذلك أنّ أفضل قنّاصة الجنرال رودريغو دي أغيلار، كانوا يحمونه متربصين على الشرفات والسطوح، وكانوا يعرقلون السير ويخلون بأخامص أسلحتهم الشوارع التي سيمرّ منها، ويمنعون المشي فيها حتى تبدو مقفرة من الساعة الثانية إلى الخامسة مع الأمر بقتل أي شخص يحاول الظهور من إحدى الشرفات، إلا أن الأقل تطفّلاً كانوا يتدبرون أمرهم لرصد المرور الخاطف لسيارة الليموزين الرئاسية المطلية على هيئة تاكسي وفيها الشيخ القائظ المتنكّر في زي مدني بريء من الكتّان، كانوا يرون عليه شحوب اليتامى ومحيّاه المخدّد بفعل رؤيته لشروق أيام كثيرة ومن أثر البكاء خفية، هذا المحيا الذي أصبح الآن غير مكترث بالأثر الذي تحدثه يده على صدره، كانوا يرون الحيوان الصموت السابق لعهد الطوفان مخلّفاً وراءه سحابة من الأوهام انظروا إليه قلبه لم يعد يطيق هواء الشوارع الممنوعة المتيبس من الحرّ، وسرت ثرثرة واسعة وقوية حول أمراضه الغريبة بحيث تم التوصّل إلى حقيقة كونه لم يكن في بيت أمّه وإنما في الملجأ السرّي الأمين لـ مانويلا سانشيز تحت رقابة الأم الصارمة التي كانت تخيط من دون تنفّسٍ، ذلك أنه كان يشتري لها، هي بالذات، الماكنات البارعة التي كانت تحزن بندثيون ألفارادو حزناً شديداً، وكان يحاول جذبها بأعاجيب

الإبر الممغنطة، وعواصف ثلج يناير المحاصر بضاغطات الورق الصوانية، وبأدوات الفلكيين والصيادلة، وبطابعات الوشم وآلات ضغط السوائل وتوقيت الموسيقى و«الجيرسكوبات» التي يواصل شراءها ممّن يرغب في بيعها له رغم رأي أمه ورغم بخله الشديد، وذلك رغبة منه في اللعب بها قرب مانويلا سانشيز، فكان يلصق بأذنها الصدفة الوطنيّة التي لا تحتوي على ضجيج البحر وإنما على «المارشات» العسكرية التي تخدم نظامه، ويدني شعلة عود الكبريت من ميزان الحرارة حتى تري ما أفكر به في أعماقي وهو يعلو وينزل، يتأمل مانويلا سانشيز من دون أن يطلب منها شيئاً، من دون أن يعبر لها عن نواياه، غير أنه يغدق عليها بهداياه الجنونية في صمت محاولاً أن يقول لها بواسطة تلك الهدايا ما لم يتجرأ على قوله، وهو الذي لم يتعوّد على إظهار رغباته الأكثر حميمية إلا عبر الرموز المرئية لسطوته اللامحدودة، كما في ذكرى ميلاد مانويلا سانشيز حين طلب منها أن تفتح النافذة، فكان أن فعلت ذلك، ثم مكثت متسمّرة من الرعب عندما شاهدت كيف حوّلوا حارتي الفقيرة، حارة معارك الكلاب، شاهدت بيوت الخشب الأبيض والكلل الناموسيّة على شبابيكها والأزهار في شرفاتها، مع مروج زرقاء مزودة بنافورات مياه مدوّمة وطواويس وروائح مبيدات باردة، نسخة دنيئة طبق الأصل لمقر إقامة ضباط الاحتلال تمّ استنساخها من دون ضجّة تحت جنح الظلام، لقد خنقت الكلاب، وتم طرد الساكنين القدامى من بيوتهم إذ ليس من حقهم أن يكونوا جيراناً للملكة وأرسلوا ليتعفّنوا في مزبلة أخرى، وهكذا تمّ بناء حي مانويلا سانشيز الجديد بعد ليال سريّة عديدة حتى تري من نافذتك يوم عيدك، إنني أهبك إياه، يا ملكتي، كي تتمتّعي بسنوات

طويلة من السعادة، ولكي نرى إن كانت أبّهة السلطة هذه ستنجح في تغيير لباقتك العنيدة، لا تقترب، أناشد سموك، إن أمي تراقبنا إنها تمسك بزمام عفافي، وكان هو يختنق في رغباته، ويتآكل في غيظه ويبتلع في جرعات صغيرة، عصير «الغانابانا» المنعش الذي كانت تحضره له لتهدئة العطش، فيتحمّل وخز الثلج في صدغه كي لا تكتشفا عيوب الشيخوخة، لكي لا تحبّيني عن شفقة، بعد أن استنفد كل الحيل لكي يكون محبوباً عن حب، كانت تتركه وحيداً عندما أكون معك بحيث لم أعد قادراً على البقاء هنا، وأنا أموت رغبة في ملامستها أو حتّى ملامسة أنفاسها قبل أن يطير كبير الملائكة في البيت بحجمه القريب من حجم الإنسان ويدق ساعة موتي، فكان يشرب جرعة أخيرة في زيارته وهو يرتب الألعاب في علبها الأصلية خوفاً من أن تقرضها لك سوسة الخشب البحريّة، فقط دقيقة واحدة، يا ملكتي، وكان ينهض حتى الغد، حياة بكاملها، يا لها من كلبة، لم تُبْقِ له سوى لحظة لكي يلقي بنظرة على الفتاة المتعذّر لمسها والتي ظلت بلا حراك لدى مرور الملاك ووردتها الميتة على صدرها بينما هو يخرج، متسلّلاً بين الظلال الأولى محاولاً أن يخفي خجلاً كان الجميع في الشارع يتحدّثون عنه وكانت تنشره أغنية مهملة معروفة من قبل في البلاد بأسرها من دون أن يعرفها محركها الأول، وحتى الببغاوات كانت تنشدها في الباحات، تنحّيْن أيتها النساء الطيبات ها هو ذا الجنرال يده على قلبه وهو يبكي بغزارة، انظرن إليه عاجزاً ولكنه بسلطته، يحكم نائماً، وفوق ذلك جرحه لا يندمل، هذه اللازمة حفظتها الببغاوات البريّة نقلاً عن الببغارات السّجينة، وحفظتها إناث الببغاء وطيور القيق، ثم نقلتها الأسراب إلى ما وراء حدود مملكة

سأمه الشاسعة، وتحت كل سماوات الوطن كان يمكن مع حلول المساء سماع هذا الصوت الجماعي للجماعات الهاربة التي كانت تغنّي هو ذا جنرال حبّي الذي يخرج من فمه الخرا ويصدر القوانين من المؤخرة، أغنية لا نهاية لها، كان كل واحد، بما في ذلك الببغاوات، يضيف إليها مقاطع للسخرية من رجال الأمن الذين كانوا يحاولون إلقاء القبض عليها، وكان الجنود المستنفرون يسيرون في دوريات، ويقتلعون الألواح من باحات المنازل ويطلقون النار من بنادقهم على الببغاوات المخرّبة وهي فوق مجاثمها، ويرمون بكميات من إناث الببغاء الحية للكلاب، ويعلنون حالة الحصار محاولين استئصال الأغنية اللّدودة، حتى لا يكتشف أحدٌ ما يعرفه كل الناس عن كونه كان يتسلل مثل الهارب تحت جناح المساء عبر أبواب الخدمات الرئاسية، فيخترق المطابخ ويتوارى في دخان روث الحجرات الخاصة حتى الساعة الرابعة من صبيحة الغد، يا ملكتي، حتى كل الأيام في الساعة نفسها عندما يصل إلى بيت مانويلا سانشيز وهو محمل بالهدايا الغريبة إلى الحد الذي توجّب معه مصادرة البيوت المجاورة وهدم الحيطان المشتركة للتمكن من إيداعها، والقاعة الكبيرة نفسها تحوّلت إلى مرآب شاسع ومعتم يضمّ عدداً لا يحصى من الساعات العائدة إلى كل العصور، فونوغرافات من شتّى الأنواع ابتداء من الغراموفون ذي الأسطوانات حتى تلك المزوّدة بسجاف ذي مرآة، عدد عديد من آلات الخياطة ذات المقبض أو الدواسة أو المحرّك، كانت هناك غرف بكاملها تفيض مقاييس «غلفانية»، ومجموعات عقاقير آسيوية، ومخابر مداواة طبيعية وتربية بدنية، وأدوات للتنجيم ولضبط اللغة وللعلوم الطبيعية، وعالم كامل من الدّمى مع محركات خفيّة تجعلها تقلد

الإنسان، غرف موصدة حيث لم يكن أحد ليدخل ولو للتنظيف إذ أن كل شيء ظل على حالته كما تم وضعه لدى وصوله، ولم يكن أحدٌ يرغب في الحديث حول ذلك، وخاصة مانويلا سانشيز التي لم تعد ترغب في معرفة أي شيء عن الحياة منذ ذلك السبت الأسود يوم تم تنصيبي ملكة على بؤسي، لقد انتهى العالم بالنسبة لي ذلك المساء، مات مريدوها القدامى واحداً بعد الآخر وهَناً أو بأمراض وهمية، واختفت صديقاتها من دون أن يتركن أثراً، أما هي فقد نُقلت مع بيتها إلى حي يقطنه أناس مجهولون، فظلت هناك وحيدة، مراقبة في أبسط نواياها، سجينة في شرك القدر الذي لم تكن فيه قادرة على قول لا ولا حتى على قول نعم لهذا المريد البغيض الذي كان يحاصرها بحبّه، حبّ الشيخ الذي لا يستحق سوى مستشفى مجانين، والذي كان يتأملها بنوع من الذهول التوقيري متروّحاً بقبّعته البيضاء، مبلّلاً بالعرق، بعيداً عن نفسه ذاتها إلى حدّ أنها تساءلت أيراني حقّاً أم أن ذلك ليس سوى رؤية الهلع، لقد رأته يترنح في وضح النهار، لقد رأته يمضغ عصير الفواكه، لقد رأته يترنّح نائماً والكأس في يده وهو على أريكة السوحر في ساعة كان فيها أزيز الزيزان النحاسي يثقل كثافة الظلال في القاعة، رأته يشخر، آ... آ... سموكم، تقول له، فيستيقظ مذعوراً مهمهماً كلا كلا، يا ملكتي، لم أكن نائماً، كنت مطبق الجفنين فقط، من دون أن ينتبه إلى أنها سحبت منه كأسه حتى لا يقع أثناء نومه، لقد ألهته بحيل بارعة حتى ذلك المساء العجيب عندما أقبل مختنقاً تحت تأثير النبأ اليوم جئتك بأجمل هدية في الكون، أعجوبة سماوية ستمرّ هذه الليلة في الساعة الحادية عشرة وستّ دقائق حتى تشاهديها، يا ملكتي، فقط لكي تشاهديها،

وكان الأمر يتعلق بالنجم المذنَّب. كان في ذلك أحد أكبر تواريخ خيبتنا، إذ كانت هناك منذ زمن طويل شائعة من بين شائعات أخرى عديدة، تقول بأن توقُيت حياته لم يعد خاضعاً لقوانين زمن البشر وإنما لدورات النجم المذنّب، وإنه ولد ليشاهده مرّة واحدة لا مرتين رغم تنبؤات متملقيه المتعجرفة لذلك انتظرنا كما ينتظر المرء تاريخ مولده تلك الليلة القرنية من ليالي (نوفمبر) حيث تم تحضير موسيقى الحبور، أجراس الفرح، مفرقعات الأعياد التي لأوّل مرّة طيلة قرن لن تتفرقع لتمجيد أمجاده وإنما لانتظار الإحدى عشرة دقّة معدنية التي من شأنها أن تدل على خاتمة حياته، الاحتفال بحدث سماوي كان ينتظره على شرفة بيت مانويلا سانشيز، جالساً بينها وبين أمها، متنفّساً بقوّة حتى لا يتم الانتباه إلى اضطراب قلبه تحت سماء مرتعدة من الشؤم، شافطاً لأول مرة أنفاس مانويلا سانشيز الليلية، كثافة تقلباتها، وهواءها الطلق، اكتشف في الأفق طبول اللعنة التي كانت تتقدم للقاء المصيبة، سمع انتحابات نائية، ضجيج الرواسب البركانية للحشود التي كانت تخرّ من الرعب أمام مخلوق غريب عن سلطته وقد تجاوز، وعليه أن يتجاوز أيضاً، سنيَّ عمره، أحسّ بثقل الزمن، تألم لحظة من بؤس أن يكون فانياً، عندئذ رآه، إنه هو، قال، وكان هو فعلاً، إذ كان يعرف، لقد رآه لدى مروره نحو الطرف الآخر من الكون، هو ذاته، يا ملكتي، أكثر قدماً من العالم، ميدوزا النور الأليمة في عظمة السماء التي ترتفع في كل شبر من مدارها مليون سنة نحو مصدرها، سمعوا صليل أسجاف الورق القصديري، شاهدوا وجهه المتلف، عيونه المغمورة بالدموع، علامات السمّ المتجمّد في جمّته المذنّبة المشعثة برياح الفضاء والتي كانت تترك على

العالم سحابة الغبار المشع ببقايا فلكيّة وبأكثر من فجر تأخّر بسبب أقمار من القطران والرماد المتأتي من فوهات المحيطات السابقة لمنابت الزمن الأرضي، انظري إليه، يا ملكتي، همهم، انظري إليه جيداً، إذ أننا لن نراه مرّة أخرى قبل قرن، رسمت إشارة الصليب مرتاعة، وبدت أكثر جمالاً من أي وقت تحت ألق فوسفور النجم المذنّب، ورأسها مثلّج بذلك الرذاذ النّاعم من الأنقاض النجمية والرسابة السماوية، عندئذ حصل الحدث التاريخي، أمّاه بندثيون ألفارادو، عندئذ مدّت مانويلا سانشيز -وقد رأت هاوية الخلود في السماء وحاولت التشبث بالحياة- مدّت يدها في الفراغ فلم تجد من مرتكز، سوى اليد غير المرغوب فيها والتي تحمل الخاتم الرئاسي، اليد الكاسرة، الساخنة، الناعمة والمطبوخة بنار بطيئة في رماد السلطة الساخن. كانت هناك قلّة قليلة من القوم من شأنها أن تتأثر بالمرور التوراتي لميدوزا الصفاء التي أفزعت أيائل السماء وبخّرت الوطن بغبار مشعّ من الأنقاض النجميّة، ذلك أن أكثرنا جحوداً كان يترصّد هذا الموت الضخم الذي كان من شأنه أن يحطّم المبادئ المسيحية ويقيم أصول الوصية الثالثة، انتظرنا سدى حتى بداية الصباح، ثم عدنا إلى بيوتنا وقد أرهقنا الانتظار أكثر مما أرهقنا عدم النوم في شوارع نهاية الاحتفال حيث كانت نساء الفجر يكنسن رواسب نفايات النجم المذنب السماوية، وحتى ذلك الوقت لم نسلّم بأنه لم يحدث أي شيء، بالعكس، لقد سلّمنا بأننا كنا ضحايا خدعة تاريخية جديدة، ذلك أن الصحف الرسمية أعلنت بأن مرور النجم المذنّب كان نصراً للنظام على قوى الشرّ، ولقد استغلّت الفرصة لتكذيب الشائعات حول الأمراض الغريبة للرجل الحاكم بتمجيد الإثباتات التي لا نظير لها على حيويته،

فتمّ نشر تبليغ احتفالي عبّر فيه عن قراري السامي الفريد بأن أكون في منصبي وفي خدمة الوطن عندما يعود النجم المذنب ليمر من جديد، وعلى العكس من ذلك فقد استمع إلى الموسيقى وإلى السهام الناريّة باعتبارها عناصر دخيلة على نظامه، واستمع بلا تأثر إلى هتافات الحشد المتجمّع في ساحة الأسلحة مع رايات كبيرة المجد الأبدي لوليّ نعمة الوطن الذي ينبغي أن يعيش كي يشهد، كان يهزأ كل الهزء بمصاعب الحكومة ويعهد بسلطاته إلى موظّفين من الدرجة الثالثة، ظلت ذكرى يد الجمر، يد مانويلا سانشيز في يده تعذبه، فكان يحلم بأن يعيش تلك اللحظة من السعادة حتى ولو توجّب على الطبيعة أن تتخلّى عن قوانينها وعلى الكون أن يخرب، كانت رغبته في ذلك قوية بحيث انتهى إلى أن توسل إلى فلكييه أن يخترعوا له نجماً مذنّباً من أسهم ناريّة، نيزكاً، تنّيناً من شرر، وباختصار جهازاً فلكياً مرعباً إلى حدّ كفيل بإحداث دوار من الخلود لدى امرأة جميلة، إلا أن الشيء الوحيد الذي تمكّنوا من بلوغه بعد حساباتهم كان كسوفاً كاملاً للشمس يوم الأربعاء من الأسبوع التالي في الساعة الرابعة بعد الظهر سيدي الجنرال، فقبل بذلك، موافق، وكانت ليلة حقيقية في وضح النهار بحيث لمعت النجوم، وذبلت الزهور، وقفز الدجاج إلى مجاثمه، أما الحيوانات ذات الغرائز النذيرة الفائقة فقد ظلت مأخوذة، في حين كان هو يشفط نَفَس مانويلا سانشيز الغسقي الذي كان يتحول إلى نفس ليليّ كلّما ذوت الوردة في يدها المهتوكة بالظلال، انظري، يا ملكتي، قال لها، إنه كسوفك الخاص، إلا أن مانويلا سانشيز لم تجب، لم تلمس يده، لم تكن حتى تتنفّس، كانت تبدو غير حقيقية إلى حدّ أنه لم يقدر على مقاومة الرغبة، ومدّ يده

في العتمة ليلمس يدها، لكنه لم يجدها، بحث عنها بأطراف أصابعه في الموضع الذي ارتفعت منه رائحتها، لكنه لم يجدها أيضاً، واصل البحث عنها بيديه الاثنتين في البيت الشاسع، سابحاً بعينيه المفتوحتين، عيني السائر في نومه عبر العتمات، متسائلاً بألم أين أنت يا مانويلا سانشيز بؤسي أبحث عنك ولا أجدك في ليلة كسوفك التعيسة، أين هي يدك القاسية، أين هي وردتك، كان يسبح مثل غوّاص تائه في مستنقع مياه غير مرئية مع غرف يطفو فيها كركند المقاييس الغلفانية ما قبل التاريخي، سرطان الساعات الموسيقية، سرطان أنوالك الوهمية، وبالمقابل لم يكن ليجد رائحة سوس أنفاسك، وكلّما تجدّدت ظلال هذه الليلة الزائلة كان نور الحقيقة يضيء في روحه، أحس أنه أكثر شيخوخة من الله في غبش الساعة السادسة من ذلك الفجر المسائي في البيت المقفر، أحسّ أنه أكثر حزناً، أكثر وحدة منه في أي وقت في العزلة الأبدية لهذا العالم من دونك، ملكتي، ضاعت إلى الأبد في لغز الكسوف، إلى الأبد حقاً، إذ أنه فيما بعد وطيلة أعوام حكمه الطويلة لم يجد أبداً مانويلا سانشيز ضياعي في متاهة بيتها، لقد كسفت مع الكسوف سيدي الجنرال، لقد شوهدت، قيل له، في مرقص شعبي في بورتوريكو، هناك حيث قتلوا «إيلينا» سيدي الجنرال، غير أنها لم تكن هي، شوهدت تشارك في المعرض ليلة Papa Montero, Zumba, canallay rum-breo[١٠] غير أنها لم تكن هي، شوهدت ترقص الـ«التيكويكويتاك» في «بارلوفنتو» على نغمة «المنجم»، و«الكومبيامبا» في «أراكاتاكا»، و«التامبوريتو» في بنما على نغمة الريح الجميلة، غير أنها لم تكن هي، أيضاً سيدي الجنرال، لقد ذهبت بعيداً جداً، وإذا كان لم يستسلم إلى نزوة الموت فإن ذلك لا يعني أن الحنق هو ما كان ينقصه من أجل الموت، وإنما لأنه

يعلم بأنه محكوم نهائياً بعدم الموت حبّاً، لقد أدرك ذلك منذ أحد المساءات إبان بدايات امبراطوريته عندما استشار إحدى العرافات لكي تقرأ له في مياه إحدى الجفنات مفاتيح القدر التي لم تكن مكتوبة على كف يده، ولا في أوراق اللعب، ولا في تفل القهوة، ولا حتى في أي شيء كان، وإنما في مرآة المياه المنذرة حيث رأى نفسه بنفسه ميتاً بميتته الجميلة أثناء نومه في المكتب المجاور لقاعة الاجتماعات، مضطجعاً على بطنه فوق الأرض مثلما نام منذ ولادته كل ليالي حياته، في بزّته الكتانية الخالية من الشارات، مع لفافات رجليه ومهمازه الذهبي، ويده اليمنى منثنية تحت رأسه على هيئة وسادة، في عمر غير محدّد، ما بين مائة وسبعة أعوام ومائتين واثنين وثلاثين عاماً.

الهوامش:

١- مقماق : المتكلم كأن صوته يخرج من بطنه .

٢- نسبة إلى الفريجيين الذين أقاموا منذ القرن ١٢ ق .م . في المنطقة الشمالية الغربية من آسيا الصغرى ، وكانوا مشهورين بعبادة «سيبيل» آلهة الخصب .

٣- سويتون Suetonio مؤرخ لاتيني وُلد حوالي ٦٩ بعد الميلاد وتوفي حوالي ١٢٥ ب .م -وهو مؤلف كتاب القياصرة الاثني عشر (من قيصر إلى دوميسيان) .

٤- الشاب الوسيم .

٥- نشيد الثورة المكسيكية .

٦- جنس حيوانات درعاء من آكلات النّمل .

٧- عرق قصب السكّر .

٨- شخصية في أحياء السود في مدينة بارانكويلا الكولومبية ، مشهور بقصصه ومفاخره الجنسيّة .

٩- بطل «غواراشا» كوبيّة .

١٠- مطلع قصيدة للشاعر الكوبي نيكولا غيلين .



تم اكتشافه على هذه الحال عشية خريفه، عندما كانت الجثة في الواقع لباتريشيو أراغونيس، ثم اكتشف من جديد فيما بعد على الحال نفسها بعد سنين عدّة في زمان كان مفعماً بالشكوك بحيث لم يكن أحد قادراً على التحقق من أن هذا الجسد الذي قرضته العقبان والذي كان مغطّى بطفيليات أعماق البحر هو جسده حقاً. وفي اليد التي تحولت إلى قطعة نقانق من دم أسود بفعل التفسّخ لم تبق أية علامة تسمح بالتأكيد على أن هذه اليد هي نفسها التي استقرت ذات يوم على قلب ممزّق بازدراء فتاة غير محتملة في أزمنة الضجيج، ولم نجد كذلك أدنى دليل حي نتوصل به إلى إثبات هويته من دون الوقوع في الخطأ. وبطبيعة الحال، لم نفاجأ بذلك نظراً لكون عناصر الشك حول وجوده لم تكن منعدمة حتى في زمن قمة مجده، خاصة وأن قتلته المأجورين بالذات لم تكن لديهم أية معلومات دقيقة حول عمره في ذلك العصر من الفوضى حيث كان يبدو عمره ثمانين عاماً في اليانصيب الخيري، وستّين عاماً في الاجتماعات المدنية وأقل من أربعين عاماً في المهرجانات العامة. ولقد روى السفير بالمرستون، أحد آخر الدبلوماسيين الذين قدموا له أوراق اعتمادهم، في مذكراته أنه كان من المستحيل تصوّر شيخوخة متقدّمة مثل شيخوخته ولا حالة فوضى وهجر أكبر من حالة ذلك المقر الرئاسي حيث توجب عليه أن يشق طريقه عبر مزبلة من الأوراق الممزقة، وبراز

الحيوانات وبقايا خبيصة الكلاب النائمة في الأروقة، ولم يكن أحد في دوائر الضرائب وفي المكاتب ليفيدني فلجأت مضطراً إلى البرصى والمشلولين الذين احتلّوا الغرف الخاصة الأولى والذين دلّوني على طريق قاعة الاجتماعات حيث كان الدجاج يلتقط الحبّ الوهمي في السجادات وحيث كانت بقرة تمزّق رسم مطران لكي تأكله، رأيته وفهمت للتو أنه شديد الصمم ليس فقط لأنني كنت أسأله عن شيء فيجيبني عن شيء آخر وإنما أيضاً لأنه كان يشتكي من أن الطيور لا تشدو في حين كان يستحيل التنفس تقريباً في ذلك التنافر الصوتي كما الغابة في بداية الصباح، ثم قاطع فجأة حفلة تقديم أوراق الاعتماد وبدا متألق النظر ويده على شكل بوق صغير خلف أذنه ليدلني على سهل الغبار حيث كان البحر يقيم سابقاً قائلاً لي بصوت من شأنه أن يوقظ الموتى، انصتْ إلى هذا الركض السريع للبغال، أنصت يا عزيزي ستيتسون، إنه البحر يعود. كان من الصعب الافتراض أن هذا الشيخ المتعذّر إصلاحه هو الرجل المسيحي الذي كان في بداية حكمه يظهر في القرى خلال أقل الأوقات توقّعاً وليس معه من المرافقين سوى رجل قروي حافي القدمين مسلّح بساطور لقطع القصب ومجموعة صغيرة من النوّاب والشيوخ كان يعيّنهم بإشارة من إصبعه حسب مزاجه الهضمي، فكان يستخبر حول غلّة الحصاد، وصحة الحيوانات وتصرّف القوم، ويجلس في كرسي هزّاز مجدول من النباتات المعترشة، تحت ظل أشجار المنغا في الساحة متروّحاً بقبّعته التي تشبه قبّعة رئيس عمّال، ورغم كونه كان يبدو نعساً تحت الحرّ فإنه لم يكن يغفل أية تفاصيل في الجدال الذي يخوضه مع الرجال والنساء الذين دعاهم حوله منادياً عليهم بأسمائهم العائلية والشخصية

كما لو كان يحتفظ في ذاكرته بكل الحالة المدنية ويسجلٍّ للأرقام والمشاكل في الأمّة جمعاء، وعلى هذا المنوال ناداني من دون أن يفتح عينيه، تعالي إلى هنا يا خاثنتنا موراليس، قال لي، احكي لي قليلاً ماذا جدّ بالنسبة لذلك الصبيّ الذي أمسك هو ذاته بخناقه في السنة الماضية كي يرغمه على ابتلاع قارورة من زيت الخروع، وأنت يا خوان بريتو، قال لي، كيف حال ثورك المعشِّر الذي داواه هو بنفسه بواسطة وصفات سحريّة لإسقاط الدود من أذنيه، وأنتِ، يا ماتيلدا بيرالتا، هيّا، ماذا تراك تُعطينني لو أعدت إليك زوجك المتهتك، بلى أعيده لك، مسحوباً من طوقه بحبل ومحذّراً من قبلي بأنه إذا عاد وهجر امرأته الشرعية من جديد فسوف أحكم عليه بأن يتعفن باقي أيام حياته تحت نير[1] صيني، ودائماً بهذا الحس السياسي نفسه تجاه اللحظة الحاضرة أمر أحد جزّاري المسالخ بأن يقطع يدي أمين خزانة سفيه متلف، وكان يقتلع الطماطم من البساتين الخاصة ويأكلها على أساس أنه خبير أمام مهندسيه الزراعيين قائلاً ينقص هذه التربة الكثير من روث حمار غير مخصيّ، فليوزّع ذلك على حساب الحكومة، كان يأمر، وكان يقاطع الموكب المدني كي يصرخ بي ميتاً من الضحك عبر النافذة، هاي لورنزا لوبيز ماذا عن آلة الخياطة التي أهداني إياها قبل عشرين عاماً، وكنت أنا أجيب لقد لفظت أنفاسها، سيدي الجنرال، تصوّر نحن والأشياء لسنا مجبولين لكي ندوم أبدياً، لكنه كان يردف بلى بلى العالم أبدي، ثم شرع يفكّ الماكنة بواسطة مفك براغٍ وقطّارة زيت غير مكترث للموكب الرسمي الذي ينتظره في وسط الشارع، كنّا أحياناً نلاحظ اليأس في لهاثه الشبيه بلهاث الثور وكان يتلطّخ بالزيت حتى عينيه، ولكنْ بعد أقل من

ثلاث ساعات بقليل تعود ماكنة الخياطة إلى دورانها مثل ماكنة جديدة تماماً، ولقد تمادى في الاهتمام إلى حدّ أنه في ذلك العصر لم يعد يوجد أي عائق في الحياة اليومية، ولو كان غير ذي شأن، لا يكتسي بالنسبة إليه الأهمية نفسها التي لأخطر شؤون الدولة، كان يعتقد بطيبة قلب أنه من الممكن توزيع السعادة ورشوة الموت بالمناورة التي يمتاز بها الجندي. كان من الصعب التسليم بأن ذلك الشيخ الذي لا يمكن إصلاحه هو بقية إنسان كانت سلطته من القوة بحيث سأل ذات يوم كم الساعة الآن، الساعة التي تريدها سيدي الجنرال أجابوه، وكان ذلك صحيحاً، إذ أنه لم يكن يحوّر لحظات النهار فقط من أجل حسن سير أعماله بل كان أيضاً يعدّل تواريخ الأعياد المتوجبة عيناً كي يتمكن من التطواف من عيد شعبي إلى آخر في سائر أنحاء البلاد يرافقه ظل الهندي الحافي القدمين وبعض الأعيان الكئيبين وعدد من سلال القصب الملأى بديوك زاهية كان يصارعها مع أشرس ديوك المنطقة، فيحدد قيمة الرهانات بنفسه، ويجعل المتفرّجين في حلبة صراع الديكة يرتجفون ضحكاً إذ كنّا نشعر أننا مجبرون جميعاً على الضحك عندما يقهقه مثل صندوق ضخم غريب يغطّي اللازمات الغنائية والمفرقعات، كنّا نتألم عندما يسكت، وننفجر بهتافات الانفراج عندما تصرع ديوكه ديوكنا المروّضة جيداً كي تخسر بحيث لم يخطئ أحد منها أبداً، ما عدا ذلك الديك القذر لـ ديونيزيو اغواران الذي أنهى انزعاج السلطة بهجوم فوري وناجح إلى حد أنه كان أوّل من تقدّم عبر الحلبة لمصافحة يد المنتصر، أنت فحل، قال له مبتهجاً، وشاكراً إذ أن أحدهم تمكن أخيراً من أن ينعم عليه بهزيمة لا أهمية لها، أنا مستعد لدفع الكثير كي أحصل على هذا البطل الأرجواني، قال له،

وأجابه ديونيزيو اغواران مرتجفاً إنه لك سيدي الجنرال وهذا أمر يشرّفني كلّ الشرف، ثم قفل راجعاً بين تصفيق الشعب والجذل وضجيج الموسيقى والمفرقعات مظهراً للجميع الديوك الستّة الأصيلة التي وهبها له مقابل ديكه الأحمر الذي لم يقهر، ورغم ذلك فقد انزوى في المساء نفسه في حجرته وابتَلع محتوى مطرة كاملة من عرق قصب السكر بمفرده ثم شنق نفسه بحبل من أرجوحة نومه، المسكين، كلا لم يكن يعي سلسلة المصائب المنزلية التي كان يحدثها ظهوره وهو جذل، ولا اصطفاف الموتى بطريقة اضطرارية والذين كان يتركهم إثر مروره، ولا الحكم الأبدي بزوال الحظوة على أتباعه الذين كان يعطيهم اسماً خاطئاً أمام قتلة مأجورين مستعجلين كانوا يفسّرون الخطأ على أنه إشارة لامبالاة مقصودة، كان يجوب البلاد بأسرها بمشية الأرمديل الغريبة، وسيل العرق الوحشي، واللحية البدائية، يظهر من دون سابق إعلان في المطابخ على هيئة جدّ عديم الجدوى فيملأ سكان البيت رعباً، ويغترف الماء من الجرّة بمغرفة الحساء، ويأكل من القدر ملتقطاً القطع بأصابعه، بكل مرح ومن دون أدنى تكلّف، فلا يخطر بباله أن البيت سيحمل إلى الأبد آثار زيارته، ولم تكن هيئته مستوحاة من حسابات سياسية ولا من حاجة إلى الحبّ كما كان الأمر في أزمنة أخرى كلا كان ذلك سلوكه الطبيعي عندما لم تكن السلطة بعد، ذلك المستنقع الموحل بلا ضفاف في عزّ خريفه، وإنما فيض من الحمّى كنا نراه ينبثق من ينابيعه الأولى، كان يكفي أن يشير ببنانه إلى الأشجار التي ينبغي أن تثمر والحيوانات التي ينبغي أن تكبر والرجال الذين ينبغي أن ينجحوا، لقد أمر بإلغاء المطر من الأماكن التي يعيق فيها المحصول وجعله ينزل في الأراضي الجافة، وهو ما حدث،

سيدي، لقد رأيته، بعينيّ رأيته، إذ أن أسطورته كانت قد بدأت قبل أن يعتقد هو ذاته بأنه سيد قوّته الوحيد، عندما كان لا يزال تحت رحمة نذر كوابيسه وتأويلاتها فيلغي فجأة سفراً في بدايته بعد سماعه لغناء الـ «بيغا» فوق رأسه، ويغيّر تاريخ خروجه إلى الناس لأن أمّه بندثيون ألفارادو وجدت محّيْن في بيضة واحدة، ويلغي موكب الشيوخ والأعيان الذين يرافقونه في كل مكان ويلقون عوضاً عنه الخطب التي لم يتجرّأ قط على إلقائها لأنه رأى نفسه في بيت كبير مقفر في الحلم محاطاً برجال شاحبين يرتدون سترات «لاوية» رمادية ويمزّقونه بسكاكين جزّار وهم يبتسمون، ويطاردونه مسعورين بحيث كان يرى أينما التفت شفرة جاهزة لتنقضّ على رأسه وعلى عينيه، رأى نفسه محاصراً مثل حيوان متوحّش بقتلة صامتين مبتسمين يتنافسون على المشاركة في القربان واللّعب في دمه، ورغم ذلك لم يكن يشعر بالحنق ولا بالخوف وإنما بانفراج عظيم يزداد عمقاً كلّما تقدّم في العمر، كان يحس نفسه خفيفاً ونقيّاً، إلى حد أنه كان يبتسم هو أيضاً في حين كانوا يقتلونه، كان يبتسم من أجلهم ومن أجله شخصياً في بهجة بيت الكوابيس الذي كانت جدرانه الكلسيّة تتلطّخ ببقع دمي، حتى اللحظة التي أصاب فيها واحد من أبنائه في الحلم ثنية فخذه التي كانت تخرج منها آخر أنفاسه، وعندئذ أخفى رأسه تحت غطائه المبلل بالدم حتى لا يتمكن أولئك الذين عجزوا عن معرفته حيّاً من التعرف إليه ميتاً وانهار منتفضاً من حشرجة احتضار حقيقي بحيث لم يقاوم رغبته الفوريّة في مكاشفة شريكي وزير الصحّة الذي انتهى بأن أذهله بهذا الكشف، سبق لمثل هذا الموت أن حدث مرّة واحدة في تاريخ الرجال سيدي الجنرال، وقرأ له المقطع في أحد

الكتب الكبيرة المصفرّة للجنرال لوتارو مونيوز، وكان الأمر كذلك تماماً، أمّاه، إلى حدّ أنه تذكر خلال القراءة أمراً نسيه عندما استيقظ، إذ عندما كانوا يقتلونه انفتحت كل نوافذ القصر فجأة من دون أن يتحرّك أي أثر للرّيح، كان عدد النوافذ في حلمه بعدد جراحه، ثلاثاً وعشرين، صدفة مهولة جاءت لتضاف في الأسبوع نفسه إلى إحدى غزوات القراصنة ضدّ مجلس الأعيان ومحكمة العدل أمام لامبالاة القوات المسلحة المتخاذلة، لقد استأصلوا البيت الجليل لعظماء ماضينا ومن الشرفة الرئاسية شوهدت ألسنة اللهب ترتفع متأخرة في الليل، أما هو فلم يتردد أمام النبأ سيدي الجنرال لم يتركوا حتى حجارة الأساس، ووعد باقتصاص نموذجي من المعتدين، الذين لم يظهر لهم أثر فيما بعد، ووعدنا ببناء نسخة أخرى مطابقة لمدفن عظماء الأمة الذي بقيت أنقاضه إلى أيامنا، ولم يفعل شيئاً لإخفاء تعويذة الحلم المشؤوم وإنما انتهز الفرصة لإلغاء الجهاز التشريعي والقضائي للجمهورية القديمة، وأغرق النوّاب والشيوخ والقضاة بالثروة والأمجاد إذ لم يعد في حاجة إليهم للتغطية مثلما كانت الحال في بداية عهده، فنفاهم إلى سفارات سعيدة نائية ولم يحتفظ في حاشيته إلا بالظلّ المتوحّد للهندي صاحب الساطور الذي لم يكن يفارقه وكان يذوق من أكله ومائه، ويشدّد الحراسة على الباب بينما كان هو يمكث عندي مغذياً إشاعة كونه عشيقي السري رغم أنه في الواقع كان يزورني مرتين في الشهر كي يستشير ورق «الباراخاس» طيلة تلك السنوات العديدة التي كان فيها لا يزال يظن نفسه فانياً، وكان ميّالاً إلى الشك والخطأ ويثق بالورق أكثر من ثقته بغريزته البدائية، فيصل دائماً مرتاعاً ومسنّاً كما في المرة الأولى عندما جلس أمامي، ومن دون

أن ينبس بكلمة واحدة مدّ لي يدَين بكفّين ناعمتين ومشدودتين مثل بطن ضفدع مسن لم أر قط مثلهما طيلة عمري الطويل في قراءة الأقدار الغريبة، وضعهما في وقت واحد على الطاولة مثل ورقتي استرحام صامتتين لمحكوم عليه، بدا لي حينئذ قلقاً ومتقزّزاً إلى حدّ أنني لم أتأثر بالكفين الجافتين قدر تأثري بكآبته الدائمة ووَهَن شفتيه، وقلْب العجوز الذي نخره الشك والذي كان يتعذّر علينا معرفة قدره ليس فقط في خطوط يديه وإنما في كل مصادر الكشف التي كانت بحوزتنا، إذ كان لا يكاد يمزّق الأوراق حتى تغدو آباراً عكرة، وكان ثفل القهوة يتشوّش في قعر الفنجان الذي شرب منه وكل ما له صلة بمستقبله وسعادته ونجاح مساعيه كان يتلاشى ليصبح أكثر نقاء كلّما تعلّق الأمر بقدر الناس الذين يعايشهم عن كثب أو عن بعد، وهكذا فقد رأينا أمّه بندثيون ألفارادو وهي تلوّن عصافير ذات أسماء غريبة وكانت متقدّمة في السن حتى أنها لا تكاد تميّز الألوان عبر هواء قليل الكثافة بفعل بخار نتن، يا للأم المسكينة، رأينا مدينتنا وقد اجتاحتها زوبعة عنيفة، رأينا رجلاً مقنّعاً باللون الأخضر وفي يده سيف فسأل عنه وقلبه منقبض في أي مكان من العالم تراه يوجد، فأجابه الورق بأنه في كلّ يوم ثلاثاء يكون بقربه أكثر منه في سائر أيام الأسبوع، آه آه قال، ثم سأل ما لون عينيه، فأجابه الورق بأن إحداهما بلون عصير قصب السكّر صفاء أما الأخرى فهي في الظلمات، آه آه قال، ثم سأل ما هي نوايا هذا الرجل، كانت تلك آخر مرّة كشفت له فيها عن حقيقة الورق حتى النهاية، إذ أنني أجبته بأن القناع الأخضر هو قناع الغدر والخيانة، آه آه قال، متشدّقاً بنبرة انتصار، أعرف من يكون، تبّاً، ولقد كان الكولونيل

نارشيزوميرافال، أحد مساعديه المقربين الذي أطلق من مسدسه رصاصة
في أذنه، بعد يومين، دونما توضيحات، المسكين، كان مصير الوطن ينظّم
إذاً على هذه الطريقة وكانت تنبؤات الورق تأتي قبل تاريخه عندما سمع
بوجود عرّافة لا مثيل لها تقرأ علامات الموت من دون التباس في مياه
الجفنات فذهب خفية ليبحث عنها عبر دروب البغال لا يرافقه سوى الملاك
ذي الساطور، ووجدها في كوخ على الجبل الصحراوي حيث كانت تعيش
مع بنت حفيدتها وهي أم لثلاثة أطفال ومتهيئة لوضع موروث رابع من
زوجها المتوفي قبل شهر، وجدها عاجزة ونصف عمياء داخل مخدع
معتم، ولكن عندما طلبت منه أن يضع يديه على مياه الجفنة شعت المياه
بصفاء داخلي هادئ وشفاف، ورأى نفسه، إنه هو تماماً، ممدّداً على وجهه
فوق الأرض، ببدلته الكتانية الخالية من الشارات، مع لفافتيه ومهمازه
الذهبي، فسأل في أي مكان أنا ممدّد، فأجابته المرأة وهي تتفحص المياه
الراكدة، في غرفة بحجم هذه، مع شيء يشبه مائدة عمل ومروحة
كهربائية ونافذة تفتح على البحر وجدران بيضاء عليها لوحات خيول
وعلم رسم عليه تنّين، آه آه أعاد القول، إذ لا شك أنه تمكن من معرفة
المكتب المجاور لقاعة الاجتماعات، عندئذ سأل وهل ذلك من أثر ضربة
أم بفعل مرض خبيث، فأجابته كلا، أنت نائم بلا ألم، آه آه قال، ثم سأل
مرتجفاً وإلى متى، فأجابته نم مرتاح البال لن يحدث شيء قبل أن تبلغ
عمري، مائة وسبع سنوات، ولكن أيضاً ليس بعد المائة وخمسة وعشرين
عاماً التي ستلي، آه آه قال، ثم اغتال العجوز في كوخها حتى لا يتمكن
أحد من معرفة الظروف التي سيموت فيها، خنقها بسير مهمازه الذهبي،
بلا ألم، بلا تنهّد، مثل جلاد متمرّس، رغم أنها كانت الكائن الوحيد

على هذه الأرض الذي منحه شرف الموت على يديه في السلم أو في الحرب، يا للمسكينة، ولم يعد يتذكر سجلّ أعماله الشائنة ليقلق ضميره طيلة ليالي خريف، بالعكس، فقد خدمه ذلك كحكاية مثالية بصدد ما كان ينبغي أن يكون ولم يكن، خصوصاً عندما كسفت مانويلا سانشيز مع الكسوف وأراد العودة إلى عزّ زمن همجيته كي يستأصل ألم هذا العار الذي يمزّق أحشاءه، كان يتمدد في أرجوحة نومه تحت جلاجل الريح في أشجار التمر الهندي لكي يفكّر في مانويلا سانشيز بحقد يشوش عليه نومه بينما قوات البرّ والبحر والجو تبحث عنها من دون أن تجد لها أثراً حتى التخوم البكر في صحراء ملح البارود، أين اختفيتِ إذاً يا للفوضى، كان يتساءل، وكانت آلام القلب تهزّ قبعته الملقاة على صدره، والغضب يسمّره من دون أن يستمع إلى إلحاح أمه التي كانت تحاول معرفة الحقيقة لماذا لا تتكلم منذ مساء الكسوف، لماذا لا تنظر إلا إلى داخلك، أما هو فما كان يجيب، لقد رحلت، سحقاً يا أمّاه، كان يجرّ قدميْ اليتيم مستهلكاً مرارته، مجروحاً في كبريائه بالكآبة الدائمة، هذه السخافات تحدث لي لأنني أصبحت عاجزاً، لم أعدْ سيد قدري كما في السابق، لأنني دخلت عند امرأة قذرة بإذن أمها وليس كما دخل مسكن المزرعة الندية الهادئة لـ فرانشيسكا لينيرو عندما كان لا يزال هو ذاته يمثل السلطة أمام الناس وليس باتريثيو أراغونيس، دخل دون أن يحرّك حتى مطرقة الباب حسب رغبته في حين كانت ساعة الحائط تدق الحادية عشرة، سمعت صوت المهماز الذهبي من شرفة الباحة وأدركت أن خطوات الرجل الخشبية هذه الملحة المتصلّفة على البلاط لا يمكن أن تكون سوى خطواته، شعرت بكامل قامته قبل أن أراه يلوح من فتحة باب الشرفة

الداخلية حيث كان طائر الكروان يغنّي الساعة الحادية عشرة ما بين أزهار الجيرانيوم الذهبية، وحيث كان طائر التّوربيال أيضاً يغني وهو نشوان برائحة الأسيتون المنتشرة من أعذاق الموز المعلّقة في مساميرها تحت التسقيفة الأمامية، كان ضوء ذلك الثلاثاء المشؤوم من شهر أغسطس يواصل انتشاره بين أوراق شجر الموز الجديدة في الفناء وجسم الأيّل الفتي الذي اصطاده زوجي بونثيو دازا وقتله في أوّل الصباح ثم تركه ينزف معلقاً من قوائمه قرب أقراط الموز المخطط يعسله الداخلي، رأيته أكبر حجماً وأكثر قتامة مما لو كان في حلم، بجزمتيه الموحلتين، وسترته الكاكي المبلّلة بالعرق، ولم يكن يحمل سلاحاً في وسطه غير أنه كان في حماية ظل هندي حافي القدمين كان ماكثاً بلا حراك خلفه ويده ماسكة بمقبض ساطوره، رأيت العينين اللّجوجتين، ويد الفتاة النائمة التي اقتلعت موزة من أقرب قرط ثم أكلتها بلهفة، وأكلت أخرى ثم أخرى، ودائماً بلهفة وبصخب حنفيّة، من دون أن يغض بصره عن فرانشيسكا لينيرو المثيرة التي كانت تنظر إليه من دون أن تعرف ماذا تفعل ولم تتخلص بعد من خجل العروس الحديثة العهد إذ أنه جاء يرضي نزوته وهو الوحيد القادر على رفضها، وفي الأثناء أحسست بأنفاس زوجي المرتبكة وقد جلس بجانبي، فمكثنا جامديْن يداً في يد بقلبينا المرتاعين على اتفاق تحت النظرات الثابتة للشيخ الملغّز الذي انتصب على مقربة خطوتين من الباب وهو يأكل الموزة تلو الموزة ويرمي بالقشور في الفناء من على كتفه، من دون أن تطرف له عين منذ أن بدأ يتفحصني، فقط عندما أتى على قرط الموز بأكمله وعندما ارتفع كدس كامل من قشور الموز قرب الأيل الميت، أشار إلى الهندي الحافي القدمين وأمر بونثيو دازا

أن يذهب لحظة مع شريكي الرجل صاحب الساطور الذي له أمر سيرتّبه معك، أما أنا فكنت أحتضر من الخوف غير أنني كنت أحتفظ بمقدارٍ كاف من الصفاء لأدرك أن خشبة خلاصي الوحيدة هي تركه يفعل بي ما يشاء على الطاولة الكبيرة، وأكثر من ذلك، فقد ساعدته على خلع ثيابي الداخلية بعد أن كاد يخنق أنفاسي برائحة الأمونياك، ومزّق سروالي الداخلي بضربة من قدمه، وكانت أصابعه تبحث عني حيث لم أكن أوجد في حين كنت أفكّر مذهولة يا يسوع المسيح أيّة فضيحة، أي حظ عاثر، إذ أنني في ذلك الصباح لم أجد متسعاً من الوقت كي أغتسل بسبب الأيّل، وباختصار فقد أرضى نزوته بعد عدة أشهر من الحصار، إلا أنه فعل ذلك بطريقة سريعة وسيّئة، كما لو كان أكبر سنّاً أو صغيراً جداً في السن، كان مضطرباً بحيث لم أكد أنتبه إلى أنه كان يأخذني بأقصى ما يقدر عليه، وفي النهاية شرع يبكي بدموع بول حارّ ليتيم كبير متوحّد، كان يبكي بحزن إلى حد أنني لم أشفق عليه فقط بل على كل الرجال في الأرض، وأخذت أحك له رأسه بأناملي وأعزّيه لا شيء يهم سيدي الجنرال، الحياة طويلة، وفي الأثناء كان الرجل صاحب الساطور يأخذ بونثيو دازا بين أشجار الموز ويمزّقه إرباً إرباً بحيث تعذّر تجميع أجزاء جسمه التي بعثرتها الخنازير، المسكين، لكن لم يكن هناك من حلّ آخر، أوضح قائلاً، إذ أنه كان سينقلب عدواً لدوداً مدى الحياة، عدواً قاتلاً. كانت تلك صوراً من سلطته تأتيه من البعيد فتثير كآبته، آه لكم أذابوا ملح سطوته حتى لم يعد قادراً على طرد أذى الكسوف، كانت شبكة من المرارة السوداء تجتاحه وهو عند طاولة الدومينو أمام رباطة الجأش المتجمدة لرودريغو دي أغيلار العسكري الوحيد الذي عهد

إليـه بحـيـاته منذ أن بلّر تسـمم الدم بـالبـول كل مـفـاصل الملاك صـاحب الساطور، ورغم ذلك فـقد كان يتسـاءل عمّا إذا كان هذا المقدار من الثقة والسلطة المعهود بهما إلى رجل واحد هو السبب في شقائه، وعمّا إذا كان شريكي مدى الحياة هو الذي حوله إلى ثور محاولاً تجريده من جلده الطبيعي، جلد زعيم القرية، كي ينزله إلى مستوى رجل عاجز في قصر، وغير قادر على صياغة أي أمر إن لم يكن قد تم تنفيذه وأيضاً بسبب هذ الابتكار السيئ المتعلق بإبراز شخصية ليست شخصيته أمام الملأ عندما كان هندي الأزمنة السعيدة الحافي القدمين كفيلاً وحده بفتح ممر عبر الحشود بواسطة ساطوره صارخاً تنحوا جانباً أيها الأوغاد اتركوا الزعيم يمرّ، من دون التوصل إلى تمييز الوطنيين الجيدين من المنافقين في تلك العاصفة من صيحات الترحيب إذ أننا لم نكن قد اكتشفنا بعد أن الأكثر شبهة هم الذين كانوا يصرخون بأصوات أعلى، عاش الفحل، عاش الجنرال، أما الآن فقد تبين عجز أسلحة السلطة عن إيجاد الملكة البائسة التي فرّت من سور رغباته رغم مناعته، سحقاً إذاً، وترك أحجار الدومينو تتدحرج على الأرض، وكان ينقطع عن اللعب في أشده ومن دون مبرر واضح مكتئباً من رؤيا مفاجئة تقول إن الجميع ينتهون بأن يجدوا مكاناً لهم في هذا العالم، الجميع ما عداه هو، مدركاً للمرّة الأولى أن العَرَق كان يبلل قميصه في ساعة غير مبرّرة، شاعراً بنتونة الجيف التي كانت تتصاعد مع بخار البحر وبعزف الناي الهادئ من خصيته التي ضايقتها رطوبة الحرّ، نعم إنه الحرّ، كان يخاطب نفسه وهو قليل الاقتناع، محاولاً من نافذته أن يتقرّى الصفاء الغريب في المدينة الجامدة التي يبدو أن العناصر الحيّة الوحيدة فيها هي أسراب العقبان التي كانت

تفرّ مذعورة من أفاريز ملجأ العجزة، والأعمى في ساحة الأسلحة الذي أدرك الحضور المرتبك للشيخ عبر نافذة البيت المدني وأشار إليه بعكازه بإشارة لجوجة، وصرح له بشيء لم يتمكن من فهمه وأوّله على أنه علامة إضافية لهذا الشعور المزعج بأن حدثاً ما سيحصل، نعم كرّر لنفسه للمرّة الثانية خلال ذلك الاثنين المرهق، إنها الحرارة، ثم نام فوراً، مهدهداً بنقر المطر على زجاج ضبابيّ يصفّي نوماً عكراً، غير أنه استيقظ مذعوراً، هلعاً، مَنْ هناك، صرخ كان ذلك قلبه الذي أنهكه صمت الديوك الغريب عند طلوع النهار، أحس بأن سفينة الكون قد رست في ميناء أثناء نومه، كان يسبح في تدفق بخاري، أما حيوانات الأرض والسماء التي لها القدرة على استشفاف الموت بعيداً عن التنبؤات البلهاء والعلوم الإنسانية الأكثر تقدماً فقد أخرسها الرعب، اختفى الهواء، وغيّر الزمان وجهته، أحسّ وهو يقعي على مؤخرته، أن قلبه يزداد انتفاخاً مع كل خفقة، وأن طبلتيْ أذنيه تنفجران، ومادّة غالية تنحدر من منخريْه، إنه الموت، فكر، كانت بدلته ملطّخة بالدم، وقبل أن يعي بأنْ كلا سيدي الجنرال، إنها الزوبعة الأكثر تخريباً من بين تلك التي جزّأت مملكة الكاريبي الملتحمة إلى سلسلة من الجزر. كانت كارثة خفيّة إلى حدّ أن غريزته المنذرة كانت الوحيدة التي اكتشفتها قبل أن يجنّ جنون الكلاب والدجاج، وكانت مباغتة إلى درجة كاد يتعذّر العثور لها على اسم امرأة في جلبة الضباط المرتاعين الذين جاؤوا ليعلموني، الآن أصبح الأمر مؤكداً سيدي الجنرال، هذه البلاد هالكة، هالكة تماماً، لكنه أمر بتدعيم الأبواب والنوافذ بدعائم صلبة، فحجز الحرس في الأروقة، وأغلق على الدجاج والأبقار في مكاتب الطابق الأوّل، وسمّر كل شيء في مكانه،

من ساحة الأسلحة إلى آخر تخوم مملكة القلق والرعب، ومكث الوطن بأسره ثابتاً في مكانه، مع هذا الأمر، بلا تنبيه ومع أول بادرة أطلقوا مرتين في الهواء ولتكن الطلقة الثالثة بلا رحمة، ورغم ذلك لم يصمد شيء أمام الاكتساح العنيف للرياح المزوبعة التي اقتلعت المصاريع المصفّحة للمدخل الرئيسي وأخذت معها أبقاري نحو السماء، غير أنه وهو تحت مفعول السحر لم يدرك المنبع الأساسي لتلك الفرقعة من الأمطار العمودية التي كانت تنشر تحتها وابلاً بركانياً من بقايا الشرفات والحيوانات الآتية من قلب الغابات البحرية، لم يكن له أيضاً الصفاء الكافي ليفكّر في أبعاد الخراب الذي أحدثته الكارثة، كلا، كان يمشي في قلب الطوفان وهو يتذوّق مسك الضّغينة متسائلاً أين أنت يا يانويلا سانشيز ريقي المرّ، تبّاً، أين تراك اندسست كي تهربي من بليّة ثأري هذه. وطيلة الهدوء الذي تلا العاصفة وجد نفسه برفقة مساعديه المقرّبين وهم يجذفون على متن قارب مرفأ في قاعة الاجتماعات وكأنهم في صحفة حساء ملأى بحصى قاعة الاجتماعات، ثم خرجوا من باب المرآب وهم يجذفون من دون عقبات ما بين جذوع النخيل والفوانيس المقلوبة في ساحة الأسلحة، ودخلوا البحيرة الميتة قرب الكاتدرائية، فظل للحظة، مأخوذاً بألق من الصفاء: لم يكن ولن يكون أبداً سيّد سلطته الكاملة، وبقي أثر هذا اليقين المرّ يعذبه في حين كان المركب يجتاز مواضع متفاوتة الكثافة حسب تغيّر ألوان الزخارف الزجاجية وأنوارها على أوراق الذهب وعناقيد الزمرّد في مذبح الكنيسة الرئيسي، وشواهد قبور حكّام الأقاليم الذين دفنوا أحياء، وكذلك بلاط الأساقفة الذين ماتوا من جرّاء خيبات الأمل، والنّتوء الصّواني على الضريح الفارغ لأميرال البحر

الأوقيانوسي مع سفن الكارافيل الثلاث المرسومة على جانبيه وقد أمر ببنائه إذا أراد يوماً أن تنام عظامه بيننا، خرجنا من قناة الكنيسة نحو باحة داخلية تحوّلت إلى حوض أسماك مضيء ذي قاع من الخزف حيث كانت تتيه أسراب الأسماك بين أعذاق النّاردين وعبّاد الشمس، تسلّقنا الأسرّة المعتمة في دير الباسكيات المترهّبات، رأينا الحجرات المهجورة، رأينا البيان القيثاريّ الغارق في البركة الداخلية لقاعة الإنشاد، رأينا تحت المياه الراكدة في قاعة الأكل طائفة العذارى الغريقات وهنّ على مناضدهنّ أمام المائدة الطويلة الجاهزة، رأى وهو يخرج من الشرفات امتداد البحيرة الواسع تحت السماء المتألّقة وكان ذلك موقع المدينة القديم، عندئذ صدّق النبأ لأول مرة سيدي الجنرال هذه الكارثة ضربت الكون بأسره لا لشيء إلا لتخلصني من تنكيل مانويلا سانشيز، سحقاً إذاً، الربّ يملك وسائل أكثر همجيّة إذا قورنت بوسائلنا، كان يفكر راضياً وهو ينظر إلى الوحل العكر حيث ارتفعت المدينة، مساحة شاسعة يطفو فوقها عالم كامل من الدجاج الغريق ولم تكن تعيقها سوى نواقيس الكاتدرائية، ومصباح المنارة، والشرفات المشمسة في المباني الجميلة لحيّ حكام الأقاليم، والجزر الموشاة بروابي المرفأ القديم لنقل العبيد حيث كان يخيم غرقى الإعصار، ونحن، آخر الناجين الجاحدين كنا نتأمل المرور الصامت للمركب المدهون بألوان الراية ما بين طحالب السرخس التي تكوّنت من جثث دجاج لا حياة فيها، رأينا العينين الحزينتين، الشفتين الذاويتين، اليد المترويّة في رسم إشارات الصليب، إشارات التبريك كي تنقطع الأمطار وتشرق الشمس، وعندها بعث الدجاج إلى الحياة، وأمر المياه أن انخفضي فانخفضت وأخذت الأجراس

تدق، والأسهم الناريّة ترتفع مبتهجة، والأبواق تفرقع صاخبة، إذْ كان هنالك احتفال بوضع الحجر الأول لتجديد البناء، وكان الحشد المجتمع في ساحة الأسلحة يهتف باسم المحسن للوطن الذي طرد تنّين الإعصار، عندما أمسك به أحدهم من ذراعه وقاده حتى الشرفة، الشعب في حاجة إلى كلماتك التشجيعية الآن أكثر من أي وقت آخر، فلم يقدر على التهرّب وسمع الصخب الجماعي الذي تغلغل إلى أحشائه مثل ريح بحر هائج، أن عاش الفحل، ذلك أنه منذ اليوم الأول لحكمه عرف جيداً الضيق الناجم من كونه كان يشاهد من قبل المدينة بأكملها في وقت واحد، تحجّرت كلماته، وأدرك عبر بريق قاتل من الصفاء أنه لم يكن ولن يكون من الشجاعة بحيث يتمكن من الظهور بكامل جسده فوق لجّة الحشود، وبطريقة لم نلمح معها سوى صورته الاعتيادية المألوفة، سحابة بخارية لشيخ يتعذّر إمساكه وهو يرتدي الكتان منح بركته الصامتة من أعلى الشرفة الرئاسية ثم اختفى في الحين، ورغم ذلك كانت هذه الرؤية العابرة كافية لتغذية ثقتنا بأنه هنا فعلاً، إنه يسهر على حياتنا وعلى رقادنا تحت ظل أشجار التمر الهندي التاريخية في قصر الضاحية، كان يقبع متأملاً في كرسي السوحر الهزّاز، وكوب شراب الليمون في يده لا يزال كاملاً وهو يستمع إلى صوت حبوب الذرة التي كانت أمه بندثيون ألفارادو تدقها في كمنيبة[٢]، في الساعة الثالثة وعبر انعكاس الحرارة رآها تمسك بدجاجة رمادية وتضعها تحت ذراعها ثم تلوي لها عنقها بنوع من الرقة في حين كانت تقول لي بنبرة الأمومة وهي تمعن النظر في عينيّ لقد أصبحت مسلولاً لفرط ما تفكر من دون أن تقتات كما يجب، ابق هنا لتناول الغذاء، توسلت إليه، محاولة إغراءه بتلك الدّجاجة المخنوقة

التي كانت تقبض عليها بكلتا يديها خوفاً من أن تفلت منها بفعل حشرجة الاحتضار، حسناً، أمّاه، سأبقى، أجاب مغمض العينين في كرسي السوحر الهزّاز حتى مجيء الليل، من دون أن ينام، مهدهداً بالرائحة الشهيّة المنبعثة من الدّجاجة وهي تطبخ الآن في القدر، مراقباً مجرى حياتنا، إذ أن الشيء الوحيد الذي كان يطمئننا على وجه الأرض إنما كان اليقين بأنه حاضر هنا ومعصوم من الطاعون ومن الإعصار، معصوم من مكر مانويلا سانشيز، معصوم من الزمن، مستسلم للغبطة المسيحية المترتبة على كونه يفكر من أجلنا، مدركاً جيداً كما كنا ندرك أيضاً أنه لم يكن يتوجب عليه أن يتخذ من أجلنا أي قرار لا يكون في مستوانا، ذلك أنه لا يدين بنجاته لشجاعته الخارقة أو لحذره اللامتناهي وإنما لكونه كان الوحيد بيننا الذي عرف الحجم الحقيقي لقدرنا، ولقد وصل إلى هنالك، أمّاه، بعد رحلة مضنية، وجلس ليستريح على آخر صخرة تاريخية في الحدود الشرقية النائية حيث نقش اسم وتاريخ آخر جندي مات دفاعاً عن سلامة الوطن، لقد رأى الكآبة الجليدية على مدينة الأمة المجاورة، رأى ضباب الصباح المثقل برائحة السخام، والرجال المرتدين بدلات الاحتفال في عربات الترام الكهربائية، والمآتم الرّفيعة في عربات الموتى القوطية التي كانت تسحبها خيول حراثة بيضاء مع حزمات من الرّيش، والأطفال الذين كانوا ينامون ملتفّين بالجرائد في فناء الكاتدرائية، سحقاً إذاً، يا للقوم غريبي الأطوار، صرخ، كأنهم شعراء، كلا، سيدي الجنرال إنهم «الغودوس»[٣] في السلطة، أجيب، ثم عاد من رحلته تلك ساخطاً بفعل الرؤيا، لا شيء يشبه ريح الجوافات المتعفّنة وضجيج الأسواق وذلك الشعور بالإرهاق عندما يخيم المساء على ذلك

الوطن البائس الذي لم يعد إلى عبور حدوده، ليس خوفاً من ترك الكرسي الذي كان جالساً عليه، كما كان يؤكد ذلك أعداؤه، بل لأن الإنسان يشبه شجرة غابات، أماه، يشبه حيوان غابات لا يترك عرينه إلا لكي يأكل، كان يقول، متذكراً في ساعة القيلولة وصفاء الاسترخاء المميت، ذلك الخميس المملّ، في شهر ناءٍ من شهور أغسطس عندما تجرّأ على الاعتراف بأنه يعرف حدود طموحه، لقد أسرّ بذلك لمحارب ينتمي إلى عصر آخر وبلاد أخرى وكان قد استقبله في خلوة مكتبه المضاء قليلاً والمثقل بالحرارة، كان شاباً خجولاً، مفعماً بالكبرياء وموسوماً دائماً بعلامات العزلة، مكث بلا حراك عند العتبة من دون أن يقدر على اجتيازها حتى اللحظة التي اعتادت فيها عيناه النور الخفيف المعطّر باحتراق نبات الغليسين في الحرّ فتمكن أخيراً من تبينه جالساً على كرسيه الهزّاز، وقبضته ثابتة على الطاولة العارية وكان من الرّتابة والتفاهة بحيث لم تكن له أية صلة شبه بصورته العمومية، بلا مرافقين وبلا أسلحة، وقميصه مبلل بعرق رجل فانٍ في حين كانت أوراق قويصه تلتصق بصدغيه لتزيل عن رأسه الصداع، وعندما اقتنعتُ، يا للحقيقة التي لا تصدّق، أن هذا الشيخ الصدئ هو فعلاً معبود طفولتنا، والتجسيد الأكثر نقاء لمجد أحلامنا، عندها فقط دخل إلى المكتب وأفصح عن هويته وهو يتكلم بصوت جليّ وحازم مثل شخص يأمل أن يُقدّر بفضل أعماله، شدّ على يدي بيده النّاعمة الدنيئة، مثل يد مطران، وأبدى اهتماماً محيّراً بالأحلام العجيبة لهذا الغريب الذي جاء يطلب أسلحة وتضامناً مع قضية هي قضيتكم أيضاً، يا صاحب السموّ، كان يرغب في المساعدة العسكرية والدعم السياسي من أجل حرب لا هوادة

فيها من شأنها أن تقضي نهائيّاً على كلّ الأنظمة المحافظة من ألاسكا إلى باتاغونيا، ولقد تأثر بحماسته إلى حدّ أنه سأله لماذا تحشر نفسك في هذا المأزق، سحقاً إذاً، لماذا تريد الموت، فما كان من الغريب إلا أن أجابه من دون أي أثر للخجل ليس هناك من مجد أسمى من الموت فداءً للوطن، يا صاحب السموّ، عندئذٍ أجابه مبتسماً من الشفقة لا مجال لارتكاب حماقات، أيها الشاب، الوطن يعني البقاء على قيد الحياة، قال له، إنه هذا، قال له فاتحاً قبضته المستندة إلى الطاولة، ثم أظهر له تلك الكرة الزجاجية في باطن يده، شيء نملكه أو لا نملكه، والذي يملكه إنما يملكه تماماً، أيها الشاب، الوطن كذلك، الوطن كذلك، قال له وهو يصرفه بضربات كفّ خفيفة على ظهره من دون أن يقدم له شيئاً، ولو كان وعداً يعزّيه، وصرخ بالمرافق الذي أعاد إغلاق الباب دعه وشأنه، لا تُضعْ وقتك في مراقبته، إنه محموم ولا يصلح لشيء. هذه الجملة لم نسمعها فيما بعد حتى اليوم الذي أصدر فيه، بعد الزوبعة، عفواً جديداً عن المساجين السياسيين وأمر بعودة جميع المنفيين ما عدا، بطبيعة الحال، الكتّاب، هؤلاء لا جدال، قال، يعانون من الحمّى تحت ريشهم مثل الديوك الأصيلة عندما تهتاج، صدّقوني إنهم لا يصلحون لشيء إلا إذا كانت هناك فائدة منهم، إنهم أسوأ من السياسيين، أسوأ من كهنة الكنيسة، يمكنكم ملاحظة ذلك، أما الآخرون فعليهم أن يعودوا من دون تمييز بين ألوانهم إذ يجب أن يشاد الوطن بجهود الجميع، ولم يكن على أيّ كان أن يجهل بأنه غدا المولى من جديد وسيّد سلطته كلّها بمساندة شرسة قدّمها عدد من قطاعات القوات المسلحة التي عاد عناصرها إلى مراكزهم منذ أن وزّع على أعضاء القيادة العليا شحنات المؤن والأدوية

ولوازم الإسعاف المدني من المساعدات الخارجية، ومنذ أن صارت عائلات وزرائه تقضي يوم الأحد على الشاطئ في المشافي القابلة للتفكيك وفي خيام الصليب الأحمر، وتبيع أمصال الدم وأطناناً من مسحوق الحليب إلى وزارة الصحة فيعيد وزير الصحة بدوره بيعها إلى دور العجزة، ولقد قايض ضباط الأركان طموحاتهم بمناقصات في الأشغال العامة وبرامج تدريبيّة جديدة تمّ تمويلها بفضل القروض الاستعجالية التي قدّمها السفير فارن حتى تتمكن سفن بلاده من الصيد في كل مكان من مياهنا الإقليمية، سحقاً إذاً، من يملكه إنّما يملكه تماماً كان يحدّث نفسه متذكراً الكرة الزجاجية التي أبداها لذلك الحالم المسكين الذي اختفى من دون أن يترك أثراً، وكان متأثراً بإعادة البناء بحيث كان يشرف شخصياً على أدق التفاصيل مثلما كانت الحال في بداية توليه السلطة، ويتخبط في مستنقعات الشوارع وهو في زي صياد للبطّ البري حتى لا يتم تشييد مدينة مختلفة عن تلك التي تصوّرها لمجده في أحلام يقظته، أحلام الغريق المتوحّد، وكان يأمر المهندسين ارفعوا هذه البيوت من هنا وضعوها في مكان ما حيث لا تعيق، فكانت ترفع، زيدوا مترين في ارتفاع هذا البرج حتى تسهل رؤية السفن في البحر، فكان يعلّى، اجعلوا هذا النهر يجري في الاتجاه المعاكس، فكان مجرى النهر يعكس، من دون تذمّر ومن دون أدنى وهن في العزيمة، كان منهكاً في الترميم المحموم، ومنصرفاً إلى نشاطه وناسياً أبسط شؤون الدولة حتى ذلك اليوم الذي اصطدم فيه بالواقع عندما أثار مساعد له عن طريق الخطأ وهو شارد الذهن مشكلة الأطفال، أيّ أطفال سأل من أعلى سديم ركامه، الأطفال سيدي الجنرال، ولكنْ أيّ أطفال يا للفوضى، ذلك أنه وحتى ذلك الوقت

لم يكن يعلم أن الجيش كان يحجز سراً كل الأطفال الذين يسحبون الأرقام الرابحة في اليانصيب، تصوّروا لو عنّ لهم أن يكشفوا لماذا كان الرئيس يربح دائماً، أما أهاليهم المحتجّون فكانت تتم إجابتهم كلا كلا ليس ذلك واضحاً، وفي انتظار إيجاد تبرير أفضل، كان يقال لهم، إنها أكاذيب يطلقها المشردون، افترا ءات من المعارضة، أما أولئك الذين ثاروا أمام إحدى الثكنات فقد تمّ تشتيتهم بمدافع الهاون بصرف النظر عن مذبحة صغيرة لم نعلمك بها لئلا نزعجك سيدي الجنرال، ولكن ينبغي أن تعرف أن الأطفال مسجونون داخل قلعة الميناء، إنهم هناك على ما يرام وفي صحة جيدة مع معنويات عالية جداً، ورغم ذلك فإن هناك أمراً يضايقنا لم نعد نعرف ماذا سنفعل بهم سيدي الجنرال، وعددهم ألفان تقريباً. وهذه الطريقة الناجحة لربح الجائزة الكبرى وجدها من دون أن يبحث عنها، بمعاينة الأرقام المدمشقة على كريات البلياردو، كانت الفكرة من البساطة والروعة بحيث لم يكن يصدقها هو نفسه، ولقد انبثقتْ عندما رأى الحشود المتلهّفة غامرة باحة الأسلحة منذ منتصف النهار وهي تقوم بحسابات متوقّعة للأرقام في انتظار المعجزة تحت أشعّة الشمس المحرقة وبين هتافات الامتنان، ولافتات المجد الأبدي للمحسن الذي يوزّع السعادة، كان هناك موسيقيون ويهلوانيون ومشارب خمور ومتاجر بطاطا مقلية ودواليب تنطوي على مغالطة تاريخية ويانصيب حيوانات قديمة، أنقاض عوالم أخرى وعصور أخرى على هامش الحظّ تُغِيرُ على أطراف الغنى محاولة الاغتناء ببقايا الكثير من الأوهام، في الساعة الثالثة فتحت نافذة الشرفة وتم إصعاد ثلاثة أطفال في سنّ السابعة اختيروا اتفاقاً من قبل الحشد بعد التحقّق أمام الشهود من أن

كل كيس يحتوي على عشر كرات بلياردو مرقمة من واحد إلى صفر، انتبهوا، سيداتي سادتي، امسك الجمهور أنفاسه، كل طفل من الأطفال الثلاثة المعصوبي العيون سيخرج كرة من كيسه، سنبدأ بهذا الطفل صاحب الكيس الأزرق، ثم يأتي دور صاحب الكيس الأحمر وأخيراً الكيس الأصفر، كان كل طفل يدخل يده في كيسه، فيجسّون في الأسفل تسع كرات متشابهة وكرة مثلجة، وكانوا يستجيبون لأوامرنا التي أوعزنا لهم بها خفية، فيمسكون بالكرة المثلجة، ويظهرونها للجمهور معلنين عن رقمها، وهكذا يتمّ سحب الكرات الثلاث المبرّدة في الثلج طيلة أيام عديدة مع أرقامها الثلاثة، أرقام البطاقة التي احتفظ بها لنفسه، غير أننا لم نفكر لحظة واحدة أن الأطفال يمكن أن يفشوا السرّ سيدي الجنرال، وعندما تذكرنا ذلك كان الوقت متأخراً بحيث لم يكن لنا وسيلة أخرى سوى جعلهم يختفون ثلاثة ثلاثة، ثم خمسة خمسة، ثم عشرين عشرين، تصوّر ذلك قليلاً سيدي الجنرال، وعندما شدّ أكثر على خيط الحقيقة انتهى باكتشاف أن كلّ ضبّاط القيادة العليا في سلاح البرّ والبحر والجوّ كانوا متورطين في عملية هذا الصيد الرائع من اليانصيب الوطني، وعلم بأن الأطفال الأول صعدوا إلى الشرفة بموافقة ذويهم الذين دربوهم من ناحية أخرى على معطيات العلم الوهمي للتمكن من التعرف بواسطة اللمس على الأرقام المرصّعة في الكرات العاجية، أما الأطفال اللاحقون فقد حجزوا بالقوة إذْ سرت شائعة بأن الأطفال الذين يصعدون إلى الشرفة لا ينزلون منها أبداً، فكان الأهالي يخفون أبناءهم ويدفنون أطفالهم أحياء في منتصف الليل حين تمرّ الدوريات بحثاً عنهم، ولم تكن دوريات الصدام تحاصر ساحة الأسلحة لتهدئة الجمهور الهائج، كما قيل

له، بل لكي تبعد الحشود التي تتدافع مثل القطعان وهي تهتف مهدّدة بالموت وحتى الدبلوماسيون الذين طلبوا جلسة لتقديم وساطتهم في النزاع كانوا يصطدمون بالرفض المطلق من الموظفين أنفسهم الذين كانوا يصفون أمراضه الغريبة المختلفة بأنها أمراض حقيقية، كلا إنه لا يستطيع استقبالهم لأن الضفادع توالدتْ في بطنه، إنه مجبر على النوم واقفاً كي لا ينسلخ بقنازع الإغوانة(٤) التي تنمو في عموده الفقري، لقد أخفيت عنه كل رسائل الاحتجاج ومطالب العفو والاسترحام المرسلة من العالم بأسره، واختُلست منه برقية من قداسة البابا نُعبّر فيها عن قلقنا البابوي لمصير الأبرياء، لم يبق مكان في السجون لأقرباء جدد متمردين سيدي الجنرال، لم يعد هناك أطفال من أجل سحب يا نصيب يوم الاثنين، يا للفوضى، أية فوضى وضعنا فيها أنفسنا. ورغم ذلك لم يسبر العمق الحقيقي للهوّة إلا بعد أن اكتشف الأطفال المتكومين مثل ماشية المسلخ في الساحة الداخلية لقلعة الميناء، رآهم يخرجون من الخلوات مثل قطيع من الماعز يتشتّت منبهراً بقوّة أشعة الشمس بعد شهور طويلة من الرعب الليلي، كانوا تائهين في الضوء وكان عددهم ضخماً بحيث خيل لعينيه أنهما لا تريان ألفي مخلوق منفصلين عن بعضهم وإنما تريان حيواناً ضخماً لا شكل له يعبق بأثر مبهم من جلدٍ لوحته الشمس، فيملأ المكان بجلبة تشبه جلبة مياه الأعماق ويتلافى الأبادة بفضل طبيعته المتعددة، كلا لم يكن من الممكن إبادة تلك الكمية من الحياة من دون ترك سحابة رعب من شأنها أن تدور حول الأرض، سحقاً إذاً، لا شيء يمكن فعله، ثم دعا القيادة العليا للاجتماع مستسلماً، أربعة عشر ضابطاً مرتجفاً وأكثر خطراً من أي وقت سابق إذ لم يسبق لهم أن ارتاعوا في السابق مثل

الآن، تروّى جيّداً كي يغرز بصره في عيني كل واحد منهم، واحداً واحداً، عندها أدرك أنه كان وحيداً ضدّ الجميع، حافظ حينئذ على رأسه مرتفعاً، صلّب صوته، وحثّهم على الوحدة الآن أكثر من أي وقت مضى من أجل هيبة القوات المسلحة وشرفها، ثم عفا عنهم عفواً شاملاً وقبضته مغلقة على الطاولة كي لا تفاجئهم رجفة تردّده وأمرهم من ثمّ بالبقاء في منازلهم للقيام بواجباتهم بتلك الحماسة نفسها وتلك السطوة نفسها، اللتيْن عهدهما فيهم، أعلن بقرار سام ونهائي أنه لم يحدث شيء هنا، رفعت الجلسة، أتعهّد بكل شيء. وكمجّرد إجراءات احتياطية غادر الأطفال قلعة الميناء وتم إرسالهم في مقطورات ليلية نحو المناطق الأقل سكاناً في حين كان هو يجابه العاصفة التي أحدثها التصريح الرسمي والعلني، كلا الأمر ليس واضحاً، ليس واضحاً البتّة، لا يوجد أي طفل بين يدي السلطات ليس هذا فحسب بل لا يوجد أي سجين من أيّ نوعٍ كان في السجون، أمّا النبأ الكاذب المتعلّق بالحجز الجماعي فليس سوى أقاويل مشردين هدفها بلبلة العقول، أبواب البلاد مشرعة أمام كل من يريد معرفة الحقيقة، تعالوا لتروا ذلك بأعينكم، وجاؤوا، جاءت لجنة من عصبة الأمم لتحرّك أحجار الأمة الأكثر خفاء واستجوبت من شاءت كما شاءت وكانت استجواباتها من التدقيق بحيث انتهت بندثيون ألفارادو بأن سألت ولكن من هم هؤلاء المتطفّلون المرتدون ثياباً تشبه ثياب مُناجي الأرواح الذين دخلوا إلى غرفتي باحثين عن ألفي طفل تحت الأسرّة وفي سلة خياطتي وفي أصص التلوين، والذين اعترفوا في النهاية علناً بأنهم وجدوا السجون مغلقة، والوطن آمناً، وكل شيء في مكانه، وإنهم لم يكتشفوا أي دليل يسمح بتأكيد إشاعات الريبة والتحفّظ التي تذهب

إلى أن مبادئ حقوق الإنسان قد تكون انتهكت بالنّوايا أو بالفعل بسبب العجلة أو بسبب السهو، نم مرتاح البال سيدي الجنرال، لقد رحلوا، حيّاهم من نافذته بمنديل ذي حاشية مطرّزة وبشعورٍ بالانفراج ذلك أن شيئاً ما أشرف على نهايته، وداعاً، يا عصابة المغفّلين، بحراً هادئاً وسفراً سعيداً، قال متنهّداً، والآن انتهى الإزعاج، غير أن الجنرال رودريغودي أغيلار ذكّره بأنْ كلا، الإزعاج لم ينته سيدي الجنرال، لأن الأطفال لا يزالون موجودين، ضرب على جبينه، تبّاً، لقد نسيتهم تماماً، ماذا ترى سنفعل معهم. حاول صرف هذه الفكرة السيئة، وفي انتظار التوصّل إلى إحدى الطرق التعسّفية، أمر بإخراج الأطفال من مخبئهم في الغابات، فتم جلبهم في الاتجاه المعاكس نحو القرى ذات الأمطار الأبديّة حيث لا توجد أية ريح ماكرة من شأنها أن تنشر صراخهم، وحيث كانت الحيوانات البرية تتعفن سائرة، حيث النيلوفر ينمو في الكلمات، وحيث الأخطبوط يسبح بين الأشجار، أمر بحملهم إلى كهوف آندينية ذات ضباب مستمر حتى لا يعرف أحد أين هم، أرسل لهم بحبوب من ملبّس الكينا وأغطية من الصوف عندما علم أنهم كانوا يرتجفون من الحمّى بعد أن ظلّوا أياماً وأياماً غارقين في الوحل حتى رقابهم في حقول الرزّ كي يتلافوا المراقبين في طائرات الصليب الأحمر، أمر بصبغ أشعة الشمس ولألأة النجوم باللون الأحمر كي يشفيهم من الحمّى القرمزيّة، وبرشّهم من الأجواء بالمساحيق المبيدة للحشرات حتى لا تلتهمهم يرقات أشجار الموز، كان يرسل إليهم أمطاراً من الحلوى وجروفاً ثلجيّة من المرطبات المثلجة بالقشدة فتسقط من طائراته بالمظلات المحمّلة بألعاب عيد الميلاد لكي لا يحرموا من فرحهم بينما هو يبحث عن حلّ سحري، وهكذا وضع

نفسه في مأمن من أذيّة ذاكرته، ونسيهم، غطس في بركة مهجورة من ليالي السهاد البيتي، استمع إلى الدقات المعدنيّة معلنة الساعة التاسعة، أمسك بالدجاجات التي كانت تنام على أفاريز البيت المدني وأدخلها إلى القنّ، ولم يكن قد انتهى من تعداد الدواجن الساكنة فوق مجاثمها عندما دخلت إحدى خلاسيات البيت لتجمع البيض، أحس بإشعاع شبابها الدافئ، باغت ضجة صدارها وارتمى فوقها، انتبهْ سيدي الجنرال، همهمتْ مرتجفة، ستكسر بيضي، فلنكسره، سحقاً إذاً، أجاب وأوقعها بخشونة من دون أن يجردها من ثيابها أو يتجرد هو من ثيابه، كان يتألم رغبة منه في نسيان سعادة هاربة في ذلك الثلاثاء المغطى ببراز أخضر لحيوانات نائمة، انزلق وتدحرج في دوار وهمي لهوّة مخدّدة بأسجاف هروب دكناء، وبآثار عرق، وآهات امرأة شهوانية وتهديدات نسيان ماكرة، وترك في سقوطة خطّاً منحنياً من الرنين اللاهث من مهمازه الذهبي الذي صار نيزكاً، وسحابة حصى من صدره كانت تحصر أنفاس البعل المستحرم، وتباكي الجرو الصغير، ورعداً مكتوماً من الانفجار الآتي لصاعقة الموت، غير أنه وجد من جديد، في قعر الهاوية، التّبن الملطّخ ونوم الدجاجات المضطرب، وأسى الخلاسية التي كانت تنهض وفستانها ملطخ بدبس أصفر، لقد نبّهتك إلى ذلك سيدي الجنرال، لقد تهشم البيض، دمدم محاولاً السيطرة على غيظه من جراء حبّ آخر خال من الحبّ، احصي كم كانت هناك من بيضة قال لها، سوف أقتطعها من أجرتك، ثم ذهب، كانت الساعة العاشرة، تفحص لثات بقراته في الإسطبل لثة بعد لثة، رأى إحدى نسائه يمزّقها الألم على أرض بيتها الخشبي في اللحظة التي كانت فيها القابلة تقتلع من أحشائها وليداً

مدمّى وحبله السري ملفوف حول عنقه، إنه ذكر، أيّ اسم نعطيه سيدي الجنرال، الاسم الذي ترغبان فيه، أجاب، الساعة الحادية عشرة، وككل مساء منذ يومه الأوّل على رأس نظامه، عدّ الحرس، وتأكد من إغلاق الأبواب، وغطّى أقفاص الطيور، وأطفأ الأنوار، منتصف الليل، السلام يخيم على الوطن، العالم نائم، توجه نحو غرفته عبر بيت غارق في الظلام كانت أجنحة المنارة تدور فيه ناشرة صفاء أسحار متلاشية، علّق في الموضع المعتاد مصباح الانطلاق نحو الكارثة، أغلق الرتاجات الثلاثة، المزاليج الثلاثة، والدعامات الثلاث، جلس على سطله الصحي وشرع أثناء إفرازه لبرازه العصفوري يداعب خصيته المفتوقة، حتى اللحظة التي تلاشى فيها التشنج، ونام الولد المزعج في يده، سكن الألم لكنه عاد إلى الظهور فوراً عبر برق من الذّعر عندما دخلت هبّة ريح من النافذة، ريح مقبلة من تخوم صحارى ملح البارود نشرت في الغرفة نشارة أغنية لحشد من الناس يا أيها الولد السائل عن فارس نأى في ساحة القتال، الحشد يتأوّه حسرة يا للألم وحسرة الرجال، الحشد يصعد إلى برج المنارة لكي يرى فارسه ويعلن البشارة، الحشد يراه عائداً لكنه أتى في صندوق من المخمل يا للألم ويا لها من خسارة، كانت الجوقة من البعد وعدد أفرادها من الكثرة بحيث بدا كما لو كان ينام مهدهداً بسماع النجوم تغنّي، لكنه نهض ساخطاً، كفَى يا للفوضى، صرخ، إمّا هم وإما أنا، وكانوا هم، إذ أنه قبل طلوع النهار أمر بنقل الأطفال على متن زورق إنقاذ محمّل بالإسمنت، فأخذوهم وهم يغنون حتى بلغوا بهم حدود المياه الإقليمية وهناك أرسلوهم بعبوة ديناميت إلى العالم الآخر، وبعد أن أتمّ الضباط الثلاثة جريمتهم من دون أن ينقطعوا عن الغناء ومن

دون أي أثر للألم انتصبوا أمامه في حالة استعداد، سيدي الجنرال لقد نُفذّت أوامرك فكافأهم برتبتين جديدتين وقلّدهم صليب الخدمات الأمينة والصادقة، ثم أعدمهم من دون ضجّة مثلهم مثل سائر الأنذال إذ أنّ هناك أوامر يمكن أن تعطى دون أن تنفذ، سحقاً إذاً، يا للصبيان المساكين. وكانت تجارب أخرى غاشمة تأتي لتؤكد يقينه القديم الذي يعتبر بموجبه أن العدوّ اللدود إنما يكمن في داخلنا وفي ائتمان القلب، نعم لقد كان الرجال الذين يسلّحهم ويقدم لهم امتيازات لدعم نظامه ينتهون عاجلاً أو آجلاً بأن يبصقوا على اليد التي كانت تطعمهم، فكان يسحقهم بضربة من قدمه، ويأتي بآخرين من العدم، ليرفعهم إلى أعلى الرتب بإشارة من إصبعه حسب حيويّة إلهامه، أنت أجعلك كابتاناً، وأنت كولونيلاً وأنت جنرالاً، كل المتبقين سوف يكونون برتبة ملازم أوّل يا للفوضى، كان يراهم يكبرون في بدلاتهم حتى توشك أن تتفتق، كان ينساهم، ويأتي ظرف مشابه لاكتشاف ألفي طفل محجوز ليدرك بأن ليس هناك رجل واحد استغل ثقته وإنما قسم من قيادة القوات المسلحة التي ليست فالحة إلا في زيادة استهلاك كمية الحليب بما أنها في ساعات الشدّة تتغوّط في الصحن الذي سبق وأن أكلت فيه، لقد حبلتُ بهم كلهم، سحقاً إذاً، لقد أخرجتهم من أحشائي، لقد حصّل لهم الاحترام والخبز، ورغم ذلك لم يتمتع بلحظة واحدة ما دام عليه أن يحذر طموحهم، كان يحتفظ بأخطرهم قربه حتى يراقبهم أحسن، ويرسل بالأقل جرأة إلى مراكز الحدود، وبسببهم تقبل احتلال المارينز، أماه، وليس من أجل مكافحة الحمّى الصفراء كما كتب ذلك السفير تومبسون في بلاغ رسمي، أو من أجل حمايته من المعارضة الشعبية، كا ادّعى السياسيون المنفيون،

وإنما لتعليم جنودنا كيف يكونون أناساً كما يجب، الأمر الذي تمّ أماه، لكلّ عمله، لقد علمه كيف يمشي بزوجي حذاء، ويمسح بالورق، ويستخدم غشاءات إنكليزية واقية، وكشفوا لي سرّ تعهد الخدمات الموازية لإثارة خصومات بين العسكريين من شأنها أن تشل حركتهم، ابتكروا من أجلي مكتب الأمن الإقليمي، والوكالة العامة للاستخبارات، والمصلحة الوطنية للنظام العام وعدداً آخر من الأمور المشابهة التي انتهيت أنا شخصياً بأن نسيتها، أجهزة متماثلة كان يعتبرها مختلفة لكي يتمكن من الحكم بأكثر اطمئنان ممكن داخل العاصفة وذلك بزرعه في ظن البعض أن الآخرين يراقبونهم، وبمزج بارود الثكنات بالرمل وسَرْبَلَة حقيقة نواياه في طيّات الحقيقة المعاكسة، ورغم ذلك كانوا يتمرّدون، فيلوح في الثكنات وهو يتمصّص رغوة من المرارة، ابتعدوا أيها القذرون، يصرخ بهم، أمامكم الآن من يقود، يزعق بالضباط المرتاعين الذين كانوا يتدربون على الرمي على صوري، جردوهم من أسلحتهم، كان يأمر من دون توقف مع نبرة قوية من الحنق والسلطة بحيث كانوا يلقون أسلحتهم بأنفسهم، جرّدوهم من هذه البدلات المخصصة للشجعان الخدومين، يأمر، فيجردون منها، ثكنة سان خيرونيمو تمرّدت سيدي الجنرال، فما كان منه إلا أن دخل من البوابة الكبيرة ساحباً قدمي الشيخ المعذّب الضخمتين بين طابورين من الحرس المتمرّد الذي قدم له التشريفات الواجبة للجنرال رئيس الدولة، ثم ظهر في قاعة المفرزة المتمردة، بلا مرافقين، بلا أسلحة، ولكنه صرخ صرخة دوّت مثل انفجار للسلطة انبطحوا أيها البلهاء ها هو ذا من يقدر على كل شيء، انبطحوا أيها الأوغاد، وانبطح تسعة عشر ضابطاً من هيئة

الأركان على الأرض، وتم حملهم إلى القرى الساحلية كي يأكلوا التراب ولكي يفهم الجميع ما قيمة الجندي بلا بدلة، أبناء العاهرات، وفوق الأصوات الأخرى المتعالية من الثكنة المذهولة تناهت إلى مسمعه أوامره الشخصية، ارموا المسؤولين عن التمرّد بالرصاص واجعلوا وجوههم إلى الحائط، ثم عرضت جثثهم المعلقة من أعقابها تحت أشعة الشمس ونور القمر حتى لا يجهل أيّ كان مصير الذين ينتهكون حرمة الله، الصعاليك، غير أن هذه التصفيات الدموية لم تكن كافية لإنهاء الإزعاجات قط إذ في كل فترة سهو تبرز من جديد تهديدات ذلك الحيوان الطفيلي ذي المجسات والذي كان يعتقد أنه أباده في حين كان لا ينفك يتوالد ويتكاثر في ظل سلطته بفضل الامتيازات وبقايا السلطة والثقة العالية التي كان يتوجب عليه أن يهبها للضباط الأكثر خدمة رغماً عنه، إذ لا يمكنه الاستغناء عنهم ولكنه لا يستطيع أيضاً أن يظلّ معهم، محكوماً عليه نهائياً بأن يتنفس ذلك الهواء الذي يخنقه، سحقاً إذاً، يا له من ظلم، ثم كيف يمكن العيش تحت التهديد الدائم المتأتي من نقاء شريكي الجنرال رودريغودي أغيلار الذي دخل مكتبي بهيئة مأتمية متلهفاً لمعرفة ماذا حل بأولئك الألفي طفل الذين سحبوا جوائزي الكبرى في اليانصيب الوطني، كل الناس يقولون إننا أغرقناهم في البحر، فيجيب من دون ارتباك لا تصدّق شائعات الصعاليك، يا شريكي، الأطفال الذين تتحدث عنهم يترعرعون في رحاب الله، كل مساء أسمعهم ينشدون هناك، يقول راسماً بيده دائرة واسعة تشير إلى موضع غير محدد في الكون، ألم يترك السفير إيفانس نفسه في نوبة من عدم اليقين عندما أجابه بأن التلاميذ كانوا كاملي العدد ويتمتعون بصحة

جيدة في مدارسنا، سحقاً إذاً، انتهت القضية، ورغم ذلك لم يتمكّن من تجاهل خبر أيقظه من نومه في منتصف الليل سيدي الجنرال لقد أعلنت الحاميتان الأساسيتان في البلاد العصيان وكذلك ثكنة دل كوندي على مقربة شارعين من مقر الرئاسة، عصيان خطير بقيادة الجنرال بونيفينتو بربوزا يسانده ألف وخمسمائة رجل مزوّدين جيداً بأسلحة وذخيرة مهرّبة بالتواطؤ مع عدد من القناصل المناصرين لقضية المعارضة، الأمر الذي يعني أن المسألة خطيرة هذه المرة سيدي الجنرال، ويمكن أن تعود علينا بالوبال. كان يمكن لمثل هذا التحرّك البركاني أن يحرك فيه الشعور بالمجازفة في عصر آخر، أما الآن فإنه يدرك وطء الشيخوخة عليه أفضل من أيّ كان، صار لا يكاد يتمكّن من مقاومة دمار عالمه السرّي، ولم يعد قادراً على النوم في ليالي الشتاء إلا بعد وضع خصيته المفتوقة في باطن يده مع هدهدتها مثل طفل يتألم وجعاً نَم يا صغيري نم، وكان يستسلم لوهن العزيمة جالساً على سطله، دافعاً بروحه قطرة قطرة كما عبر مرشح منسدّ بفعل عفونة ليال عديدة من التبرّز في العزلة، وأخذت ذكرياته تتلاشى، ولم يعد بوسعه أن يتيقّن مَنْ كان مَنْ ومن الذي يأتي مِنْ قبل مَنْ، كان يحس بنفسه تحت رحمة قدر لا مفرّ منه في بيت موحش كان من السهل عليه في أزمنة سابقة أن يغادره نحو بيت آخر، بعيداً من هنا، في بؤرة هنود محتضرين، حيث لا يمكن لأحد أن يعرف بأنه كان الرئيس الوحيد للوطن طيلة سنوات عديدة كانت من الكثرة بحيث لم يعد هو نفسه قادراً على عدّها، ورغم ذلك، عندما توسط الجنرال رودريغودي أغيلار من أجل إيجاد تسوية مشرفة للعصيان المسلح لم يكن الشيخ الخرف المتناوم طيلة الجلسات هو الذي استقبله بل

البيزون[٥] الغضوب والمسنّ الذي أجاب من دون مهلة تفكير لا مجال للحماقات، لن أذهب، رغم أن المسألة لم تكن تتعلّق بالذهاب أو بالبقاء، ولكن بكل بساطة سيدي الجنرال كلّ شيء ضدنا، حتى الكنيسة، كلا، قال، الكنيسة مع الذي يحكم، نعم لكن جنرالات القيادة العليا المجتمعين منذ ثمان وأربعين ساعة لم ينجحوا في التوصل إلى اتفاق فيما بينهم، لا أهمية لذلك، قال، سترى كيف يصممون عندما يعلمون من الذي يعطيهم مالاً أكثر، نعم لكن قادة المعارضة المدنية بدأوا أخيراً بالظهور وهم الآن يتآمرون في قلب الشارع، هذا أفضل قال، اشنق منهم واحداً على كلّ فانوس من فوانيس ساحة الأسلحة حتى يعرف الجميع من هو الرجل القادر على كل شيء هنا، ولكن كل شيء ضاع سيدي الجنرال، كل الناس معهم، هراء، قال، القوم معي ولن يخرجني أحد من هنا إلا ميتاً، قرّر ضارباً على الطاولة بيد الفتاة القاسية، وهي حركة لا يقوم بها إلا في المناسبات الكبرى، ثم نام حتى ساعة حلب البقرات، حيث وجد قاعة الاجتماعات قد تحوّلت إلى مزبلة، ذلك أن متمرّدي ثكنة دل كوندي كانوا قد قذفوا أحجاراً لم تترك أية نافذة سليمة الزجاج في الرواق الشرقي، وكرات من نار ظلّت تدخل من النوافذ المفتوحة ناشرة الرعب بين سكان المنزل طيلة الليل، لو أنك رأيت ذلك سيدي الجنرال، لم يطبق لنا جفن، كنا نركض في كلّ اتجاه مع أغطية وصفائح من الماء لإخماد بؤر النار التي كانت تندلع في الأماكن الأقل توقعاً، أما هو فكان لا يكاد يسمع، أكرر لكم لا تكترثوا لذلك، كان يقول مجرجراً قدميه الثقيلتين الشبيهتين بشاهدتي قبر عَبر المماشي المغطاة بالرماد وببقايا السجاد، والنّجود الشائطة، ولكنهم سيعيدون

الكرّة، قالوا له، لقد حذرونا بأنّ كرات النار لم تكن سوى إنذار، الآن سنكون هدفاً للانفجارات سيدي الجنرال، لكنه اجتاز الحديقة من دون أن يهتم لأحد، واستنشق تحت خيوط المساء الأخيرة عطر الورود الحديثة التفتّح، وفوضى الديوك في طيات الريح البحريّة، ماذا نفعل سيدي الجنرال، لقد قلت لكم ذلك لا تكترثوا، يا للفوضى، ثم ذهب كعادته كل يوم وفي الساعة نفسها ليراقب حلب البقرات، بطريقة جعلت متمرّدي ثكنة دل كوندي يرون، كعادتهم كل يوم وفي الساعة نفسها، البغلتين تجرّان العربة المحمّلة بستة براميل من حليب الزريبة الرئاسيّة، وعلى المقعد كان يجلس سائق العربة الدائم حاملاً رسالة شفهية سيدي الجنرال يرسل إليكم بهذا الحليب رغم أنكم مثابرون على البصاق على اليد التي تطعمكم، قال ذلك بصوت عالٍ كان من البراءة بحيث أن الجنرال بونيفينتو بربوزا أمر بقبول الحليب على شرط أن يذوق منه سائق العربة أولاً للتأكد من أنه غير مسموم، وهكذا فتحت الدعامات الحديدية وتمكّن الألف وخمسمائة متمرّد المنحنون على الشرفات الداخلية من رؤية العربة وهي تدخل وسط الباحة المبلّطة، ورأوا الجندي الوصيف يصعد إلى المقعد مع وعاء ومغرفة لكي يذيق الحليب لسائق العربة، رأوه يزيح غطاء البرميل الأول، رأوه يطفو في تعرجات متلاشية لانفجار يبهر الأبصار، ثم كفوا عن رؤية أي شيء إلى أبد الآبدين في القيظ البركاني المخيم على البناء الكئيب ذي الإسمنت الأصفر الذي لم تزينه زهرة قط والذي ظلت أنقاضه للحظة معلّقة في الفضاء بعد الانفجار الرهيب لستّة براميل من الديناميت. لقد قضي الأمر، تنهّد في البيت الرئاسي مهزهزاً بالريح البركانية التي عصفت من جديد بأربعة بيوت حول الثكنة

وحطّمت زجاجيات الأعراس في الخزائن داخل المدينة وخارجها، لقد قضي الأمر، تنهّد، عندما خرجت عربات النفايات من باحات القلعة وفيها جثث الثمانية عشر ضابطاً الذين أعدموا في طابور مزدوج لتوفير الذخيرة، لقد قضي الأمر، تنهّد، عندما قال له الجنرال رودريغو دي أغيلار وهو في وضع الاستعداد سيدي الجنرال لم يعد هنالك موضع واحد شاغر في السجون من أجل السجناء السياسيين، لقد قضي الأمر، تنهّد، عندما دقّت الأجراس، عندما ارتفعت الأسهم النارية جذلى، عندما انفجرت المفرقعات، معلنة عن قرن جديد من السلام، لقد قضي الأمر، يا للفوضى، انتهى الحادث المؤلم، قال، وظل مقتنعاً بذلك، وبدا غير مكترث وأهمل سلامته الشخصيّة إلى حدّ أنه ذات صباح عندما كان يجتاز الباحة عائداً بعد الاحتلاب، لم يأت ردّ فعله في الوقت المناسب كي يرى الأبرص المزيّف الذي انتصب فجأة بين أشجار الورد واعترض طريقه تحت رذاذ أكتوبر الخفيف، فانتبه متأخراً إلى ومضة المسدس الفولاذية، والسبّابة المرتعشة التي شرعت تضغط على الزناد عندها صرخ وهو مشرّع الذراعين معرّض الصدر، حاول أن تتجرأ أيها الوغد، حاول قليلاً، كان مذهولاً لفكرة أن تكون ساعته قد أزفت وهو يحاول إعاقة التنبؤات الأكثر جلاء لجفنات العرّافات، أطْلِقْ إذاً إنْ كنت جريئاً، صرخ، في تلك اللحظة غير المحسوسة حيث تألق نجم أدكن في سماء عيني المهاجم، ذوت شفتاه، انشلّت إرادته، عندئذ هجم بقبضتيه مثل مطرقتين على صدغي الآخر، فأوقعه أرضاً على الفور، ثم أجهز على فكّه بضربة من رجله كانت أقرب إلى ضربة بيد هاون، وسمع في عالم آخر بلبلة الحارس الذي هرع بعد سماعه صراخه، ثم مر عبر البقايا الزرقاء التي

خلفها الرعد المتواصل للرصاصات الخمس التي أطلقها الأبرص المزيّف في بطنه وهو يتخبط في بركة من الدماء لكي لا يقع حيّاً بين براثن جلادي الحرس الرئاسي، وفوق الأصوات الأخرى المنبعثة من أرجاء البيت المضطرب سمع أوامره المدويّة بلا جدوى مزّقوا الجثة وليكن في ذلك عبرة، فتمّ تقطيع الجثة إرباً إرباً، وعرض الرأس مملّحاً بملح خشن في ساحة الأسلحة، والساق اليمنى في الناحية الشرقية من سانتا ماريا دل آلتار، واليسرى في الغرب الذي لا حدود له من صحارى ملح البارود، وذراع في المرتفعات، والأخرى في الغابة، وعرضت قطع الجذع، المقليّة في دهن خنزير مذوّب، تحت الشمس والندى حتى لم يبق منها سوى العظم العاري بتمام طوله في أماكن فوضى الزنوج الوعرة والخطرة، حتى يدرك الجميع جيّداً كيف ينتهي أولئك الذين يتجرأون على رفع يدهم في وجه أبيهم، ثم استكشف أشجار الورد وهو لايزال مصفراً من الحنق وهناك كان الحرس الرئاسي يطرد البرصى بأسنة الحراب إذ أنه كان يريد أن يرى إن كنتم ستظهرون من جديد، أيها المشردون، صعد إلى الطابق الأول وهو يبعد المشلولين بقدميه إذ أنه كان يريد أن يعرف إن كنتم ستعلمون أخيراً من الذي حبّل أمهاتكم يا أبناء القحاب، اجتاز الأروقة صارخاً تنحّوا من هنا يا للفوضى فأمامكم الآن القائد الذي يحكم زارعاً الهلع في موظفي المكاتب والمتملّقين بلا حياء الذين كانوا يعلنون أنه خالد، ترك على امتداد البيت أثر ركام من الأحجار المنبعثة من أنفاسه الأتونيّة، اختفى مثل برق هارب في قاعة الاجتماعات ليبلغ الجناح الخاص، دخل غرفته، أقفل الرتاجات الثلاثة والمزاليج الثلاثة والدعامات الثلاث وبأطراف أصابعه خلع بنطاله الملوث بالبراز. لم يعرف لحظة راحة،

وهو يتشمم حواليه لاكتشاف العدوّ الخفيّ الذي سلّح الأبرص المزيف، أحس بأنه شخص قريب منه، شخص حميم إلى درجة أنه يعرف مخابئ أصص العسل، وكان يلصق عينيه بثقوب الأقفال وأذنيه بالزوايا في كلّ آن ومكان حيث توجد دائماً صوري، حضور متحرك كان يصفّر مع هبوب صابيات يناير ويعرّيه في ليالي القيظ وهو بين اتقاد جمر الياسمين، حضور طارده طيلة شهور وشهور في رعب السهاد عندما كان يجرجر قدمي الشبح الفزعتين عبر الغرف المنعزلة في البيت الغارق في العتمة، حتى ذلك المساء حين رأى أثناء جولة دومينو النّذير وهو يتجسّد في يد متروِّية أنهت اللعبة بخمسة مزدوجة، حدث كل شيء كما لو أن صوتاً داخلياً أسرَّ إليه بأن هذه اليد هي يد الخيانة، سحقاً إذاً، إنه هو، قال مرتبكاً، رفع عينيه فاصطدم بصره عبر الضوء المتدفّق من المصباح المعلّق فوق وسط الطاولة بعيني المدفعيّ الجميلتين، عيني شريكي العزيز الجنرال رودريغو دي أغيلار، هراء، ساعده الأيمن، شريكه القدّوس، مستحيل، فكّر وقد أنارت الكارثة ذهنه بحيث غدا يكتشف خبايا خيوط المؤامرة بصفاء أكثر، وكذلك الحقائق المزيفة التي سلّوه بها طيلة سنوات عديدة لإخفاء الحقيقة المرّة كان شريكي مدى الحياة في خدمة السياسيين المأجورين الذين أخرجهم في الأوان من حضيض ظلمات الحرب الفيدرالية وأغناهم ومكنهم من الثروة الفاحشة والترقيات غير القانونية، لقد استسلم شريكي لمكائدهم، وسمح لهم بأن يستخدموه لكي يصعدوا إلى مستوى أعلى مما كانت تحلم به الارستقراطية القديمة التي كنستها رياح الإعصار الليبرالي الحاسمة، ولم يرضوا بكل ذلك، سحقاً إذاً، كانوا يطمعون في مكانة المصطفى من قبل الله التي خصّ بها نفسه، كانوا

يريدون أن يكونوا أنا، الأوباش، لقد أنير دربهم بالصفاء البارد وبالحذر اللامتناهي لدى الرجل الذي عرف كيف يكتسب أكبر قدر ممكن من الثقة والسلطة في ظل نظامه منتهزاً فرصة كونه كان الوحيد الذي يتقبل منه أوراقاً للتوقيع، كان يُسمعه بصوت مرتفع جميع القرارات والقوانين التي لا يمكن لغيري أن يصدرها، كان يعين له مواضع التعديلات، ثم يبصم بإبهامه ويختم بالخاتم الذي يحافظ عليه في خزنة لا يعرف طريقه فتحها سواه، في صحتك، يا شريكي، كان يقول له وهو يمدّ إليه الأوراق الممضاة، لديك ما تمسح به، كان يقول له ضاحكاً، وكان كلّ شيء يحدث كما لو أن الجنرال رودريغو دي أغيلار نجح في إقامة نظام آخر داخل نظامي له الرحابة نفسها والخصب نفسه، الأمر الذي لم يمنعه من إثارة عصيان ثكنة دل كوندي خلسة بتواطؤ السفير نورتون ومساعدته، شريكه في القحاب الهولنديات، ومدرّبه في السلاح الذي استغل حصانته الدبلوماسية لتهريب الذخيرة في براميل سمك الغادس النرويجي في حين كان يخدّرني بتملقه لي ونحن أمام طاولة الدومينو، ليس هناك حكومة أكثر صداقة ولا أكثر عدالة ولا أكثر قدوة من حكومتي، ولقد كانوا هم أيضاً الذين دسوا بالمسدّس في يد الأبرص المزيف مع الخمسين ألف بيزو المشطورة الأوراق والتي وجدناها مطمورة في بيت المعتدي، أما شطرها الآخر فكان من المنتظر أن يسلّم إليه بعد الجريمة من قبل شريكي مدى الحياة، أمّاه، يا لها من خيانة مرّة، ورغم ذلك لم يكن ليستسلم للفشل بل إنه انتهى بأن جهّز مخططاً ممتازاً لا يمكن بموجبه أن يهرق أي دم، ولا حتى دمك أيها الجنرال، ذلك أن الجنرال رودريغو دي أغيلار عمد إلى مراكمة الإثباتات الأكثر جدارة بالثقة والتي تؤكد أنني كنت

أقضي ليالي بيضاء مثرثراً مع أصص الزهور، ولوحات الرجال المشهورين والمطارنة في البيت المعتم، وإنني كنت أقيس حرارة البقرات بمقياس حرارة وأناولها «الفيناسيتين» لإنزال درجة الحرارة، وإنني بنيت ضريحاً لأميرال بحر أوقيانوسي لم يكن له وجود سوى في مخيلتي المحمومة، في حين أنني رأيت بعينيّ الرؤوفتين رأيت مراكب الكرافيل الثلاثة راسية أمام نافذتي، وإنني بددت الأموال العامة بنزوتي التي يتعذّر كبتها من أجل اشتراء الأدوات البارعة وأنني ذهبت حتى إلى جعل الفلكيين يبلبلون المنظومة الشمسية لإرضاء ملكة جمال لم يكن لها من وجود سوى في هذيانه، وإنني أثناء إحدى أزمات جنون الشيخوخة أمرت بنقل ألفي طفل في زورق إنقاذ محمل بالإسمنت تمّ تفجيره فيما بعد في عرض البحر، أماه، تصوري، يا لهم من أبناء قحاب، واستناداً إلى هذه الشهادات البيّنة كان الجنرال رودريغو دي أغيلار ومجلس قيادة الحرس الرئاسي بتمامه وكماله قد قرروا حجزه في ملجأ الشيوخ المرموقين عند أعالي الصخور، يوم أول مارس في منتصف الليل أثناء المأدبة السنوية لقداسة الملاك الحارس، شفيع الحرس الخاص، أي خلال ثلاثة أيام سيدي الجنرال، تصوّروا ذلك، ولكنّه رغم أهمية المؤامرة واقتراب حدوثها لم يترك أيّة شفافية لنواياه من شأنها أن تثير الشكوك حول كونه كان على علم بكل شيء، بالعكس ففي الساعة المقررة استقبل المدعوّين من حرسه الخاص كعادته كلّ عام ودعاهم كي يجلسوا إلى طاولة الوليمة لتناول المشروب في انتظار وصول الجنرال رودريغو دي أغيلار الذي سيأتي بنخب الشرف، تحدّث معهم، ضحك معهم الواحد بعد الآخر، وفي الأثناء كان الضباط ينتهزون أية فرصة سانحة للنظر في ساعاتهم خلسة،

فيقربونها من آذانهم ويعبئونها، كان الوقت منتصف الليل إلا خمس دقائق والجنرال رودريغو دي أغيلار لا يصل أبداً، وكانت الحرارة كأنها تنبعث من مرجل سفينة في حين كان يخالطها عطر الزهور، كانت القاعة المغلقة تعج برائحة زهور الدّلبوث والتوليب والورود الفاقعة، فتح أحدهم نافذة، تنفسنا، نظرنا إلى ساعاتنا، استنشقنا هبّة ريح بحرية ناعمة ورائحة طعام شهي كأنه طعام عرس، كان الجميع ينضحون عرقاً ما عداه، وكلّنا كنّا نكابد احتراق اللحظة فوق النار البكر المتقدة من الحيوان البدائي الذي كان سادراً وعيناه مشرعتان على فضائه الخاص في زمن آخر للعالم، في صحتكم، قال، ورفعت يده اللامبالية، يد الزنبقة الذاوية، رفعت مرة أخرى القدح نفسه الذي دقّ به الأقداح الأخرى طوال المساء من دون أن يشرب بدوره، سمعنا الجلبة المتصاعدة من أحشاء ساعاتنا في صمت الهاوية الختاميّة، منتصف الليل والجنرال رودريغو دي أغيلار لا يصل دائماً، حاول أحدهم أن ينهض، بإذنك، قال، جمّده بنظرة قاتلة كانت تعني أن لا أحد يتحرّك، لا أحد يتنفّس، لا أحد يعيش من دون أذني حتى الدقة الثانية عشرة لمنتصف الليل آن فتحت الستائر وتمّ دخول جنرال الفرقة العسكرية رودريغو دي أغيلار العتيد على طبق من فضة، ممدّداً بكامل طوله على زينة من القنّبيط والرَّنْد، منقوعاً بالتوابل، مذهّباً بالفرن، متبّلاً ببزته ذات اللّوزات الذهبية الخمس العائدة إلى المناسبات الكبرى وضفائر الشجاعة غير المحدودة على كُمّيْهِ المشمّرين عن ذراعيه الشبيهتيْن بجناحي طائر الطرسوح البحري، سبعة كيلوغرامات من الميداليات على بطنه وعذق بقدونس في فمه، جاهزاً لأن يقدّم طعاماً في وليمة الأصدقاء من قبل القصابين الرسميين أمامنا،

نحن جميع المدعوّين المتحجّرين من الهول، وقد حضرنا متقطعي الأنفاس الاحتفال الشهي بالتقطيع والتوزيع، وعندما تم وضع قطعة من وزير الدفاع المحشو بالصنوبر والبقول في كل صحن، أعطى الأمر بالشروع، كلوا هنيئاً سادتي.

الهوامش:

١- Cangue : نير خشبي كان الصينيون يطوّقون به أعناق المجرمين .

٢- ثمرة الدباء ، وهي من النباتات المعترشة التي يستعمل ثمرها للتزيين أو يستخدم كالقناني والأواني .

٣- Godos : «البرابرة المتوحشون» ، صفة تحقير تستعمل في كولومبيا إشارة إلى المحافظين .

٤- الأغوانة : عظاية أمريكية عاشبة .

٥- ثور أمريكي له عند كتفيه ما يشبه السنام .



لقد تلافى الكثير من الصّخور المعيقة خلال الهزّات الأرضيّة، الكثير من الكسوفات المشؤومة، والكثير من كرات السماء الناريّة بحيث كان يبدو مستحيلاً على إنسان من زماننا أن يواصل الاعتقاد في تنبؤات أوراق لعبة البارخاس المتعلّقة بقدره. إلا أننا رغم ذلك، وعندما كنا نتقدّم في الشكليات المتعلّقة بتهيئة الجثة وتطييبها، كان أقلّنا سذاجة ينتظرون من دون إقرار تحقّق التنبّؤات القديمة التي تؤكد مثلاً أنه في اليوم الذي سيموت فيه سوف يرجع وحل المستنقعات إلى منابعه عبر الرّوافد، وتهطل الأمطار دماً، ويبيض الدجاج بيضاً خماسيَّ الزوايا، ومن جديد يخيّم الصمت والظلمات على الكون بما أنّ نهايته إنما كانت تعني نهاية الكون. أمّا خلوده، فقد كرّست الصحف النادرة التي كانت لا تزال تصدر، كل جهودها للإعلان عنه كما في الماضي، فكانت تزوّر إشراقته بتقديم مواد الأرشيف، وتظهره لنا كلّ يوم متصدراً الزمن السكوني لصفحاتها الأولى، مرتدياً تلك البزّة القاسية التي تبرز الشموس الخمس الكئيبة العائدة إلى أزمنته المجيدة، أكثر استبداداً أكثر همّة وأكثر صلابة من أيّ وقت مضى رغم أننا انقطعنا منذ زمن طويل عن إحصاء عدد أعوامه، كان يدشن في الصور الأبدية صروحاً معروفة أو مبانيَ عامة لم يرها أحد قط في الحياة الواقعية، كان يرأس احتفالات رسمية يقولون عنها إنها تعود إلى الأمس وكانت في الواقع تعود إلى القرن

السابق، زد على ذلك، بل لعلّه من المؤكد، أن لا أحد رآه علانية منذ الميتة الشنيعة لـ ليتيسيا نازارينو عندما قبع وحيداً في ذلك البيت الموحش في حين كانت شؤون الدولة اليوميّة تنصرف من تلقاء نفسها في جمود سلطته الواسعة والموغلة في القدم، انزوى حتى الموت في ذلك القصر المهدّم حيث كنّا في النوافذ الأكثر ارتفاعاً لنتأمل منقبضي القلوب اقتراب الليل الكئيب، وهو مشهد لا شك في أنه رآه مراراً من فوق عرش أوهامه، شاهدنا نور المنارة المتقطّع الذي كان يغرق في القاعات المدمرة بمياهه الخضراء الرخوة، شاهدنا على الطريق الساحلي المصابيح البائسة في المقرّ الوزاري القديم الذي سبق لزجاجه الشمسي أن تألق قبل مهاجمة حشد من المعدمين له عندما حملت واحدة من زوابعنا العديدة الأكواخ الخشبيّة المسوّرة على هضاب الميناء، شاهدنا المدينة في الأسفل مشتّتة ومدخّنة، والأفق مخترقاً ببروق آنية باهتة كانت تنبعث من فوهة رماد البحر المباع، شاهدنا الليلة الأولى من دونه، امبراطوريته البحريّة ذات الشقّار الملاري، وقراه الحارة في دلتا الروافد الموحلة، والأسلاك الشائكة النّهمة حول أقاليمه الخاصة حيث كان يتكاثر نسل جديد من الأبقار الرائعة التي كانت تولد مدموغة بالوشم الرئاسي. ولم نتيقّن فحسب أنه ولد ليشاهد النجم المذنّب الثالث، بل ظلّ هذا اليقين يرسّخ فينا ثقة وسكينة كنّا نظن أن لا علاقة لهما إلا بالدّعابات المتعلّقة بموضوع الشيخوخة، إذ كنا ننسب إليه فضائل شيخوخة السلاحف وعادات الأفيال، ونروي في الحانات الحقيرة أن شخصاً أعلن عن موته في مجلس الوزراء فشرعوا ينظرون إلى بعضهم البعض مذعورين، والآن من سيعلمه بذلك، تساءلوا فيما بينهم ها، ها، ها في حين لم يكن من

شأن النبأ أن يحرّك فيه ساكناً وربّما تساءل هو نفسه هل هي دعابة من أولئك الأجلاف، صحيح أم لا، ذلك أنه كان الوحيد الذي يعلم بأنه لم يتبق له سوى بعض الحطام النّائي في تلافيف الذاكرة، كان وحيداً في العالم، شديد الصّمم، مجرجراً ساقيه المنهوكتين عبر مكاتب معتمة حيث وجّه له شخص يرتدي سترة لاويّة[1] ذات ياقة صغيرة إشارة ملغزة بمنديل أبيض، مرحباً، قال له، وكان أن تحوّل الاستثناء إلى قاعدة، فتوجب على موظفي الرئاسة أن يقفوا وبأيديهم مناديل بيضاء عندما يمرّ، وكذلك الحرس في الأروقة، والبرصى عند أشجار الورد الذين كانوا يلوحون بمنديل أبيض لدى مروره، مرحباً سيدي الجنرال، مرحباً لكنه لم يكن يسمع، لم يعد يسمع أي شيء منذ الحداد الغسقي على ليتيسيا نازارينو عندما كان يفكّر بأنّ طيور أقفاصه كانت تتحول إلى طيور خرساء لفرط ما أنشدت، فكان عندئذ يقدم لها من عسله كي تنشد بصوت أعلى، ويقطّر لها من سائل «الانشادين»، في مناقيرها، وينشد لها أغاني من الزمن الغابر، يا قمر كانون الثاني يا مشعّاً في الأعالي، كان يغنّي إذ أنه لم يكن ليدرك أن الطيور لم تكن تفقد أصواتها وإنما هو الذي كان يسمعها بطريقة أقل كلّ يوم، وذات ليلة انفجر طنين طبلتي أذنيه متلاشياً لآخر مرة، وانتهى كلّ شيء، لم يعد ثمة شيء سوى هواء مندغم من الملاط لا تكاد تخترقه وداعات المراكب الوهميّة المنتحبة في ظلمات السلطة، وكانت تخترقه رياح خيالية، وتنافر أصوات لطيور باطنيّة انتهت بأن واسته في هوّة الصمت بعيداً عن الطيور الحقيقية. كان الأشخاص النادرون الذين يدخلون البيت المدني يرونه في كرسي السوحر الهزّاز، يكابد حرارة أول الظهيرة تحت نباتات الجهنميّة المعترشة، وقد

فتح أزرار بزّته وفكّ مشبك نطاقه الملوّن بألوان الراية وتخلّى عن سيفه وخلع جزمتيه محتفظاً بجوربيه الأرجوانيين المرسلين من قبل الحبر الأعظم، اثنتا عشرة دزّينة من الجوارب المصنوعة من قبل حبّاكي الكرسي البابوي الخصوصيين، وكثيراً ما فاجأته بنيّات إحدى المدارس الثانوية المجاورة يتسلّقن الجدار الخلفي حيث كانت الحراسة أقل تشدداً، شاحباً، في غفوة الأرق وعلى صدغيه أوراق طبيّة بينما كانت أنوار التعريشة تنمّره في نشوته بخطوط هامة تمتص الدماء، نائمة في بركة وبطنها في الهواء، أيها الشيخ الخرف، كن يصرخن به، فكان يراهنّ مشوهات الصورة عبر طفاوة ارتداد الشمس، ويبتسم لهنّ، ويحييهنّ بيده المتجرّدة من قفاز الساتان، غير أنه لم يكن يسمعهنّ، كان يحس بأثر وحْل جمبري النسيم البحري، كان يحسّ بنقر الدجاج على أصابع رجليه، لكنه لم يكن يباغت بالدويّ المضيء للزيزان، لم يكن يسمع البنيّات، لم يكن يسمع أيّ شيء. كانت اتصالاته النادرة بواقع هذا العالم مقتصرة على بقايا منعزلة من ذكرياته الذائعة الصيت، فهي وحدها التي حافظت على بقائه حيّاً عندما رضي، بعد التخلّي عن شؤون الدولة، بالسباحة في براءة هوامش السلطة، وهي وحدها التي كانت تمكّنه من مجابهة عواصف الشيخوخة الجارفة عندما كان يجول تحت جنح الظلام في البيت المقفر، ويختبئ في المكاتب المطفأة، ويقتلع حواشي الملفّات ثم يكتب عليها بخطه المزخرف شذرات الذكريات الأخيرة التي كانت تحميه من الموت، ذات ليلة كتب اسمي زكريّا، وقرأ جملته، وأعاد قراءة جملته تحت نور المنارة الهارب، وكرر قراءتها كثيراً فيما بعد حتى انتهى الاسم الذي كرّره مراراً إلى أن بدا له بعيداً وغريباً، سحقاً إذاً،

صرخ وهو يمزّق قصاصة الورق قطعاً، أنا هو أنا، قال لنفسه، ثم كتب على قصاصة أخرى من الورق بلغت مائة عام أثناء مرور النجم المذنّب للمرّة الثانية مع أنه في ذلك العهد لم يكن متأكّداً من عدد المرّات التي ظهر فيها النجم المذنّب، وكتب من الذّاكرة على ورقة أخرى أكثر طولاً المجد للجرحى المجد للجنود المخلصين الذين لاقوا حتفهم بيد أجنبية، إذ أنه في بعض العصور كان يكتب كلّ ما يفكّر فيه، وكل ما يعرفه، ولقد كتب على ورق مقوّى شكّه بدبوس على باب أحد بيوت الخلاء: ممنوعلقيام بقظارات فلمراحيذ[٢] ذلك أنه في إحدى المرات دفع الباب عن طريق الخطأ ففاجأ ضابطاً سامياً يستمني مقعياً على المرحاض، كان يكتب الأشياء النّادرة التي يتذكرها لكي يضمن عدم نسيانها أبداً، كتب ليتيسيا نازارينو زوجتي الوحيدة الشرعية التي علّمته القراءة والكتابة في عزّ الشيخوخة، وكان يقوم بجهود لكي يتذكّر صورتها المومس، كان يريد رؤيتها بمظلّة التفتا الملوّنة بألوان الراية وياقتها، ياقة سيدة البلاد الأولى المصنوعة من أذناب الثعالب الفضيّة، غير أنها كانت تظهر له عارية دائماً في الثانية ظهراً تحت ضوء النّاموسية الطحينيّ، كان يتذكر الاستراحة الطويلة لجسدك الهادئ الداكن في طنين دوّي المروحة الكهربائية، ويتشمّم ثدييك النّابضيْن بالحياة ورائحتك الشبيهة برائحة الكلبة والرطوبة الأكّالة في يديك، يدي الراهبة اللتين كانتا تقطعان الحليب وتصدئان الذهب وتذبلان الزهور، رغم أنهما كانتا بارعتين في الحبّ، إذ أنها الوحيدة التي أحرزت نصراً لا يمكن تخيله عليك أن تخلع جزمتيك لأنك تلوّث أغطيتي القطنية الناعمة، فكان يخلعهما، عليك أن تتخلّص من كلّ عدّتك إذ أنك تهشم صدري

بحلقاتك، فيتخلص منها، عليك أن تتجرّد من سيفك، ومن ضمادة الفتق، ومن لفافاتك، عليك أن تخلع كل ما تبقى يا حبيبي إذ أنني لا أتحسسك جيّداً فيخلع كل ما تبقى كما لم يفعل قط وكما لن يفعل ذلك مع أية امرأة بعد ليتيسيا نازارينو، حبّي الشرعي الوحيد، كان يتنهّد، ويكتب تنهداته على قصاصات أوراق الملفات المصفرّة ثم يلفّ الأوراق مثل السجائر لكي يخبئها في الزّوايا المخبأة التي لا تخطر ببال أحد في المنزل وحيث كان لا يجدها إلا هو كي يتذكّر نفسه عندما يعجز عن تذكّر أي شيء آخر، وحيث لم يكتشفها أحد قط عندما انتهت صورة ليتيسيا نازارينو نفسها بالتلاشي في بالوعة ذاكرته غير تاركة سوى الذكرى الدائمة لأمه بندثيون ألفارادو مساء الوداع في مقرّ قصر الضاحية، أمّه المحتضرة التي كانت تنادي الدجاج وهي تهزهز حبّات الذّرة في كرنيبة حتى لا يكتشف بأنها كانت على أبواب الموت، أمّه التي واصلت تقديم عصير الفواكه له وهو مستلق على أرجوحة نومه المشدودة بين شجرتي تمر هندي حتى لا يرتاب بأنّ الألم كان يمنعها من التنفّس تقريباً، أمّه التي حبلت به وحدها، وولدته وحدها، وتعفّنت وحدها في العزلة حتى اللحظة التي أصبح فيها الألم من الحدّة بحيث تغلّب على كبريائها وأرغمها أن تطلب من ابنها، انظر إلى ظهري وقل لي لماذا أحسّ بنار متقدة الجمر تحرقني، خلعت قميصها واستدارت فرأى بهلع مكتوم ذلك الظهر المهترئ بالتقرّحات الدامية التي كانت تفوح منها رائحة لبّ جوافة في حين كانت نفاطات صغيرة جداً تنشق عن يرقانات الديدان الأولى. عصر سيء سيدي الجنرال، حيث كل أسرار الدولة بلا استثناء صارت ملك الجميع، وحيث لم نعد قط إلى تنفيذ أي أمر بقرع الطبول منذ أن قدّمت

جثة الجنرال رودريغو دي أغيلار الشهية في وليمة الاحتفال، لكنه لم يعتن بذلك، فقد أهمل كلّ عقبات السلطة طيلة تلك الشهور الأليمة التي كانت أمه فيها تتعفّن على نار خفيفة في غرفة مجاورة لغرفته بعد أن قرر الأطباء الأخصائيون في الآفات الآسيوية بأن إصابتها ليست بالطاعون، ولا بالجرب، ولا بالداء العلّيقي، ولا بأية مصيبة شرقية أخرى وإنما هي رقية هنديّة مؤذية لا يمكن إلا لفاعلها أن يشفيها، فأدرك أنه الموت وانزوى ليعتني بأمه بتفاني الأمّ ذاته، فمكث يتعفّن إلى جانبها حتى لا يتمكن أحد من رؤيتها وهي تنطبخ ببطء في حساء يرقاناتها، أمر بنقل دجاجاتها إلى البيت المدني، وتم نقل طواويسها، وطيورها المطلية التي أخذت تتنزّه حسب رغبتها عبر القاعات والمكاتب وذلك لكي لا تأسف أمّه على رحلات الذهاب والإياب الريفيّة في قصر الضاحية، وكان يشعل بنفسه جذوعاً من السمّاق في الغرفة حتى لا يكتشف أحد أثر الموت في جثتها المحتضرة، ويهدئ بنفسه وبواسطة مراهم مبيدة للجراثيم ذلك الجسد المحمّر بالميركيروكروم، والمصفرّ بحامض البكريك، والمزرق بالميتيلين، ويدهن بنفسه التقرحات الدامية بواسطة بلسم تركي رغم انتقادات وزير الصحّة الذي كان يمقت السّحر، سحقاً إذاً، أمّاه، إذا متنا معاً سيكون ذلك أفضل، كان يقول، إلا أن بندثيون ألفارادو التي كانت تدرك بأنها الوحيدة المهدّدة بالموت، كانت تحاول البوح إلى ابنها بأسرار العائلة التي لم تكن ترغب في حملها معها إلى القبر، فروت له كيف ألقوا بمشيمته إلى الخنازير، نعم سيدي، والسبب الذي جعلني لا أتمكن أبداً من معرفة من كان والدك بين كلّ أولئك المتشردين، كانت تحاول أن توضح له من أجل التاريخ أنّه أنجبه

واقفاً من دون أن ينزع قبعة «الصمبريرو» بسبب الذباب المؤذي ذي الطنين المعدني ما بين أكياس تفل قصب السكر المتخمّر في غرفة داخلية لإحدى الحانات الحقيرة، ولقد قذفت بالصبي المسكين خلال أحد صباحات أغسطس في دهليز أحد الأديرة، وتعرفت عليه في ضياء قيثارات الجيرانيوم الحزينة وكانت خصيته اليمنى كبيرة بحجم حبّة تين، تفرغ مثل منفاخ وتصعّد زفرة «غايتا» مع التنفس، وكانت تفك له أقمطته، وتلبسه الخرق التي تقدمها له الراهبات، وتعرضه في الساحات أثناءالأعياد الشعبيّة آملة آن يدلّها شخص ما على دواء ناجع ويكون بالخصوص ذا سعر أرخص من العسل الذي كانوا يصفونه لها لمعالجة تشوّهه، كانوا يخدعونها بصيغ العزاء، لا يمكن للمرء أن يفلت من قدره، قيل لها، ووحدها عرّافة سِيْرك انتبهت إلى كون المولود لم تكن له خطوط على كفّه الأمر الذي يعني أنه أتى إلى العالم كي يكون ملكاً، وكان ذلك صحيحاً، غير أنّه لم يكن ليكترث بل كان يتوسل إليها أن تنام من دون أن تثير الماضي إذ كان من الأسهل عليه الاعتقاد بأنّ ذلك الطّعن في التاريخ الوطني لم يكن سوى هذيان سببته الحمّى، فكان يترجاها، نامي، أماه، ويغطيها من رأسها إلى قدميها بأحد الأغطية الكتانية الكثيرة التي كان يأمر بنسجها خصيصاً لكي لا تخدش جراحها، ويضعها على جنبها كي تنام ويدها على صدرها، ويواسيها أماه، انسي هذه الإزعاجات الصغيرة على أيّة حال أنا هو أنا، إذاً نامي هادئة البال. لقد باءت بالفشل كلّ التدخلات الرسمية العديدة والمضنية التي كانت تحاول خنق رأي الجمهور القائل بأن مُؤسسة الوطن كانت تتعفّن حيّة، فتم اللجوء إلى نشر أخبار زائفة غير أن ناشريها أنفسهم

كانوا يؤكدون حقيقة ما كانو يكذّبونه، أن بخار التّلف الرحميّ، يقولون، كان من الكثافة في غرفة المحتضرة بحيث شرّد حتى البرصى، وهم ينحرون الخراف لرشها بدم جديد، ويسحبون من فراشها أغطية مبللة بمادة تشبه صبغ دوار الشمس تسيل من جراحها غير أن تلك الأغطية التي تم غسلها مراراً وتكراراً لم تكن لتعود إلى تألقها الأصلي قطّ، بقطع النظر عن كون أحد لم يعد إلى رؤيته وهو يراقب حلب البقرات في الإسطبل ولا في غرف المحظيات كما كانت عادته في الفجر تحديداً طيلة أكثر العصور خطورة، ولقد جاءه كبير الأساقفة شخصيّاً ليقترح عليه منح الأسرار الأخيرة للمحتضرة لكنّه تركه هناك عند العتبة، لا توجد محتضرة هنا، يا أبت، فلا تصغ إلى الإشاعات، قال له، كان يشارك أمّه أكلها في الصحن نفسه وبالملعقة نفسها رغم جوّ مستشفى الطاعون الذي تعبق به الغرفة، كان يغسلها قبل أن يرقدها بصابون الكلب الوفي في حين كان قلبه يكف عن الخفقان بفعل الصدمة عندما كانت نسالة صوتها الأخيرة توصي بالاهتمام الذي يتوجّب توفيره للحيوانات بعد موتها، لا تنتفوا ريش الطواويس لصنع طاقيات، كلا أماه، كان يقول، ثم يطلي كامل جسمها بمطهّر للجروح، لا ترغموا الطيور على الغناء في الأعياد، كلا أماه، ثم يلفّها بالغطاء، اطردوا الدجاجات عن الأعشاش عندما ترعد السماء حتى لا تحضن حيّات بازيليسكوس[٢]، نعم أمّاه، ثم يرقدها على صدرها، نعم أماه، نامي مطمئنة، ويقبلها على جبينها، ثم يغفو طيلة الساعات المتبقية منبطحاً على الأرض قرب السرير، تحت رحمة هذا الاتجاه أو ذاك لنومه أو الهذيان الذي لا ينتهي والذي كان يزداد وضوحاً كلما ازداد اقتراباً من الموت فيعوّده ليلة بعد ليلة وبفعل

الغيظ المتراكم على تحمل الحنق الجنوني ليوم ذلك الاثنين المؤلم عندما أيقظه صمت العالم الرهيب في بداية الصباح ولما كفّت أمّه أمّ حياتي بندثيون ألفارادو عن التنفّس، عندئذ عرّى الجسد المقزّز واكتشف تحت الصياح المكتوم للديوك الأولى، صورة جانبيّة لجسد مماثل مرسوم على الغطاء ويده هو الآخر على صدره، ورأى أن الجسد المرسوم جانبيّاً لم يكن يمثل جراح الطاعون ولا فتك الشيخوخة بل كان صلباً وناعماً مثل رسم زيتي يغطّي وجهيْ الكفن، عابقاً بعطر طبيعي لزهور نديّة كان يطهّر الغرفة من أجواء المستشفى، وعبثاً دعكت مراراً وتكراراً بالرّمل ونقعت في الغسيل الغالي إذ لم يتم التوصل إلى محو صورة الغطاء لأنها كانت ملتحمة بالموضع على وجهه وقفاه ومتغلغلة في النسيج الكتاني، لقد أصبحت كتّاناً أبديّاً، أمّا هو فلم يكن في حالة صفاء كافٍ ليقدّر أهمية المعجزة، هجر الغرفة صافقاً الباب بحنق فدوّى مثل طلقة نارية، وعندها شرعت نواقيس الكاتدرائية تقرع بدقات الحزن وتبعتها دقات كنائس العاصمة ثم دقات سائر كنائس الأمة التي طنت بلا انقطاع طيلة مائة يوم، وأدرك أولئك الذين أيقظهم قرع الأجراس، من دون توهّم، أنه صار من جديد السيد الكلّي القدرة وأن لغز قلبه المعذّب بغيظ الموت كان يشمخ أقوى من أي وقت مضى ضد ذبذبة العقل والكرامة والتسامح، ذلك أن أمه، أمّ حياتي بندثيون ألفارادو ماتت في فجر ذلك الاثنين ٢٣ فبراير وكان قرن آخر من البلبلة والخزي قد بدأ في العالم. لم يكن أي منّا متقدماً في السن بما يكفي لكي يكون شاهداً على هذا الموت غير أن ضجّة المأتم بلغت عصرنا وكنّا نعلم من مصدر موثوق أنه لم يعد الشخص نفسه، ولم يعد لأحد الحق في تعكير صفاء نومه، نوم اليتيم،

حتى بعد المائة يوم من الحداد الرسمي، فلم يعد يشاهد في بيت الألم الذي اجتاحت جنباته رنّات الحزن القويّة، ولم تعد تقرع الأجراس في ساعات أخرى عدا ساعات حداده، كان الكلّ يتحدثون متنهّدين، وكان حراس المنزل يطوفون حفاة كما في سنوات عهده الأولى ووحده الدّجاج كان قادراً على التجوال حسب نزواته في البيت المحظور حيث كان السلطان غير المرئي يتآكل من الغيظ وهو على كرسي السوحر الهزاز بينما أمّه، أمّ روحي بندثيون ألفارادو تسير عبر قرى حارّة وبائسة في نعش محشو بالنشارة والثلج المسحوق لكي لا تتعفن أكثر من تعفّنها وهي على قيدالحياة، طافوا بالميتة تطوافاً احتفالياً حتى تخوم مملكته الأكثر نسياناً لكي لا يحرم أحد من حظوة تشريف ذكرها، وحملوها من مكان إلى آخر وجرجروها وسط التراتيل وأثواب الريح الحداديّة حتى محطات صحارى المرتفعات حيث استقبلتْها الجوقات الكئيبة نفسها والحشود الصامتة التي سبق أن جاءت في العصر المجيد لمشاهدة السلطة مختفية في المقطورة الرئاسية نصف المضاءة، وعرضت في دير البرّ والإحسان حيث سبق لمربية طيور، خلال نشأة الأزمنة الأولى، أن وضعت من أحدهم، وكما اتّفق، طفلاً تمكن من أن يصير ملكاً، وفتحت أبواب المعبد للمرّة الأولى منذ قرون، وقام جنود الخيالة بحملات على هنود القرى وأتوا بهم محجوزين، ودفعوهم بأخامص بنادقهم داخل جناح الكنيسة الواسع المفعم بشموس زخارف الزجاج الجامدة حيث كان تسعة أساقفة في أزياء احتفالية يرتلون قداس الظلمات، نامي بسلام في أمجادك، ينشد الشماسون وأطفال الكورس، سلام على رمادك، كانوا ينشدون، وفي الخارج كانت تمطر على أزهار الجيرانيوم، والراهبات يوزعن

«الغوارابو» مع خبز الموتى، كان هناك من يبيع لحم الخنزير، والسبحات وقوارير المياه المباركة تحت الأقواس الحجرية في الباحة، وكانت هناك موسيقى في حانات الزوايا المنسية، وكان ثمة غبار ورقص في الأروقة، كان ذلك يوم أحد، الآن والى الأبد، كانت الأعياد في مسارب الهاربين والمواكب الضبابيّة من حيث مرّت أمه، أمّ موتي بندثيون ألفارادو في حياتها متعقّبة ابنها المضايق من قبل الزوبعة الفيدرالية، ذلك أنها اعتنت به طيلة الحرب، فمنعت بغال الجنود من رفسه عندما كان ينهار فاقداً وعيه على الأرض وهو ملتحف بغطاء، متلفظاً بكلام فاحش تحت تأثير الحمّى، حاولت أن ترسّخ في ذهنه خوف الأسلاف القديم من الأخطار التي تُحدق بسكان الريف عندما ينزلون إلى مدن البحر المعتم، كانت تخشى حكام الأقاليم، والتماثيل، والسرطانات التي تشرب دموع المولودين الجدد، ارتجفت رعباً أمام أبهة بيت السلطة الذي تعرّفت عليه تحت الأمطار ليلة الهجوم من دون أن تتصور يومها بأنه سوف يكون مكان موتها، بيت العزلة حيث كان يعيش هو، وحيث كان يتساءل محترقاً بنار الغيظ وهو منبطح على الأرض إذاً أين تراك اندسست، أمّاه، في أيّة متاهة دغليّة إذاً تعرقل جسدك، من الذي يصطاد الفراشات حول رأسك، كان يتنهد، وقد أنهكه الألم، في حين كانت أمه بندثيون ألفارادو تبحر تحت ظلّة من أوراق أشجار الموز وعبر الرائحة المقزّزة المتبخّرة من المستنقعات لكي تُعرض في مدارس الرّيف العامّة، وفي ثكنات صحارى ملح البارود، وأكواخ الهنود، وكانت تعرض في بيوت الأغنياء قرب لوحة تمثلها عندما كانت شابة، لقد كانت غضّة وجميلة وقد زينت جبهتها بإكليل، وارتدت رغماً عنها طوقاً من

الدانتيلا، واستسلمت لوضع مسحوق الزينة وأحمر الشفاه من أجل تلك المناسبة تحديداً، ولقد دسوا بزهرة توليب في إحدى يديها لكي تمسكها هكذا، كلا، سيدتي، ليس كذلك، بل هكذا، بلامبالاة على الصدر، عندما التقط المصوّر الفينيسي الخاص بالملوك الأوروبيين الصورة الرسمية لسيدة البلاد الأولى التي عُرضت إلى جانب الجثة كدليل نهائي يبعد كلّ الشكوك حول أي استبدال، كانت الجثة والصورة متطابقتين، إذ لم يُترك أي شيء للصدفة، فتمّت إعادة تكوين الجسد بواسطة عمليات سرية بمجرّد انحلال التجميل وذوبان الجلد المتشقق بفعل تعرّض الشمع الأبيض للحرارة، فكانت ترفع عن جفنيها الرغوة خلال مواسم المطر، وكانت خياطات القوات المسلحة يتعهّدن فستان الميّتة بحيث بدا كأنه درز الليلة الماضية، ويحافظن بأناقة على إكليل زهور البرتقال وحلّة الزفاف وقد تعذر عليها ارتداؤها طيلة حياتها، ليس لأحدٍ في ماخور الشرّك هذا أن يتجرأ يوماً على القول بأنك كنت مختلفة عن صورتك، أمّاه، ليس لأحد أن ينسى بأنني أنا الآمر الناهي هنا إلى آخر القرون حتى في القرى الأكثر بؤساً على تخوم الغابة الرملية حيث شوهد بعد سنوات عديدة من النسيان مركب الدّولاب الخشبي القديم بكل أنواره مقبلاً عند منتصف الليل واستقبل بطبول عيد الخمسين إذ ظنّ القوم أنها العودة إلى الأزمنة المجيدة عاش الفحل، صرخوا، وارتموا في الماء مع حمل حيوانات الأرمديل[٤] السّمين، ويقطينة ضخمة بحجم الثور، وتسلق بعضهم حتى بلغ التخريمات الخشبيّة في الدربزين ليقدم ضريبة الولاء للسلطة اللامرئية التي تقرر مصير الوطن بحجارة النّرد ومكثوا منقطعي الأنفاس أمام نعش الثلج المسحوق والملح الخشن الذي كان يتكرّر على المرايا المذهولة

في قاعة الأكل الرئاسية، ويعرض أمام الجمهور تحت المراوح ذات الأجنحة في مركب النزهات الغابرة الذي أبحر شهوراً وشهوراً بين الجزر الوهمية في الروافد الاستوائية لكي يتيه نهائياً في عصر كوابيس حيث للغاردينيا مدارك عقلية وحيث الأغوانة تطير في الظلمات، فانتهى العالم، وغاص الدولاب الخشبي في الرمال الذهبيّة وتهشم هناك، وذاب الثلج، والملح أيضاً، وأخذ الجسد المتورّم يطفو جانحاً فوق حساء من النشارة، ورغم ذلك لم ينحلّ، بالعكس سيدي الجنرال، ذلك أننا رأينا السيدة أمك تفتح عينيها وكانت حدقتاها مضيئتين، كان لها لون الأقونيطن(٥) في شهر يناير وألق صخرة في ضوء القمر، ولقد شاهد أكثرنا شكاً، لوح زجاج النعش يغطّيه بخار أنفاسها، وكان ثمة عرق ندي ومعطّر يرشح من مسام جلدها، بل إننا تأكدنا من أنها كانت تبتسم، لا يمكنك أن تتصوّر الوضع سيدي الجنرال، فقد خيّمت حالة هلع، رأينا إناث البغال تلد، رأينا زهوراً فوق ملح البارود، رأينا الصمّ البكم مذهولين من معجزة أصواتهم ذاتها، معجزة، معجزة، كانوا يصرخون، هشموا زجاج النعش سيدي الجنرال وكادوا يقطعون الجثة ليتقاسموا الرفات المقدّسة، فتوجب علينا توجيه كتيبة من رماة القنابل اليدوية ضدّ الجموع المسعورة الصاخبة التي كانت تصل من مشاتل جزر الكاريبي مفتونة بالنبأ، أحرزت روح أمّه بندثيون ألفارادو من الله ملكة التصدّي لقوانين الطبيعة، فكانوا يبيعون خيطان كفنها وكتفيّاتها وماء وركيها، وصوراً لها وهي في زي ملكة، كان الشّغب من الجنون والاتساع حتى ليُخيَّل للمرء أنه يشاهد اندفاع كوكبة من ثيران وحشية حوافرها تتلف كلّ شيء لدى مرورها في جلجلة صاخبة كأنها زلزال عات بحيث أنك

تستطيع أن تسمعه من هنا لو أنك أرهفت السمع سيدي الجنرال، أحرى بك أن تنصت، فما كان منه إلا أن وضع يده على هيئة بويق خلف أذنه، فخفّ طنينها، أنصت باهتمام فسمع، أمّاه بندثيون ألفارادو، سمع الرعد اللامتناهي، رأى البركة الفائرة بالجموع الغفيرة حتى البحر، رأى سيل الشموع المضاءة التي كانت تطلع بنهار آخر أكثر إشعاعاً من ضوء منتصف النهار المتألّق، إذ أن أمّه، أمّ روحي بندثيون ألفارادو كانت تعود إلى مدينة رعبها القديم تماماً كما دخلتها في المرة الأولى خلال معمعان الحرب، ورائحة لحم الحرب النيئ، لكن بمنأى عن تبعات العالم إلى الأبد بما أنه أمر باقتلاع صفحات كتب المدارس المتعلّقة بحكّام الأقاليم الذين شُطبوا فيما بعد من التاريخ، ومنع التماثيل التي تمنعك من النوم، أمّاه، فكانت تدخل من دون جزع وراثي محمولة بحشد مسالم، كانت تدخل من دون نعش، تحت سماء مفتوحة، وفي هواء محظور عن الفراشات، مثقلة بذهب النذور الذي علّق على جسدها خلال الرحلة اللامتناهية التي أوصلتها من تخوم الغابة إلى مملكة سأمه الشاسعة المختلجة، وكانت مغطاة بكومة من العكاكيز الذهبية الصغيرة التي قدّمها المشلولون المعافون، ومطمورة تحت نجوم الغرقى الذهبية، وتحت أطفال رضّع من ذهب لنساء عواقر جاحدات توجّب عليهن أن يلدن على عجل خلف الأدغال، كما في الحرب، سيدي الجنرال، كانت تبحر جانحة وسط سيل جارف في هجرة توراتيّة لأمّةٍ تسير بأسرها لم تكن تجد أين ترتّب أدوات مطابخها، وحيواناتها، وبقايا حياة لا أمل آخر للخلاص فيها سوى الصلوات السريّة التي كانت بندثيون ألفارادو توجّهها إلى السماء خلال المعارك لتغيير وجهة الرصاص المسدّد إلى

ابنها، ذاك الذي انبثق من صخب الحرب وخرقة حمراء على رأسه صارخاً أثناء الفترات التي يبارحه فيها هذيان الحمّى عاش الحزب الليبرالي يا للفوضى، عاشت الفيدرالية المنتصرة، أيها «الغودوس» الأوباش، رغم أنه كان في الواقع منجذباً بفضوله الوراثيّ لمشاهدة البحر، مع هذا الفارق البسيط وهو أنّ جموع المعدمين الذين اجتاحوا المدينة مع جسد أمّه كانوا أكثر رعونة وهياجاً من كل الحشود التي اكتسحت البلاد خلال مغامرة الحرب الأهلية، أشد نهماً من رحى الحرب، أكثر هولاً من حالة الذعر، أفظع ما رأت عيناي طيلة تلك الأيام التي لا تحصى خلال أعوام سلطته التي لا تحصى، العالم بأسره سيدي الجنرال، انظر، يا للرّوعة. ونظراً لاقتناعه الذي ترسخ بالبداهة، فقد خرج أخيراً من ضباب حداده، شاحباً جامداً مغطياً ساعده بقماش أسود ومصمّماً على استخدام كلّ طاقات سلطته للحصول على تقديس لأمه بندثيون ألفارادو مستنداً إلى الحجج الدامغة على قداستها، فأوفد وزراءه المتعلّمين إلى روما، ودعا القاصد الرسولي من جديد كي يأتي لشرب الشوكولا وقضم البسكويت تحت أغادير نور العريشة المزهرة بنوار الجهنّمية، استقبله بلا تكلّف، وهو ممدد على أرجوحة نومه، عاريَ الجذع، متروّحاً بقبعته البيضاء، وكان القاصد الرسولي جالساً أمامه مع كوب الشوكولا الحارق، غير مكترث بالحرارة والغبار في نسمة الخزامى التي تكلّل جبّة أيام الآحاد بهالة من الأشعة، غير مكترث بالوهن الاستوائي، غير مكترث ببراز طيور المرحومة التي كانت تطير حرّة في جداول نور التعريشة، وكان يبتلع الشوكولا بالفانيلا ببطء شديد، ويقضم قطع البسكويت بخجل عروس محاولاً تأخير سم الجرعة الأخيرة المحتّم، وهو متصلّب على كرسي

السـوحر الذي ليس لأحد الحقّ في الجلوس عليـه، ما عـدا أنتَ، يا أبت، كما خلال تلك الأماسي الخبازيّة في الأزمنة المجيدة عندما كان قاصد رسولي آخر مسنّ وساذج يحاول هديه إلى دين المسيح باللّجوء إلى ألغاز مدرسية لـ توما الأكويني، مع هذا الفارق البسيط وهو كوني أنا الآن من ينصحك كي تهتـدي، يا أبت، إنه العـالم بالمقلوب، إذ أنني الآن أؤمن، قال، وكرر الجملة من دون تقطيب حاجبيـه، نعم الآن أؤمن، مع أنه في الواقع لم يؤمن بأي شيء سواء في الدّنيا أم في مكان آخر غير أنّ لأمه، أم حياتي، الحق في مجد التقديس نظراً لفضائلها في مجال التضحية وتواضعها المثالي، وكان شديد الإيمان بذلك بحيث لم يعتمد في التماسه على حماقات الغوغاء التي تؤكد بأن النجم القطبي كان يتحوّل باتجاه الموكب الجنائزي وأن الآلات الوتريّة كانت تعـزف من تلقاء ذاتها داخل الخزائن عندما تشعر بمرور الجثة، كلا لقد كان يعتمد في إثبات التماسه على فضيلة ذلك الغطاء الذي بسطه مثل شراع تحت تألق شهر أغسطس حتى يرى القاصد الرسولي الشيء الذي رآه بالفعل، مطبوعاً على نسيج الكتّان، رأى صورة أمّه بندثيون ألفارادو من دون آثار للشيخوخة ولا علامات للطاعون نائمة على جنبها ويدها على قلبها، وفوجئ تحت أصابعه برطوبة العرق الخالد، وشفط رائحة عطر زهور يانعة وسط جلبة الطيور المهتاجة بهبوب نسمة المعجزة، انظر إلى هذه الأعجوبة، يا أبت، كان يقول مبيّناً وجه الغطاء وقفاه، حتى الطيور تعرفها، غير أن القاصد الرسولي كان يتفحص الكتان باهتمام صارم استطاع به أن يكتشف رماداً بركانياً دنساً في المادة التي تعب من أجلها معلّمو المسيحية العظام، واستطاع أن يتبيّن نقائص طبع وحتى شكوك إيمان في كثافة

اللون، وأن يخضع لنشوة كرويّة الأرض متمدداً على قفاه تحت قبة كنيسة منعزلة في مدينة غير واقعية حيث لم يكن الزمن يمر وإنما يطفو، حتى اللحظة التي تشجع فيها على رفع عينيه عن الغطاء بعد نهاية تأمّل عميق لكي يعبّر عن رأيه بنبرة هادئة لكنها لا تغتفر أن الجسد المطبوع على الكتان لم يكن ناتجاً عن تدخل للعناية الإلهية رغبة منها في تقديم حجّة جديدة على رحمتها اللامتناهية، أبداً، يا صاحب السمو، إنه عمل رسام خبير في الفنون الجميلة والقبيحة وقد عبث بنبل سموكم، إذ أن هذه الألوان ليست ألوان فنان وإنما هي مستحضرات منزلية متداولة، طلاء للأبواب والنوافذ، يا صاحب السموّ، وتحت عطر الرّاتنْج الطبيعي الذي تمّ حلُّه في الدّهان كان هناك أثر هجين من بقايا صمغ البطم، كان ثمة بقايا جبس متخثر، وكان ثمة رطوبة ليست لها علاقة بنضح اختلاجة الموت الأخيرة كما جعلوه يعتقد وإنما هي رطوبة اصطناعية للكتّان المشبع بزيت بذور الكتان نفسه والذي تم خزنه في مواضع مظلمة، صدقني، أنا آسف، ختم القاصد الرسولي قوله على مضض، ولم يقدر على قول المزيد أمام ذلك الشيخ الصوّاني الذي كان يرمقه من دون استياء وهو على أرجوحة نومه، وقد أنصت إليه من قاع بركته الموحلة والموغلة في صمت آسيوي كئيب من دون حتى أن ينبس ببنت شفة كي يعارضه رغم أن لا أحد يعرف أفضل منه الحقيقة المتعلقة بالمعجزة الخفيّة للغطاء الذي دثّرتُكِ به بيديّ شخصياً، أمّاه، ولقد ذعرت من أول علامة في سكينة موتك إلى حد أنني فكرت بأن العالم إنما كان يستيقظ في أعماق البحر، لقد شاهدت المعجزة، سحقاً، ولكنه رغم ذلك اليقين لم يقاطع حكم القاصد الرسولي، بل إنه لم يكد يرمش بعينيه مرّتين من

دون أن يطبقهما كما يفعل الأرمديل، حسن للغاية، يا أبت، تنهّد خاتماً كلامه، كما تشاء، لكنني أنبّهك بأنك سوف تتحمّل مسؤولية كلامك، أكرر لك ذلك حرفياً حتى لا تنساه طيلة ما تبقى من حياتك الطويلة، سوف تتحمّل مسؤولية كلامك، يا أبت، أما أنا فأتبرأ من كل مسؤولية. ظل العالم غارقاً في ذلك الخمول طيلة ذلك الأسبوع من الشؤم حيث لم يكن يغادر أرجوحة نومه حتى من أجل تناول الطعام، كان يطرد الطيور الداجنة التي تجثم على جسمه بضربات المروحة، ويطرد هالات نور الجهنّميّة ظنّاً منه أنها طيور داجنة، ولم يستقبل أحداً، ولم يوعز بأي أمر، غير أن رجال الشرطة ظلّوا هادئين عندما قامت زمر من المتعصّبين المأجورين لحسابه بمهاجمة قصر القصادة الرسولية، فنهبوا متحف الذخائر التاريخية، وفاجأوا القاصد الرسولي غافياً يقضي القيلولة في ركن هادئ من الحديقة الداخلية، ثم جرّوه عارياً في الشارع، وتبرزوا فوقه سيدي الجنرال، تصوّر ذلك، لكنه لم يتحرّك من أرجوحة نومه، بل لم تطرف له عين عندما أنبئ سيدي الجنرال إنهم يصطحبون القاصد الرسولي على حمار في نزهة عبر الشوارع التجارية وكان طوفان حقيقي من مياه الغسيل يسكب عليه من أعالي الشرفات، وكانوا يصرخون به أيها اللوطي الكبير، يا مس فاتيكان، دعيني أنجب منك أطفالاً، أما هو فقد ظل على أرجوحة نومه مبعداً الطيور بظاهر يده، ولم ينهض إلا بعدما تركوا القاصد الرسولي نصف ميت فوق أكداس نفايات السوق العمومي، فظهر بساعده ذي القماش الحدادي الأسود متورّم العينين من الأرق في قاعة الاجتماعات مبعداً نسيج العنكبوت الحدادي بظاهر يده الأخرى، وأمر بوضع القاصد الرسولي على خشبة إنقاذ مع مؤونة ثلاثة أيام ثم

اتركوه يجنح باتجاه طريق الطرادات الأوروبية حتى يدرك العالم بأسره كيف ينتهي الغرباء الذين يهددون هيبة الوطن، وليتعلم البابا شخصياً من اليوم وإلى الأبد أن يكون بابا ممتازاً في روما بخاتم في إصبعه وهو على عرشه الذهبي، إنما هنا، أنا هو أنا، وأنا الآمر الناهي، سحقاً، لصاحب جبّة البراز. وكان الإجراء ذا فعالية، إذ قبل نهاية السنة نفسها تمت إجراءات تقديس أمه بندثيون ألفارادو التي عرض جسدها الكامل من أجل توقير الجموع في الجناح المركزي الأوسط للكاتدرائية الأولى، فرتّل نشيد المجد لله فوق المذبح، ونقضت حالة الحرب التي أعلنها على الكرسي الرسولي، عاش السلام، كانت الجموع تصرخ في ساحة الأسلحة، عاش الله، كانوا يصرخون، في حين كان هو يجري مقابلة احتفالية مع مندوب جمعيّة الشعائر، مؤسس الإيمان ومحركه، المونسنيور ديمتريو ألدوس، المعروف بالآرتيري، الذي عهدت إليه مهمّة التدقيق في حياة بندثيون ألفارادو حتى لا يتبقّى أدنى شك حول حقيقة قداستها، إلى الحد الذي تراه، يا أبت، قال له، مستَبْقياً يده في يده، لفرط ما شعر به من ثقة تجاه ذلك الحبشي الزيتوني اللّون الذي كان يحبّ الحياة فوق كل شيء، ويأكل بيض الأرمديل، سيدي الجنرال، القصّة نفسها، حتى أن الأبواب الأشد حراسة فتحت بلا تردّد بإيعاز منه كي لا يصطدم استقصاء محامي الشيطان بأية عقبة، كلا لم يكن يوجد أي شيء مخفي أو غير مرئي في مملكة سأمه الشاسعة إلا وكان حجة دامغة على أن أمّه، أمّ روحي بندثيون ألفارادو، كانت منذورة لمجد الهيكل، الوطن لك، يا أبت، وهو تحت تصرّفك، ولقد كان تحت تصرّفه طبعاً، فرض العسكريون النظام في قصر القصادة الرسولية حيث كانت تراوح كلّ يوم طوابير لا

تحصى من البرصى الذين كانوا يأتون ليظهروا جلودهم الجديدة فوق الجراح القديمة، وكان راقصو عيد القديس سان فيتو المسنّون يأتون لينفذوا الخيوط في الإبر أمام المتشككين، أما أولئك الذين اغتنوا من الروليت لأن بندثيون ألفارادو كانت تكشف لهم الأرقام الرابحة أثناء نومهم فكانوا يقبلون ليظهروا ثروتهم، بالإضافة لأولئك الذين تلقوا أخباراً من ذويهم المفقودين، والذين وجدوا غرقاهم، والذين لم يحصلوا على شيء قط وحصلوا الآن على كل شيء، جميعهم كانوا يأتون، جميعهم كانوا يتقاطرون بلا تعب على المكتب المفرط في الحرارة والمزخرف بديكور من البنادق القديمة لقتْل آكلي لحوم البشر، وسلاحف عصور ما قبل التاريخ وهي هِبة من السير راليغ، حيث كان الأرتيري ينصت إليهم من دون طرح أسئلة، من دون تدخّل، ناضحاً عرقاً، غريباً عن ذلك التعفّن لإنسانية في حالة انحلال تزدحم في المكتب وتخفف من كثافة الهواء بدخان سجائرها الرخيصة، كان يسجّل بدقة كل إثباتات الشهود ويجعلهم يوقعون عليها هنا، بالاسم الكامل، أو بعلامة صليب، أو مثلك أنت سيدي الجنرال ببصمة الإصبع، حسب الإمكان، المهم أن يتمّ التوقيع، إلى اللاحق، فيتقدّم اللاحق، شبيهاً تماماً بالسابق، كنتُ مسلولاً، يا أبت، يقول، كنت مسلولاً، يكتب الأرتيري، والآن اسمع كيف أغنّي، كنت كسيحاً، يا أبت، والآن انظر كيف أنطنط طوال النهار، كنت كسيحاً، كان يكتب بحبر لا يمحى حتى يبقى خطُّه القاسي بمنأى عن التّحويرات المستقبليّة إلى غاية انقراض الجنس البشري، كان عندي حيوان حيّ في بطني، يا أبت، كان عندي حيوان حي، كان يكتب بلا شفقة، متسمّماً بالقهوة المرّة، متسمّماً بالتبغ المفرط الجفاف في السيجار

الذي يشعله من عقب السيجار السابق، وكان مختلّ الهندام مثل ملاح زورق سيدي الجنرال، هذا الخوري فحل، نعم سيدي كان يقول، أنا فحل، لكل واحد ما وهبته السماء، كان يعمل بلا انقطاع، بلا أكل لكي لا يضيع الوقت ولغاية مجيء الليل، من دون أن يستريح أيضاً بعد انتهاء مهمّته إذ لا يكاد يخرج من حمامه حتى يُشاهد في حانات الميناء بجلبابه الممتلئ بالرقع المربّعة الأشكال، كان يصل موشكاً على الموت جوعاً، ويجلس إلى طاولة الخشب الطويلة ليتقاسم سمك البوكاتشيكو النهري المسلوق مع رجال الشحن، فكان يفتح السمكة بأصابعه ويسحقها حتى الحسك بتلك الأسنان الشيطانية المضيئة بنورها الخاص في الظلام، ويبتلع حساءه من الصحن مباشرة مثل الأجلاف تماماً سيدي الجنرال، لو أنك رأيته مع ذلك الخليط من الزنابير البشرية أصحاب المراكب الشراعية الدنيئة التي تبحر محمّلة بالقرود والموز الأخضر مع شحنة من المومسات الشابات لفنادق كوراساوْ البلّورية، وغوانتانامو، يا أبت، لسانتياغو دي لوس كاباليروس التي لا يمكن حتى بلوغها بحراً، ولأكثر الجزر جمالاً وحزناً في العالم تلك الجزر التي جعلتنا نحلم حتى بداية خيوط الفجر الأولى، يا أبت، تذكّر آه كم كنّا مختلفين عندما كانت سفن «الغوليت» ذات الأشرعة المربّعة تبحر، تذكّر، يا أبت، الببغاء الذي يستكشف المستقبل عند ماتيلد أرينالس، السرطانات التي تهرب ببطء من صحون الحساء، ريح أسماك القرش، الطبول النائية، الحياة، يا أبت، الحياة الحقيرة، muchachos، إذ أنه يتكلّم مثلنا سيدي الجنرال، كما لو أنه ولد في حارة معارك الكلاب، كان يلعب كرة القدم على الشاطئ، وتعلّم العزف على الأكورديون أفضل من قوم فاليدوبار[٦]، كان يغني

أفضل منهم، ولقد تعلّم اللغة المزهرة التي يجيدها بحارو المياه العذبة، كان يسخر منهم باللاتينية، ويسكر برفقتهم في أكواخ اللوطيين في السوق، ولقد تعارك مع شخص سوقي تلفّظ بما يمسّ اسم الله، فتشابكا مثل أرعنين سيدي الجنرال، فماذا نفعل، لا تفصلوا بينهما بالخصوص، قال آمراً، تحلّق القوم حولهما ثم إنه انتصر، الخوري هو الذي انتصر سيدي الجنرال، كنت أعرف ذلك، قال مرتاحاً، إنه فحل، وهو أقل طيشاً مما يتصوّر الكثيرون، وبالفعل فقد اكتشف من الحقائق خلال تلك الليالي الصاخبة بمقدار ما اكتشفه في قصر الضاحية المعتم عندما استكشفه من دون إذن، ذات ظهيرة طوفانية عندما ظنّ أنه خدع المراقبة اليقظة لرجال الخدمات الأمنية الرئاسية، ففتّشه من دون أن يترك أدنى فجوة مبلّلة بالمطر الذي كان ينزل من شقوق السقف، وكانت تنهشه مستنقعات المالنغا والكاميليا السامّة في الحجرات الرائعة التي كانت بندثيون ألفارادو تتخلّى عنها من أجل فرحة الخادمات، إذ أنها كانت طيبة، يا أبت، كانت متواضعة، وكانت تعطيهم من أجل النوم أغطية من البركال القطني الرقيق في حين كانت هي بالذات تنام على حصير بال وفوق سرير ثكنة سيئ، وكانت تتركهنّ يلبسن فساتينها وأثوابها الداخلية الخاصة بأيام الآحاد لسيدة البلاد الأولى، كنّ يتطيّبن بعطور حمّامها ويلعبن بالرغوة الملوّنة داخل المغاطس المزخرفة بالعساليج القصديرية، كنّ يعشن كالملكات في حين كانت هي شخصياً ترهق نفسها بتلوين الطيور، وطبخ اليخنة والبقول على موقد الحطب وزرع الأعشاب الطبية من أجل الحالات الاستعجالية لجيرانها الذين كانوا يوقظونها من عز النوم عندي مغص في المعدة، سيدتي، فتناولهم بذور رشاد لمضغها، ابني بالمعمودية يشكو

من انحراف البصر، فكانت تعطيه أوراقاً من نبتة رجل الأوزّ لطرد الدّود، أوشك على الموت سيدتي، ولكن لم يكن أحد ليموت إذ أنها كانت تمسك بالعافية بين يديها، لقد كانت قديسة حيّة، يا أبت، كانت تتحرّك ضمن مجال قداستها الخاص في قصر الرضى ذاك حيث ما أن نقلت رغماً عنها إلى مقر الرئاسة حتى هطلت الأمطار بقسوة، كانت تمطر فوق لوتس البيانو وعلى طاولة المرمر في قاعة الأكل الفاخرة حيث لم تجلس بندثيون ألفارادو قطّ إذ لو أنها فعلت ذلك لأحست أنها تأكل في مذبح كنيسة، تصوّر يا أبت، يا له من حدس قديسة، ورغم شهادات الجيران المحمومة فقد كانت قرائن الخوف التي وجدها محامي الشيطان بين الأنقاض أكثر من قرائن الخشوع وكانت الحجج على التخلّف الذهني أكثر من تلك التي تدل على إنكار الذات بين تماثيل نبتون الأبنوسية وحطام الشياطين المحلية والملائكة العسكرية التي كانت تخفق في قاعات الرقص وبالمقابل لم يجد أي أثر لذلك الإله الصعب، الواحد المثلث، الذي أرسله من آخر سهول الحبشة الملتهبة ليبحث عن الحقيقة في مكان لم يكن لها وجود فيه أصلاً، لأنه لم يجد شيئاً سيدي الجنرال، لا شيء، يا للحادث المؤلم. ورغم كلّ شيء لم يقتصر عمل مونسنيور ديمتريو ألدوس على تقصّي المدينة، بل إنه تسلّق حافات المرتفعات الثلجية على ظهر بغلة محاولاً أن يكتشف أصول قداسة بندثيون ألفارادو في الأماكن التي لم تتشوش فيها صورتها بعد ببريق السلطة، فكان ينبثق من الضباب متلفّعاً بدثار قاطعي الطرق منتعلاً جزمتي حلّ وترحال، فيلوح مثل تجلّ شيطاني يرعب، ثم يذهل وأخيراً يثير فضول القرويين الذين لم يروا قط كائناً بشرياً بهذا اللون، إلا أن الأريتري الماكر

كان يحضّهم على لمسه لكي يقنعهم بأنه لا ينزّ قطراناً، وكان يبرز لهم أسنانه في الظلام، ويسكر معهم متناولاً الحلويات شارباً «الشيشا» من الإناء نفسه لكي يكتسب ثقتهم في مطاعم الأمكنة المنسية الكئيبة تلك، حيث تعرّفوا قديماً وقبل قرون عديدة على مربية طيور بائسة ومعوزة كانت ترهق نفسها بحمل السلال الملأى بالصيصان الملونة بلون العندليب، وطيور الطوقان المذهبة، والغواشاراكا المتحوّلة إلى طواويس لتغشّ الفلاحين في أسواق الآحاد المأتمية المقفرة، كانت تجلس هناك، يا أبت، قرب حرارة الموقد، منتظرة أن ينعم عليها أحدهم بالنوم معها على أكياس تفل قصب السكر في خلفية الدكّان، لكي تأكل، يا أبت، فقط لكي تأكل، فما من أحد كان مغفّلاً ليشتري منها تلك القذارات التي كانت تنحلّ ألوانها تحت الأمطار الأولى وتعرج منذ خطواتها الأولى، لقد كانت هي وحدها الساذجة حقاً، يا أبت، كانت القديسة المباركة(٧) للطيور والصحارى، كما تشاء، إذ لم يكن أحد يعرف حق المعرفة ماذا كان اسمها في ذلك العصر ولا متى اختارت أن تلقب باسم بندثيون ألفارادو، وهو اسم لا يمكن أن يكون اسمها الأصلي لأنه ليس متداولاً هنا في المنطقة بل هو بالأحرى اسم بحّارة، يا للمصيبة، لقد تمكّن طفيلي الشيطان من معرفة كل ذلك أيضاً وهو الذي كان يكتشف كلّ شيء ويدخل كل مكان رغم قتلة الأمن الرئاسي المأجورين الذين كانوا يموّهون خيوط الحقيقة ويعرقلون خطاه بعقبات غير مرئية، وماذا لو ألقينا به في هوّة، سيدي الجنرال، ماذا لو دحرجنا بغلته، لكنه منع ذلك وأمر بمراقبته مع المحافظة على سلامته الجسدية أكرر محافظة على السلامة الجسدية /ترك حرية مطلقة/ كل التسهيلات/ إتمام المهمّة/ أمر قاطع سلطة

عليا/ طاعة وتنفيذ/ التوقيع أنا، وألحّ أنا شخصياً، مدركاً أن في قراره مجازفة فظيعة من شأنها أن تؤدي إلى كشف الصورة الحقيقية لأمه بندثيون ألفارادو في العصر المحظور عندما كانت لا تزال شابة، عندما كانت بضّة وتمشي حافية القدمين وترتدي الأسمال وعندما كانت مرغمة على أن تقتات بأسفل بطنها، لكنّها كانت جميلة، يا أبت، وكانت من السذاجة إلى حد أنها كانت تزيّن الببغاوات بريش ديوك أصيلة لكي تمرّرها على أنها غواكامايات(٨)، وتجدّد ريش الدجاجات المنتوفة بريش مراوح وريش طواويس لكي تبيعها على أنها طيور الجنّة، ولم يكن أحد ليصدّق ذلك، طبعاً، لم يكن أحد من السذاجة بحيث يقع في شرك مربية الطيور المنعزلة التي كانت تهمهم في ضباب أسواق الآحاد، إذا أخبرتني عن ثمنه أعطيتك إياه، كان الجميع في هذه الصحراء يتذكرونها بسبب سلامة نيتها وفقرها، ورغم ذلك فقد كان يبدو من المستحيل التحقق من هويتها، ففي محفوظات الدير الذي عمّدت فيه لم يتم العثور على ملفّ ميلادها وبالمقابل وجدت ثلاث شهادات، مصوغة ثلاث مرات في ثلاث مناسبات مختلفة، لابنها المولود ثلاث مرآت بفضل حيل التاريخ الوطني الذي موّه الحقائق حتى لا يتمكن أحد من كشف سرّ منبته وهو اللغز الخفيّ الذي لم يشتمّه من بعيد سوى الأريتري وحده وذلك بإبعاده للتّرهات المتراكمة فوق بعضها الواحدة تلو الأخرى، نعم لقد اشتمّ رائحة الحقيقة، سيدي الجنرال، كانت الحقيقة في متناول يده عندما دوّت طلقة النار القوية التي رنّ صداها في التلال الغبراء وفي شعاب الجبال العميقة، ولقد سمعنا صرخة الذعر اللامتناهي للبغلة التي كانت تهوي من ذروة الثلوج الأبديّة باتجاه هاوية

الدّوار عبر المناخات المتعاقبة آنياً في الجرف والمعروفة في العلوم الطبيعية، وعَبْر الينابيع الضيّقة للأنهار الكبيرة الصالحة للملاحة، والمنحدرات الوعرة التي كان علماء النبات في البعثة العلمية يتسلقونها على ظهور الهنود مصطحبين معهم كتب الأعشاب السريّة، والمرتفعات التي تنمو فيها نباتات المغنوليا البريّة حيث ترعى النعاج ذات الأصواف المعتدلة الحرارة والتي بالإضافة إلى لحمها السخيّ تقدم لنا عباءات الفرو والقدوة الحسنة، وبيوت مزارعي البنّ مع زخارف الورق على شرفاتها المتوحّدة ومع مرضاها الذين لا يكلّون، والهدير الأبدي للجداول الصاخبة عند التّخوم الجبلية هناك حيث تبدأ الحرارة وحيث مع مجيء المساء ترتفع نتونة ميت قديم مات غدراً، مات وحيداً في مزارع الكاكاو ذي الأوراق الكبيرة الدائمة والأزهار القرمزية والثمار التي تستخدم بذورها كعنصر مقوّم لصناعة الشوكولا، وحيث الشمس الجامدة التي لا تتحرك، والغبار المحرق، والقرعيات من بطيخ أصفر أو قرع، والأبقار الهزيلة الحزينة في مقاطعة الأطلنطيك في مدرسة البرّ والإحسان الوحيدة ضمن دائرة المئتي فرسخ، ورائحة البغلة التي لاتزال حيّة رغم أنها تهشمت مفرقعة كعصارة شهية بين أجمات الموز والفراريج الفزعة في أسفل الهاوية، سحقاً إذاً لقد قضوا عليه سيدي الجنرال، لقد أسقطوه مثل أيّلٍ في مضيق الروح المعذبة بسعير النار، بواسطة بندقية طويلة لصيد النّمور رغم برقيّاتي المتشددة، سحقاً إذاً، ولكنهم الآن سيرون ما أنا فاعل، كان يزمجر، ويمضغ رغوة من المرارة ليس غيظاً من عصيانهم فقط بل بسبب هذا اليقين: إذا كانوا قد تجرأوا على معاكسة صاعقات السلطة فمعنى ذلك أنهم يخفون عنّي أمراً جسيماً، كان يراقب أنفاس مخبريه مدركاً جيّداً أن الذي يعرف

الحقيقة هو وحده الذي سوف يتجرّأ على الكذب، وكان يرصد نوايا القيادة الخفيّة ليعرف الخائن من بين أعضائها، أنت الذي صنعتك من لا شيء، وأنت الذي أرقدتك على سرير من ذهب في حين كنت تنام على الأرض عندما التقيت بك، وأنت الذي أنقذت حياتك، وأنت الذي اشتريتك أغلى من أيّ كان، من منكم، هه، يا أبناء العاهرة، إذ بينهم، وبينهم، هم فقط، يمكن أن يوجد ذلك الذي تجرّأ على إلحاق العار ببرقية موقعة باسمي ومصدّقة بشمع خاتمي الأحمر، حتى إنه اضطلع شخصياً بقيادة عملية الاستعادة موعزاً بهذا الأمر القطعي أعطيكم مهلة ثمان وأربعين ساعة كحدّ أقصى لكي تجدوه حياً وتأتوني به إلى هنا وإذا ما وجدتموه ميتاً أرجعوه حياً وحتى إذا لم تجدوه جيئوا به رغم ذلك، كان الأمر من الوضوح والخشية بحيث أنهم قبل المهلة المحدّدة عادوا بالنبأ، سيدي الجنرال لقد وجدناه في أدغال الهاوية، جريحاً، وكانت أزهار الفريليخون[٩] الذهبيّة قد كمّدت جراحه، وهو أكثر صحّة منّا سيدي الجنرال، ظلّ سليماً معافى بفضل تدخّل أمّه بندثيون ألفارادو التي قدّمت مرّة أخرى برهاناً على رحمتها وسطوتها تجاه الشخص الذي حاول أن يسيء إلى ذكراها، ولقد حملوه عبر دروب هندية وهو في أرجوحة مشدودة إلى عصا طويلة محاطاً برماة القنابل اليدوية ومسبوقاً بشرطي كان وهو على صهوة حصانه يحرّك جلاجل قداس احتفالي لكي يعلم الجميع أن كل ذلك إنما كان بفعل إرادتي، ثم أنزل في قاعة التشريفات الرئاسية تحت المسؤولية المباشرة لوزير الصحّة حتى اليوم الذي تمكن فيه من وضع حد نهائي للملفّ الفظيع المكتوب بيديه والمذيل بحروف اسمه الأولى في الحاشية اليُمْنى لكل ملف من الملفات الثلاثمائة والخمسين

ولكل مجلّد من المجلّدات السبعة التي أدعي وأوقّع وأضمن أنها أصلية في هذا اليـوم الرابع عـشـر من أبريـل في سنة الربّ هذه، أنا، ديمتـريو الدوس، موفد جمعية الشعائر الدينية المقدّسة، مؤسس الإيمان وناشره، والمعيّن من قبل المؤسسة العظمى من أجل إشعاع العدالة الإنسانية على الأرض ومن أجل المجد الأكبر للربّ في السموات أؤكد وأثبت بأن هذه هي الحقيقة، كل الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، يا صاحب السمو، خذ، إنها هنا. كانت هناك، بالفعل، محبوسة داخل الأسفار السبعة المختومة بالشمع الأحمر، محتمة لا مفرّ منها وقاسية بحيث كان من غير الممكن إلا لرجل محصن ضدّ سحر المجد وغريب عن مصالح سلطته كي يتجرأ على عرضها عارية تماماً أمام الشيخ الهادئ الذي أنصت إليه من دون أن يقطب حاجبيه، وهو يتروّح جالساً على كرسي السوحر الهزّاز، الشيخ الذي لا يكاد يتنهّد بعد كلّ كشف قاتل، والذي لا يكاد يقول آه آه كلما رأى مصباح الحقيقة يضاء، آه آه، كان يكرّر، مبعداً ذباب نيسان المتهيج برائحة الغذاء، مبتلعاً حقائق كاملة ممتلئة بالمرارة، حقائق كالجمر كانت تبقى متقدة في ظلمات قلبه، إذ أن كل شيء كان مجرّد مقلب، يا صاحب السمو، مزحة فاحشة أوجدها هو ذاته من حيث لا يرغب عندما قرر أن تعرض جثة أمه من أجل التوقير العمومي في نعش ممتلئ بالثلج المسحوق وذلك قبل أن يفكّر أيّ كان في مزايا قداستك فقط لتكذيب الإشاعة المغرضة القائلة بأنك كنت تتعفنين قبل الموت، مهزلة «سيرك» وقع فيها هو شخصياً بعد أن جاؤوه بالنبأ سيدي الجنرال، إن أمك بندثيون ألفارادو تقوم بمعجزات، عندئذ أمر بنقل الجسد بإجراءات احتفالية حتى الزوايا الأكثر بعداً في مملكته الشاسعة الخالية من

التماثيل حتى لا يجهل أحد مكافأة فضائلك بعد أعوام طويلة، في إماتة الجسد، مرّت جدباء، بعد تلك الطيور الكثيرة المطلية بلا فائدة، أمّاه، بعد الكثير من الحب بلا متعة، صحيح أنني لم أفكر لحظة بأن أمري سيؤول إلى مهزلة أولئك المستسقين الذين يقبضون المال لكي يقوموا بعروضهم العمومية، لقد تم دفع مائتي بيزو لميت مزيف خرج من قبره وأخذ يزحف على ركبتيه بين الحشد المذعور، بكفنه البالي الممزّق وفمه ممتلئ بالتراب، كما تم دفع ثمانين بيزو لغجريّة تظاهرت بأنها تلد وسط الشارع مسخاً ذا رأسين عقاباً لها لأنها قالت إن المعجزات لم تكن سوى عمليات تجارية للحكومة، الأمر الذي كان صحيحاً، ذلك أن كل الشهادات تم اشتراؤها، والحال أن تلك الخرافة المخزية لم يحبك خيوطها المتملقون رغبة منهم في إرضائه كما افترض في البداية مونسينور ديمتريو ألدوس، كلا، يا صاحب السمو، بل كانت متاجرة دنيئة قام بها أنصاره، المتاجرة الأكثر خزياً والأشد رجساً من كلّ العمليات التجارية التي توالدت في ظلّ نظامه، ذلك أن مخترعي المعجزات ومشتريي الشهادات إنما كانوا أعوان نظامه الذين كانوا يهيّئون ويبيعون القطع المقدسة من أثواب زفاف المرحومة أمه بندثيون ألفارادو آه آه، وهم الذين كانوا يطبعون الصور ويسكّون الميداليات بصورتها وهي ملكة، آه آه، وهم الذين اغتنوا بخصلات شعرها، آه آه، وقوارير المياه المعبّأة من وركيها، آه آه، والأكفان ذات الأشكال المنحرفة التي كانوا يرسمون عليها جسم العذراء النائمة على جنبها ويدها على قلبها بواسطة دهان بسيط يستعمل لطلي الأبواب والنوافذ، وهي أكفان كانت تباع بالمفرّق في خلفيّة البازارات الهندية، وكانت تلك أكذوبة تعهّدها الوهم بأنّ الجثة

كانت تظلّ سليمة أمام العيون المتلهفة للحشود التي لا تنتهي والتي كانت تتقاطر على جناح الكاتدرائية، في حين أن الحقيقة كانت مختلفة عن ذلك تماماً، يا صاحب السموّ، لم تكن الفضائل الشخصية هي التي تحمي جسد أمك ولا عمليات الرتق بالشمع الأبيض ولا المكياج بالمواد التجميلية التي فرضها براً بوالدته، كلا، لقد عولج الجسد بأسوأ وسائل التحنيط كما تعالج حيوانات متاحف العلوم الطبيعية بعد موتها وكما تأكد من ذلك هو شخصياً بيديّ، أمّاه، فتحت جرّة الكريستال التي كانت شاراتها المأتمية تتفتت من التنفس، رفعت إكليل زهور البرتقال عن جمجمتك المتعطّنة التي اقتلعوا منها عرف المهرة شعرة شعرة لكي تباع كأجزاء مقدّسة، انتشلتك من بين خيوط بقايا العروس القديمة، من بين البقايا المتصلّبة، من بين مساءات ملح بارود الموت الصعبة فلم يكن وزنك سوى قشرة يقطين يبّستها الشمس، كانت رائحتك زنخة مثل رائحة قاع صندوق وكان هيجان محموم ينبعث منك كأنه ضجّة روحك، كان ذلك لمعان العثّ الذي ينخرك ويمزّقك، أعضاؤك انفصلت من تلقاء ذاتها عندما أردتُ أن آخذك بين ذراعيّ ذلك أنهم أفرغوا أحشاءك من كل ما يثبّت جسمك الحي، جسم الأم السعيدة النائمة ويدها على قلبها ثم حشوكِ بالليف بحيث لم يتبق منك سوى قشرة مغبّرة من عجين رقيق ما أن يرفعها المرء في الهواء المومض بحباحب عظامك حتى تتفتّت، وكان صوت وثبات البرغوث من عينيك الزّجاجيتين يكاد لا يسمع على بلاط الكنيسة الغسقيّة، تحولت إلى عدم، تحولت إلى حطام أمّ مقوّضة، جمعه مفوضو الشرطة برفش ليرموا به من جديد ومن دون ترتيب في النعش أمام هدوء الأعصاب الحجرية المتراصّة لدى المرزبان المطلسم الذي

لم تظهر عيناه الشبيهتان بعيني أرمديل أي انفعال حتى عندما وجد نفسه وجهاً لوجه في السيارة البرلينيّة الخالية من الرايات مع الرجل الوحيد على هذه الأرض الذي تجرأ على وضعه أمام مرآة الحقيقة، كان كلاهما ينظر عبر ضباب الستائر إلى جموع البائسين الذين كانوا يستريحون بعد حرارة الظهيرة في برودة المساء تحت الأقواس حيث كانت تباع قديماً نشرات مصورة تتحدّث عن جرائم شنيعة وقصص حبّ يائسة، وأزهار تأكل لحم البشر وثمار عجيبة تفلّ العزيمة، وحيث لم يعد يوجد الآن سوى سقط الأمتعة والذخائر المقدسة الزائفة المتأتية من ثياب أمه بندثيون ألفارادو وجسدها، في حين كان هو يعبّر عن الإحساس الصريح بأن مونسنيور ديمتريو ألدوس كان قد قطع عليه حبل أفكاره، بعد أن أشاح ببصره عن الرّعاع العاجزين، وتمتم هناك في نهاية الأمر حسنات في صرامة الاستقصاء الذي قمت به، وهو التيقّن من أن هؤلاء القوم البائسين يحبّون سموكم بمقدار ما يحبون حياتهم، فإذا كان مونسنيور ديمتريو ألدوس قد لمح الخداع داخل البيت الرئاسي، وإذا كان قد ضبط الجشع في التملق والعبودية الماكرة لدى أولئك المزدهرين في كنف السلطة، فقد اكتشف بالمقابل شكلاً جديداً من الحب لدى تلك القطعان من الحفاة الذين لا ينتظرون منه شيئاً بما أنهم لم يكونوا لينتظروا شيئاً من أيّ كان والذين يكنّون له عبادة أرضية يمكن تحسّسها باليدين، وتفانياً خالياً من الأوهام كُنّا نتوخّاهما منه تجاه الله، يا صاحب السموّ، لكنه لم يحرّك حاجبيه حتى من الدّهشة أمام كشف كان من شأنه في أزمنة أخرى أن يشنّج أحشاءه، بل إنه لم يتحسّر أيضاً واكتفى بالاجترار منشغل البال بقلق سرّي لم يكن ينقص سوى ذلك، يا أبت، أن يكفوا عن

محبتي الآن وأنت مهيأ للابتهاج مفكّراً في تعاستي تحت القباب المذهّبة لعالمك الخدّاع في حين سيظل هو هنا ينوء بحمل الحقيقة الذي لا يستحقه بلا أمّ ودودة لتساعده على حمله، أكثر وحدة من ناسك صحراء في هذا الوطن الذي لم أختره بنفسي وإنما أعطوه لي على الحال التي رأيته فيها وهي الحال التي كان عليها دائماً مع ذلك الإحساس باللاواقعية، ورائحة البراز، مع أولئك القوم الذين لا تاريخ لهم والذين لا يعتقدون سوى في الحياة، ذلك هو الوطن الذي فرض عليّ من دون استشارتي، يا أبت، مع أربعين درجة من الحرارة وثمان وتسعين في المائة من الرطوبة في ظلّ السيارة الرئاسية المنجّد، مع تنشق الغبار، معذّباً بمكر الفتق الذي يصدر صفير إبريق قهوة مكتوماً خلال الجلسات، من دون وجود شخص كي يخسر معه جولة دومينو، أو يسمع من فمه الحقيقة، يا أبت، ضع نفسك مكاني، لكنه لم يفصح عن شيء من كل ذلك، ولم يكد يتحسّر، لم يكد يجحظ بعينيه ويتوسل إلى مونسنيور ديمتريو ألدوس بأن يبقى حديثنا الصّريح في تلك الظهيرة سراً بيننا، لم تقل لي شيئاً، يا أبت، أنا لا أعرف الحقيقة، عدني بذلك، فوعده مونسنيور ديمتريو ألدوس بأنْ طبعاً سموكم لا يعرف الحقيقة؛ أعدك بذلك. ألغي تقديس بندثيون ألفارادو لنقص في البراهين وأذيع قرار روما من المنابر بترخيص رسمي في الوقت نفسه مع عزم الحكومة على قمع كل احتجاج أو محاولة لبثّ الفوضى، ورغم ذلك لم تتدخل الشرطة عندما عمدت جماعات الحجاج الساخطين في ساحة الأسلحة إلى إشعال النيران في الكاتدرائية الأولى ورجم ملائكة الزخارف الزجاجية ورسوم المصارعين في القصادة الرسولية، لقد أتلفوا كلّ شيء، سيدي الجنرال، لكنه لم يتحرّك من أرجوحة نومه،

حاصروا مدرسة الراهبات الباسكيات لكي يمتن شرّ ميتة، نهبوا الكنائس، ومقر الإرساليات، ولقد حطموا كل ما له أدنى علاقة بالكهنة، سيدي الجنرال، لكنه ظل بلا حراك في أرجوحة نومه تحت ظل الجهنّميات الندي حتى اللحظة التي أعلن فيها قادة أركان حربه أنهم غدوا عاجزين عن طمأنة الخواطر وإعادة النظام من دون إراقة الدماء كما سبق التصميم، عندئذ فقط نهض ولاح في مكتبه بعد شهور عديدة من التخلّي وتكبّد شخصياً بنبرة شفهية صريحة المسؤولية الرسمية في ترجمة إرادة الشعب بمرسوم صاغه حسب إلهامه الشخصي وفرضه على مسؤوليته من دون إعلام القوات المسلحة أو استشارة وزرائه، البند الأول، ينص على القداسة المدنية لبندثيون ألفارادو بقرار سام من الشعب الحر والسيد، ويضفي عليها لقب قديسة الأمة الشفيعة، شافية المرضى ومربية الطيور، مع اعتبار تاريخ ميلادها يوم عيد وطني، البند الثاني، بتاريخ إصدار هذا المرسوم تكون حالة الحرب قد أعلنت بين الأمّة وكل قوى الكرسي الرسولي مع كل النتائج التي تترتب في مثل هذه الحالة على حقوق الناس والاتفاقيات الدولية المعمول بها، البند الثالث، ينص على الطرد الفوري والعلني للسيد رئيس الأساقفة بما في ذلك طبعاً طرد جميع الأساقفة والمدبّرين الرسوليين والكهنة والراهبات، وكذلك كافة الأشخاص الأصليين أو الأجانب المرتبطين من قريب أو من بعيد بشؤون الربّ من دون تمييز بين الألقاب أو الأوضاع، على امتداد البلاد وحتى خمسين فرسخاً داخل المياه الإقليمية، البند الرابع والأخير، انتزاع ومصادرة ممتلكات الكنيسة، من معابد وأديرة ومدارس وأراض محروثة مع آلاتها وحيواناتها، وكذلك معامل التكرير والمصانع والورشات

بالإضافة إلى سائر الثروات المسجلة بأسماء مستعارة والتي تشكل من اليوم فصاعداً جزءاً من إرث ما بعد الوفاة للقديسة بندثيون ألفارادو الطيور من أجل تكريم عبادتها وتمجيد ذكراها بدءاً من هذا المرسوم المملى شفهياً والحامل لبصمة خاتمنا، خاتم السلطة السامية والمطلقة، أطيعوا ونفّذوا. وبين صواريخ الحبور وأجراس التّمجيد وعزف الموسيقى التي احتفلت بحدث التقديس المدني، حرص شخصياً على تطبيق المرسوم من دون تحايل أو التباس حتى يتلافى بكل يقين أن يذهب ضحية خداع آخر، وأمسك بعنان الواقع بواسطة قفّازي الساتان كما في أزمنة مجده عندما كان القوم يستوقفونه في الدّرج لكي يطلبوا منه إعادة سباق الخيل في الشارع وكان فوراً يعيده، موافق، لكي يطلبوا منه إرجاع سباق الأكياس وفوراً يعيده، موافق، وعندما كان يظهر في أكثر مزارع تربية المواشي بؤساً لكي يوضّح كيف يتوجب على الدجاج أن يحضن بيضه في الأوكار وكيف ينبغي خصي العجول، كلا، لم يكتف بالتدقيق الشخصي في عمليات الجرد الدّقيقة لممتلكات الكنيسة، بل إنه قاد الاحتفالات الرسمية بنزع الملْكيّة حتى لا تبقى أدنى نقيصة بين إرادته وتطبيق قراراته، وقابل بين حقائق الأوراق وحقائق الحياة الواقعية الخدّاعة، وراقب عملية طرد الطوائف الكبيرة التي ألصقت بها نية استخدام حقائب مزدوجة القاع ورافعات نهود مزيفة لسرقة كنوز آخر حكام الأقاليم السرية وإخفائها والتي كانت لا تزال مطمورة في مقابر الفقراء رغم الضراوة التي بحث بها الزعماء الفيدراليون عن تلك الكنوز طيلة سنوات الحرب، فلم يسمح لأي عضو من الكنيسة بحمل أي شيء آخر سوى بدلة واحدة ليس هذا فقط بل إنه أمر بأن يبحروا عرايا كما وضعتهم أمهاتهم،

وهكذا مرّ كهنة القرى الصارمون الذين لم يكونوا يهتمون بكونهم عراة أم مرتدين ثيابهم منذ اللحظة التي تغيّر فيها قدرهم، ومطارنة الإرساليات الذين فتكت بهم الملاريا، والأساقفة المرد الشرفاء، وخلفهم النساء، وأخوات البرّ الخجولات، والمبشرون المدربون والمعتادون على ترويض الطبيعة وعلى جعل البقول تنمو في الصحراء، والباسكيات الرّشيقات العازفات على البيان القيثاري وراهبات القديس ساليس ذوات الأيدي الناعمة والأجساد البكر الطاهرة، إذ حتى من أجسادهن العارية كان يمكن تمييز أصولهنّ الطبقيّة، وتنوع أوضاعهن وعدم تساوي وظائفهن بمجرّد تقاطرهنّ بين حزمات الكاكاو وأكياس السمك المملّح في مرآب الجمارك الواسع، وكنّ يعبرن مثل شياه خجولة في زوبعة من الفوضى وسواعدهنّ على شكل صليب فوق صدورهنّ في حين كانت كل واحدة تحاول إخفاء خجلها وراء خجل الأخرى أمام العجوز الذي كان يبدو كأنه قُدَّ من حجر وهو تحت أجنحة المراوح الهوائية ينظر إليهنّ بلا تنفس، ومن دون أن تغادر عيناه المجال الثابت الذي كان يتحتم على ذلك السيل من النساء العاريات أن يمرّ عبره وأخذ ينظر إليهن هادئ البال، من دون أن يحرّك حاجبيه، حتى مغادرة آخر واحدة منهن للتراب الوطني، إذ أنّهن الأخيرات سيدي الجنرال، ورغم ذلك فإنه كان يذكر تلك التي فصلها بنظرة واحدة عن قطيع الراهبات المذعورات، ولقد تمكن من تمييزها من بين الأخريات رغم أنها لم تكن مختلفة عنهن، كانت قصيرة وكبيرة البطن قوية، عجزاء ذات نهدين كبيرين صلبين ويدين مرتبكتين، وعضو جنسي منحدر، وشعر مقصوص بمقص البستاني، وأسنان منفرجة وحادة كأنها رؤوس بلطات، وأنف صغير، وقدمين فطحاوين، راهبة مثل

سائر الراهبات الأخريات، ورغم ذلك فقد شعر بأنها كانت المرأة الوحيدة التي مرّت أمامه في ذلك الزحام من النسوة العاريات من دون أن تنظر إليه تاركة أثراً غامضاً لحيوان متوحّش حمل معه الهواء الذي أتنفسه وما كاد يحوّل نظرته الخفيّة لكي يراها آخر مرّة حتى صاح الضابط المكلّف بفحص الهويات وقد وجد الاسم مسجلاً على القائمة بالترتيب الأبجدي نازارينو ليتيسيا، حاضرة، أجابت بنبرة رجل. وهكذا كانت له، حصل عليها من أجل بقية حياته، حاضرة، حتى اليوم الذي غربت فيه آخر تباشير الشوق والحنين خلف صدوع الذاكرة وحيث لم تبق سوى صورتها على قصاصة الورق الملفوفة التي كان قد كتب عليها يا ليتسيا نازارينو قلبي انظري في أيّة حال أنا من دونك وأخفاها في المخبأ الذي كان يخفي فيه عسله، وكان يعيد قراءتها عندما يتأكد بأن لا أحد يراقبه، ثم يلفها من جديد بعد أن يكون قد عاش من جديد ولفترة قصيرة تلك السهرة التي لا تنسى والمملوءة بالأمطار المشعّة عندما فوجئ بالنبأ أنهم رحّلوكِ، سيدي الجنرال بأمر لم توعز به أنت، ذلك أنه همهم فقط ليتسيا نازارينو وهو ينظر إلى سفينة شحن الرماد الأخيرة تغيب في الأفق، ليتيسيا نازارينو، كرر بصوت عال كي لا ينسى الاسم، الأمر الذي كان كافياً بالنسبة لرجال الخدمات الأمنية الرئاسية حتى يخطفوها من ديرها في الجامايكا، ويرسلوها مكممة وفي قميص مجانين جبريّ داخل كيس من الصنوبر مع أحزمة حديديّة وأختام بالشمع الأحمر وكتابة بالقطران سريع العطب do not drop this side up ورخصة تصدير حسب الأصول مع الإعفاء القنصلي لألفين وثمانمائة كوب شمبانيا من الكريستال الحقيقي مرسلة إلى مخزن مشروبات الرئيس، شحنوها في

رحلة عودتها في قعر ناقلة فحم ومددت عارية ومخدّرة على سرير ذي أعمدة في غرفة التشريفات كما كان عليها أن تتذكرها في الساعة الثالثة بعد الظهر تحت ضوء الكلّة الناموسية الطحيني، ولقد كان نومها هادئاً مثل الهدوء الطبيعي لنوم العديدات من النساء الأخريات اللواتي استعملهنّ من دون موافقتهن واللواتي ضاجعهنّ في تلك الغرفة من دون حتى أن يوقظهن إذ أن مفعول المخدّر كان قوياً جداً، مع إحساس فظيع بالضيق والضلال، مع فارق كونه لم يمس ليتيسيا نازارينو، بل أخذ يتأملها نائمة بنوع من الدهشة الطفولية وقد فاجأته تغيرات جسمها العاري منذ أن رآها في مرآب المرفأ، فقد جعّدوا شعرها، وحلقوا لها كل موضع بما في ذلك المنافذ الأكثر حميمية، ولقد طلوا أظافر يديها وقدميْها ببرنيق قرمزي، ووضعوا لها أحمر الشفاه، والحمرة على خدّيها والمسك على جفنيها فكانت تعبق بعطر ناعم يمحو تماماً آثار الحيوان المتوحّش الخفيّة، يا للحماقة، لقد شوهوها بمحاولة تجميلها، ولقد غيّروها إلى حدّ لم يعد قادراً على رؤيتها عارية تحت ذلك المكياج الأخرق عندما كان يتأملها ضائعة متخبّطة في نشوة المخدّر، ورآها تتخلص من آثاره، ورآها تستيقظ، رآها تنظر إليه، أماه، إنها هي، ليتيسيا نازارينو اضطرابي متحجّرة من الرعب أمام الشيخ الحجري الذي كان ينظر إليها بلا شفقة عبر بخار الكلّة الناموسية الرقيق وهي مذعورة من نوايا صمته اللامرئية إذ لم يكن بوسعها أن تكتشف أنه برغم سنواته التي لا تحصى وسلطته اللامحدودة كان مذعوراً أكثر منها، أكثر وحدة، أكثر حيرة، وعلى المقدار نفسه من الذهول والتجرد من السلاح كما في المرّة الأولى عندما أراد أن يكون رجلاً مع امرأة للجنود باغتها في منتصف الليل

وهي تستحم عارية في نهر واستطاع أن يتصوّر جموحها وبنيتها الجسدية بفضل شخيرها الشبيه بشخير الفرس بعد كل غطسة في الماء، كان يسمع ضحكتها السوداء المنعزلة في الظلام، كان يحسّ بجسدها يهلّل في الظلام لكن الخوف كان يشل حركاته ذلك أنه كان لا يزال بكراً رغم أنه كان ملازماً أوّل في المدفعية كان ذلك خلال الحرب الأهلية الثالثة، حتى اللحظة التي صار فيها الخوف من تفويت الفرصة أقوى من خوف الاقتحام فدخل الماء بكل عدته، لفافاته ومزوده وجعبة خراطيشه وساطوره والبندقية ذات الطلقة الواحدة، وكان معرقلاً بكل تلك الخردوات الحربيّة وكل تلك المخاوف الخفيّة بحيث ظنّت المرأة لأول وهلة أن الأمر يتعلقّ بفارس يجتاز النهر، غير أنها أدركت فوراً أنه لم يكن سوى رجل بائس مرتاع فاستقبلته في مرسى رحمتها الأمين، وناولته يدها في ظلام حيرته لأنه لم يكن يتوصل إلى معرفة الدروب في عتمة ذلك المرسى، وكانت ترشده بصوت أمومي تحت جنح الظلام تشبث جيداً بكتفيّ حتى لا يقلبك التيار، لا تقرفص في الماء بل اجثُ في عمق قواك كلّها وتنفس ببطء لكي تستريح قليلاً، فكان يقوم بما كانت ترشده إليه بطاعة صبيانية وهو يفكّر أماه بندثيون ألفارادو كيف سحقاً إذاً تفعل النساء كي يقمن بالأشياء كما لو كنّ يبتكرنها، ماذا يفعلن حتى يصرن على هذا القدر من الرجولة، كان يفكّر، في حين كانت هي تجرّده من الممتلكات غير المجدية المتأتية من حروب أخرى أقل هَوْلاً وأقل عزلة من هذه الحرب المتفرّدة في الماء البالغ حد الرقبة، كان ميتاً من الهلع وهو في حمى ذلك الجسد الذي يفوح برائحة صابون الرّاتنج عندما انتهت من فكّ مشبكيْ نطاقيْه ونزعت أزرار فتحة بنطاله وعندئذ مكثتُ متشنجة من

الهول إذ أنني بدل ما كنت أبحث عنه وجدت الخصية الضخمة التي كانت تسبح مثل ضفدع في العتمة، فتركته مرتاعة وابتعدت، عد إلى أمّك كي تعوّضك بآخر، صرخت به، أنت لا تصلح لشيء، عندئذ جمّده خوفه الوراثي الذي خذله أمام عري ليتيسيا نازارينو في ذلك النهر ذي المياه غير المرئية والذي لن يدخله ثانية حتى بكامل عدّته طالما لم تهبه نجدة رحمتها، غطاها بنفسه، ووضع أغنية دلغادينا المسكينة التي أغواها أبوها، على الغرامفون حتى أتلفت الثّلوم تماماً، وملأ الأصص بأزهار اصطناعية ليتلافى ذبولها كما الزهور الطبيعية تحت سحر يديها، وقام بكلّ ما كان يخطر بباله لكي يجعلها سعيدة محافظاً في الأثناء على صرامة الأسر وعقوبة العري إذ كان عليها أن تفهم بأنها سوف تخدم جيداً وتحبّ جيداً ولكن ليس لها أية إمكانية في الإفلات من قدرها، ولقد أدركت ذلك جيّداً بحيث أنها بعد انصرام لحظة الخوف الأولى أمرته من دون، إن شئت أرجوك أو أي شيء آخر، جنرال افتح هذه النافذة حتى يدخل قليل من الهواء المنعش، ففتحها، أغلقها إذ أن القمر ينعكس على وجهي، فأغلقها، كان يستجيب لأوامرها كما لو كانت أوامر حبّ مع خضوع وثقة متزايدين حتى شعر بأنه أقرب إلى تلك الليلة ذات الأمطار المشعّة حين تسلل إلى الكلة ونام قربها بكامل ثيابه من دون أن يوقظها، ولقد تمتّع وحيداً وطيلة ليال كاملة بفوحان جسدها الخفيّ، فكان يتنشق رائحة جسدها الشبيهة برائحة كلبة متوحّشة والتي ازدادت حرارة مع مرّ الشهور، كما نما زغب بطنها، استيقظت مذعورة وهي تصيح انهض من هنا، جنرال، فنهض allegro moderato[١٠] غير أنه عاد إلى النوم قربها أثناء نومها متمتعاً بها من دون لمسها طيلة

السنة الأولى من أسرها حتى اليوم الذي تعوّدت فيه على النهوض وهو بجانبها من دون أن تُدرك جيداً الوجهة التي تنوي اتباعها التيارات الخفية لذلك الشيخ المطلسم الذي هجر إطراءات السلطة ومباهج العالم لكي يكرّس نفسه لتأمّلها وخدمتها، وكلما ازدادت حيرتها أحس هو بالاقتراب أكثر من تلك الليلة ذات الأمطار المشعّة عندما كانت تنام وتمدد هو فوقها بالطريقة نفسها التي دخل بها إلى الماء، بكامل عدّته، وبزته الخالية من الشارات، وغمد سيفه، وحزمة مفاتيحه، ولفافاته وجزمتي ركوب الخيل مع المهماز الذهبي، اقتحام كابوسي أيقظها مذعورة في حين كانت تجهد نفسها للتخلص من ذلك الفارس المصفّح بلوازم حربيّة فوقها، ولكنه كان من الإصرار بحيث فضلت كسْب الوقت باللّجوء إلى محاولة أخيرة انزع عدّتك يا جنرال إذ أنك تهشم صدري بحلقاتك، فينزعها، انزع مهمازك يا جنرال إذ أنك تجرح عرقوبي بنجمته الذهبية، انزع مفاتيحك من نطاقك إذ أنها تدعك عظم وركي، وكان ينتهي بفعل كلّ ما كانت تأمره به، بل كان من الضروري أن تمر ثلاثة أشهر كي يقبل بخلع غمد السيف الذي يعرقل تنفّسي وشهر آخر لكي يخلع اللفافات التي تمزّق قلبي بحلقاتها، ولقد كانت المعركة بطيئة ومعقدة وكانت أثناءها تسوّف من دون أن تغيظه في حين كان هو ينتهي بالتنازل لإرضائها، بطريقة لم يدرك معها أيّ منهما أبداً كيف حدثت البليّة النهائية بعد الذكرى الثانية للأسر بقليل عندما وقعت يداه الفاترتان اللينتان مصادفةً على الحلي الذي تخفيه الراهبة النائمة التي استيقظت مضطربة بعرق شاحب وقشعريرة موت ولم تحاول صراحة أو غدراً أن تتخلص من الحيوان المتوحش الجائم فوقها ولكنّها واصلت

زحزحته متوسلةً إليه اخلع جزمتيك إذ أنك تلوث أغطيتي القطنية الرقّيعة، فخلعهما كما استطاع، اخلع لفافاتك، وبنطالك، وضمّادتك، اخلع ما تبقى يا حبيبي إذ أنني لا أتحسسك جيداً، وهكذا بحيث لم يدرك هو نفسه في أية لحظة ظلّ كما عرفته أمّه وحدها تحت نور قيثارات الجيرانيوم الحزينة، متخلصاً من الخوف، حراً، ومتحوّلاً إلى ثور «بيزون» مصارع حطّم في هجمته الأولى كلّ ما وجده أثناء مروره وتدحرج منبطحاً في هوّة من الصمت حيث لم تكن تسمع سوى قرقعة خشب في سفينة أسنان تكزّ، أسنان نازارينو ليتيسيا، حاضرة، وكانت قد تشبثت بكلتا يديها في شعري حتى لا تموت وحيدة في الدوار السّحيق حيث يمكن أن أشرف على الموت قي قعره منجذباً في الوقت نفسه وبالعنف نفسه إلى نداءات الجسد الطارئة الملحّة، ومع ذلك فقد نسيها، وبقي وحيداً في الظلمات باحثاً عن ذاته في ماء دموعها الأجاج، جنرال، في خيط لعابه البقري الوديع، جنرال، في ذهول ذهوله المتعلّق بـ أمّاه بندثيون ألفارادو كيف استطعتُ العيش كل هذه الأعوام من دون معرفة هذا العذاب الجميل، كان يبكي، مذهولاً برغبات صُلبه وسَيْل مفرقعات في معدته، والتمزّق القاتل للمجسّة الناعمة التي استأصلت أمعاءه وحوّلته إلى بهيمة منحورة كانت وثبات احتضارها تلطخ الأغطية البيضاء بسائل ساخن وحامض أفسد في ذاكرته هواء الزّجاج السائل لتلك الليلة ذات الأمطار المشعة تحت الكلّة، ولقد كان برازاً، جنرال، وذاك البراز إنما كان برازك.

الهوامش:

١- سترة طويلة تشبه ثوب كهنة المعابد (Levita) .
٢- الأخطاء مقصودة (المترجم) .
٣- Basiliscos عن اليونانية basiliko (ملك صغير) حيّة أسطورية تفقس من بيضة ، يبيضها ديك وتحضنها ضفدعة! ونسب إليها القدامى قوة نظر خارقة وشبهوها بالملك لسطوتها .
٤- Los Amadillos جنس حيوانات درعاء من آكلات النمل .
٥- نوع من الأعشاب السامة .
٦- Valledupar مدينة كولومبية مشهورة بأغانيها الشعبية المصحوبة بعزف الأكورديون .
٧- بندثيون Bendicion تعني «البركة» .
٨- ببغاوات كبيرة ذات أذناب طويلة وألوان زاهية .
٩- Frailejones : نبات ينمو في المرتفعات الأندينية ، يصل ارتفاعه إلى مترين ويستخرج منه نوع من المادة الصمغية الثمينة .
١٠- تعبير موسيقي بمعنى «سريعاً معتدلاً» .



قبيل هبوط الليل بقليل، عندما كنا ننهي إخلاء القاعات من هياكل الأبقار التي نخرها الدود وترتيب تلك الفوضى الغريبة، لم نكن قد توصلنا بعد إلى جعل الجثة تبدو ذات صورة متطابقة مع أسطورتها. ولقد كشطناها بسكاكين خاصة ببرش السمك كي نزيل عنها لشك[١] الأعماق البحرية، وغسلناها بمطهّر «الكريولينا» والملح الصخري لإزالة بقع التفسّخ، وذررنا النشاء على الوجه لإخفاء رقع الكتّان ونزّ البرافين[٢] وبذلك تمكنا من ترميم وجهه الذي نقرته طيور الزّبل، ولقد أعدنا له لون الحياة بواسطة مساحيق التجميل وأحمر الشفاه، غير أن عيني الزجاج المرصعتين في المحجرين الفارغين لم تتوصلا إلى إكسابه سيماء الهيبة التي كانت تنقصه حتى يعرض ويتأمله الجمهور. في غضون ذلك، كُنّا في قاعة المجلس الوزاري ندعو إلى اتحاد الجميع ضدّ استبداد القرون كي نتقاسم غنيمة سلطته بالتساوي، إذا أنّ الجميع كانوا قد عادوا وقد جذبهم نبأ موته السرّي الذي لم يكن بالإمكان كبحه، ولقد جاء الليبراليون والمحافظون متفقين حول موقد أمل واحد بعد سنوات عديدة من الطموحات الخائبة، وكذلك جنرالات القيادة العليا الذين فقدوا إشراق السلطة، والوزراء المدنيون الثلاثة الأخيرون، وكبير الأساقفة، جميع أولئك الذين كان يمقتهم كانوا متحلقين حول طاولة خشب الجوز الطويلة، محاولين الاتفاق فيما بينهم على طريقة نشر نبأ هذا الموت الهائل إذا

كانت هناك رغبة في تلافي الانفجار المبكّر للحشود في الشارع، في البداية نشرة أولى أثناء الليل تتعلق بمضاعفات صحيّة خفيفة أدّت إلى إلغاء الالتزامات العمومية والاجتماعات المدنية والعسكرية لصاحب السموّ، ثم نشرة صحية ثانية تعلن بأن المريض العتيد قد وجد نفسه مرغماً على ملازمة مقر سكناه الخاص نتيجة وعكة لها علاقة بسنّه، ختاماً، ومن دون أيّ تبليغ مسبق، قرعة الحزن العنيفة من أجراس الكاتدرائية فجر ذلك الثلاثاء الحار من شهر أغسطس معلنة عن موت رسمي لن يتمكن أحد أبداً أن يتأكد من مصدر موثوق بأنه إنما كان في الواقع موته. ولقد وجدنا أنفسنا فاقدين الحيلة أمام هذه البداهة، ومتورطين تجاه جسد نتن لم يكن بوسعنا تعويضه في هذا العالم لأنه سبق وأن رفض طيلة مرحلة شيخوخته الرئاسية أن يتخذ أي قرار يحدّد مصير الوطن بعد وفاته، ولقد قاوم بعناد الشيخ المتصلب كلّ الاقتراحات التي قدمت له منذ أن انتقلت الحكومة إلى مباني الوزارات ذات الزجاج البرّاق وظل هو وحيداً في بيت سلطته المطلقة المهجور، وكنا نلتقيه ضائعاً في أحلامه، سابحاً بين حطام البقر وليس له أحد يأمره باستثناء العميان والبرصى والمشلولين الذين لم يكونوا يموتون من المرض وإنما من الشيخوخة بين أشجار الورد، ورغم ذلك فإنه كان شديد الصحو والعناد بحيث كنا حين نعرض عليه الحاجة الملحة إلى تعيين خليفته لا نحصل منه سوى على التهرّب والإرجاء، التفكير فيما سيكون عليه العالم بعدك له طعم الموت نفسه، سحقاً إذاً، وعلى أية حال حين أموت سوف يعود السياسيون لاقتسام الغنيمة كما في زمن الغودوس[٣]، سوف ترون، كان يقول، كل شيء سوف يستعيده الخوارنة والغرينغو[٤]

والأغنياء ولا شيء للفقراء، طبعاً، لأنهم لن يمتلكوا شيئاً مطلقاً وفي اليوم الذي سيصير فيه للبراز أدنى قيمة فإنهم سوف يولدون بلا مؤخرات، سوف ترون، كان يقول ذاكراً اسم شخص من أزمنة مجده، وساخراً أيضاً من نفسه كما ذات مرّة عندما قال لنا مقهقهاً لن أبقى ميتاً أكثر من ثلاثة أيام إذ لا أرى فائدة في النزهة حتى القدس كي أدفن في قبر السيد المسيح، ولكي يضع حداً لكل خلاف كان يأتي بالحجة النهائية لا أهمية لأن يكون الشيء غير حقيقي في عصر ما، سحقاً إذاً، فمع مرور الزمن سوف يصير كذلك. وكان على حق، إذ لم يكن يوجد أحد في عصرنا ليضع شرعية تاريخه موضع شك، ولا أي شخص آخر كان بمقدوره إثبات تاريخه أو تكذيبه بما أننا لم نكن قادرين حتى على إثبات هوية جسده، ووطننا الوحيد كان ذلك الذي شيّده على صورته وعلى شاكلته مع المكان المغيّر والزمان المحوّر بتدابير إرادته المطلقة التي أعاد تشكيلها انطلاقاً من بدايات ذاكرته الأكثر ريبة عندما كان يتيه في بيت الفضائح ذاك، حيث لم يغمض لكائن سعيد جفن، وكان يلقي بالذرة للدجاجات التي تلتقط الحب حول أرجوحته، ويثير سخط الخادمات بأوامره المتناقضة أحضري لي شراب الليمون مع الثلج ثم يتخلّى عنه كاملاً في متناول يده، ارفعي هذا الكرسي من هنا واجعليه هناك ثم كلا أعيديه إلى حيث كان، نافخاً بطلباته الصغيرة في الجمر الفاتر لنزوته الكبرى في القيادة، ممضياً أوقات فراغ سلطته في تمشيط متأنّ للحظات الهاربة من طفولته النائية، في حين كان يهزهز برأسه من النعاس تحت شجرة القابوق في الباحة، وكان يستيقظ فجأة عندما ينجح في التشبث بذكرى مشابهة لقسم من أقسام لعبة

«الرومبيكابيزا»[٥] التي لا حدود لها والمتعلقة بالوطن الممتد أمامه، الوطن الكبير، الهارب، والذي لا تخوم له، مملكة أشجار قرام[٦] ومراكب جذعيّة بطيئة وجروف تعود إلى عصر لم يكن قد أتى فيه إلى الوجود بعد وكان الرجال من الشجاعة بحيث كانوا قادرين على قتل تماسيح «الكايمان» بأيديهم وذلك بواسطة وتد يغرزونه في أشداقها، هكذا، كان يفسر لنا ذلك وسبّابته باتجاه القصر، ويروي لنا أنه ذات جمعة مقدّسة سمع صوت تقصّف الريح وشم رائحته، ورأى أرجال الجراد تسوّد السماء في منتصف النهار، وتقرض كل شيء في طريقها، تاركة العالم مجتزاً والنور ممزّقاً كما في عشيّة الخلق، لقد عاش تلك الكارثة، ورأى صفاً من ديوك بلا رؤوس معلقة من قوائمها وهي تنزف قطرة قطرة تحت التسقيفة الأمامية لبيت ريفي كبير كانت امرأة قد ماتت فيه لتوّها، ولقد تعقّب حافياً، وهو يمسك بيد الأم، تلك الجثة البالية الثياب التي حملوها بلا نعش إلى المقبرة فوق نقالة خشبية قرضتها عاصفة الجراد، وكان الوطن أيضاً كذلك، لم يكن لدينا نعش، لا شيء، بل إنه رأى رجلاً حاول أن يشنق نفسه بحبل مشنوق آخر وُجد معلّقاً في شجرة تتوسّط ساحة ريفية غير أن الحبل المهترئ انقطع قبل الأوان تاركاً ذلك المسكين يحتضر في الساحة تحت أنظار السيدات المذعورات اللواتي كن يخرجن من القدّاس، ورغم ذلك لم يكن الرجل قد مات، إذ تمّ إنعاشه ضرباً بالعصا من دون عناء التدقيق في هويته ففي ذلك العصر لم يكن أحد يعلم منْ كان مَنْ إذا لم يُتعرف عليه في الكنيسة، ولقد أوثقوه من عرقوبه بخشبتي نير صيني، وهجروه تحت الشمس والندى مع رفاق عذاب آخرين، هكذا كانت أزمنة «الغودوس» حيث كان الله يحكم أكثر من الحكومة، تلك

الأزمنة الرجيمة في الوطن قبل أن يعطي الأمر بقطع كل أشجار الباحات في القرى لتلافي المشاهد الفظيعة لمشنوقي أيام الآحاد، ولقد منع عقوبة الأطواق الحديدية، والدفن بلا نعش، وكلّ ما كان من شأنه أن يوقظ في الذاكرة القوانين المخزية السابقة لسلطته، وأمر بإنشاء قطار الصحارى المرتفعة كي يضع حداً للمشهد الدّنيء المتعلّق بالبغلات المذعورات على طول منحدرات التلال، البغلات التي كانت تحمل على ظهورها آلات بيانو مذيّلة من أجل الحفلات التنكرية الراقصة في مزارع البنّ، ذلك أنه شاهد أيضاً كارثة ثلاثين بيانو تهشمت في الهاوية وهي قضية كتب عنها وقيل عنها الكثير حتى فيما وراء الحدود بالإضافة إلى كونه كان الوحيد الذي قدّم شهادة حقيقية، بما أنه كان قد انحنى صدفة على الستارة في اللحظة نفسها التي زلقت فيها آخر بغلة وجرّت معها الأخريات إلى الهاوية، كان إذاً الوحيد الذي سمع صوت صرخة الفزع تنطلق من تلك البهائم المنحدرة باتجاه الهاوية وكذلك التساوق الموسيقي اللامتناهي من آلات البيانو التي تدحرجت مع البغلات مدوية بالرّنين، وحدها، في الفراغ، آلات بيانو تندفع نحو قعر وطن كان حينها كسائر الأوطان قبله هو، شاسعاً، ومتقلّباً بحيث كان من المتعذّر التمييز بين الليل والنهار في ذلك الغسق الأبدي المتشكل من كثافة بخار الأعماق الساخن حيث تحطّمت آلات البيانو المستوردة من النمسا، نعم لقد شاهد ذلك المشهد مع مشاهد أخرى كثيرة في ذلك العالم النائي بل إنه لم يتمكن حتى من التحديد بدقة إن كان الأمر يتعلق فعلاً بذكريات شخصية أم أنه استمع إليها تروى في ليالي حمّى الحروب أم أنه اكتشفها في صور كتب الرحلات التي كان يمكث أمامها منتشياً طيلة

ساعات الاستراحة في سكينة السلطة، ولكن ليس لكل ذلك أهميّة، يا للفوضى، سترون كيف أنه مع مرور الزمن سوف يصير حقيقياً، كان يقول، مدركاً أن طفولته الحقيقية ليست مجرّد ذلك المستنقع من الاستحضارات الغامضة التي كانت تنبجس مع ارتفاع دخان الروث والتي كان ينساها فيما بعد إلى الأبد وأنما هي في الحقيقة تلك الطفولة التي عاشها في المرسى الأمين لزوجتي الشرعية الوحيدة ليتسيا نازارينو التي كانت تجلسه كل ظهيرة من الساعة الثانية إلى الرابعة على طاولة مدرسية تحت تعريشة الجهنّمية لتعلّمه القراءة والكتابة، ولقد وظّفت كل ما كانت تتميز به من عناد الراهبات في ذلك المشروع البطولي في حين كان هو بالمقابل يكافئها بأناة الشيخ المدهشة وإرادة سلطته التي لا حدود لها، وبكل قلبي، بحيث كان ينشد مردداً من كل قلبه طار طربوش الجدّ حطّ الزيز على الزيزفون القلنسوّة حسنة الصقل كان يردّد من دون أن يسمع نفسه أو يسمعه أحد في جلبة طيور الأم المتوفّاة التي يسكب لها الهندي النشاء في الصفيحة، أبي يملأ غليونه تبغاً، سيسيليا تبيع السكر والسكاكر والسمن والسمّاق والسمك والسجق والسلق، ويضحك، سيسيليا تبيع كلّ شيء، مكرّراً في صرير الزيزان درس القراءة الذي كانت ليتسيا نازارينو ترتّله مع آلة توقيت موسيقية للراهبات حتى اللحظة التي أشبعت فيها كائنات صوتك جوّ الكون ولم تعد توجد حقيقة أخرى في مملكة سأمه الشاسعة سوى الحقائق النموذجية للأبجدية، لم تعد توجد سوى الشمس في السمت، الموز واللوز، ثارت ثائرة الثور، قلنسوة أوتيليا الجميلة، وهي دروس القراءة التي كان يرددها في كل آن ومكان، مثل صوره الموجودة في كل آن ومكان، وحتى في حضور وزير المالية

الهولندي الذي فقد رشده أثناء زيارة رسمية عندما رفع الشيخ الكئيب يده بقفاز الساتان في ظلمات سلطته التي لا تسبر أغوارها وقاطع الجلسة ليدعوه إلى الغناء معي، أمّي تزيل همّي، أمضى إسماعيل ستة أيام في الجزيرة، السيدة تأكل الطماطم، مقلّداً بسبابته إيقاع آلة التوقيت ومستظهراً درس يوم الثلاثاء بإلقاء سليم وحس موغل في فرصة غير مناسبة بحيث انتهى اللقاء كما أراد له أن ينتهي مع التأجيل، إلى ظروف أخرى مناسبة فيما بعد لدفع الأموال الهولندية، عندما يتوافر لنا الوقت قرّر، أمام دهشة البرصى والعميان والمشلولين الذين استيقظوا في بداية الصباح بين أشجار الورد المغطاة بالثلج ورأوا شيخ الظلمات يهب بركاته الصامتة ويغني بتكرير ثلاثي الإيقاع وائتلاف قداس احتفالي، أنا الملك المفتون أحترم القانون، كان يغنّي، مقدس هو، كلّ من يعاقر الخمور، كان يغنّي، المنارة برج مرتفع ومزوّد بمصدر إضاءة يهدي البحّار ليلاً، كان يغنّي، مدركاً أنه لا وجود لزمن آخر في ظلال سعادته الهرمة غير زمن ليتسيا نازارينو حياتي في وقت القيلولة الخانق الذي يشبه غليان سمك الجمبري ولهو العشاق، وكانت رغبته الوحيدة أن يجد نفسه عارياً معك على هذه الحصيرة المبلّلة بالعرق وتحت الخفاش الأسير في المروحة الكهربائية، لا نور آخر غير نور ردفيك يا ليتسيا، لا شيء آخر غير نهديك الوثنيين، وقدميك الفطحاوين وغصن الفيجن[٧] علاجاً، أثناء شهور يناير المزعجة في جزيرة أنتيغوا، هنالك حيث ولدت يا ليتسيا في صباح عزلة متقد بريح محرقة تهب من المياه الآسنة، وحيث اختليا داخل قاعة التشريفات مع الإيعاز بألا يقترب أحد أكثر من خمسة أمتار لأنني سأكون مشغولاً جداً بتعلّم القراءة

والكتابة، وهو الأمر الذي حصل فلم يقاطعه أحد حتى لإخباره بأن الحمّى الصفراء سيدي الجنرال تحصد سكان أريافنا في حين كان إيقاع قلبي يتجاوز إيقاع آلة التوقيت بسبب الإغراء الخفي المنبعث من رائحة الحيوان الوحشي الفائحة منك، وهو يغنّي القزم يرقص على قدم واحدة، البغلة تذهب إلى الطاحون، أوتيليا تغسل الدّلو، سيارة تكتب بالسين مثل سار، بينما كانت ليتسيا نازارينو تبعّد الخصية المفتوقة لتنظف بقايا براز الجماع الأخير، فكانت تغطسه في الماء المطهر داخل الحوض ذي العساليج القصديرية وتدلكه بصابون إنكليزي، وتزيل وسخه بقفّاز مصنوع من الشعر، ثم تغسله بمادة مستخرجة من أوراق مغلاة وهو في الأثناء يغني بإيقاع مزدوج، طابة طبل طبال تكتب بالطاء، كانت تدهن له مفاصل ساقيه بزبدة الكاكاو كي تخفف عنه آلام خدوش الضماد، وترش له النجم المتجعّد في مؤخرته بحامض البوريق وتضربه على مؤخرته مثل أم حنون خذ هذه عقاباً لك لأنك تصرّفت مثل ولد مشاكس مع الوزير الهولندي، وطلبت منه على سبيل التوبة أن يسمح بعودة إرساليات البرّ والإحسان حتى تهتم من جديد بملاجئ اليتامى والمستشفيات والجمعيات الخيرية الأخرى، لكنه نفث عليها من نيران حقده الشديد، بلا حماقات، أجابها متنهّداً، ولم تكن هنالك سلطة في هذا العالم ولا في العالم الآخر قادرة على إرغامه على تحوير قرار سبق له أن اتخذه بصوت عال، وطلبت منه في الساعة الثانية ظهراً وفي عزّ نسمات الحب، هبني على الأقل شيئاً، يا حياتي، شيئاً واحداً، أن تعود الجمعيات الدينية التي تعمل بعيداً عن مشاغل السلطة إلى مناطق الإرساليات التبشيرية، لكنه أجابها وهو في غمرة حمحمات الزوج

المستحرم بلا حماقات يا حبيبتي، أفضّل الموت على أن تهينني تلك القافلة من ذوي الجبائب الذين يتخذون من الهنود بغالاً ويمتطون ظهورهم ويقايضون قلادات من زجاج بحلقات من ذهب يضعونها في أنوفهم أو في آذانهم، بلا حماقات، احتجّ غير مكترث بصلوات ليتسيا نازارينو شقائي التي شبكت ساقيها لكي تطلب منه إعادة فتح المدارس الخاصة التي أقفلتها الحكومة، والتّعويض على الأموال المرصودة، وطواحين قصب السكر، والكنائس التي تحولت إلى ثكنات، لكنه التفت إلى الجدار متأهباً للتخلي عن العذاب الذي لا ينتهي في كنف حبّك البطيء والسحيق من دون أن يحرك إصبعاً لصالح عملاء الربّ الذين امتصُّوا الوطن حتى النخاع طيلة قرون، بلا حماقات، قرّر، ورغم ذلك فإنهم عادوا سيدي الجنرال، نعم لقد دخلت الجمعيات الخيرية من أضيق شقوق الوطن طبقاً لأوامره السريّة بأن تنزل من دون ضجة في الخلجان السريّة، ولقد تم إعطاؤهم هويات عجيبة، وأعيدت إليهم الممتلكات المصادرة أضعافاً مضاعفة وألغيت القوانين الحديثة العهد حول الزواج المدني والطلاق والتعليم العلماني، وكل ما قرّره مشافهة أثناء سورات غيظه طيلة تلك المهزلة المتعلقة بقضيّة تطويب أمّه بندثيون ألفارادو، تقبّلها الرب في فراديس جنانه، سحقاً، لكن ليتسيا نازارينو لم تكتف بذلك، بل طلبت منه أكثر، طلبت منه أنْ، ضع أذنك على بطني لكي تسمع غناء الطفل الذي ينمو في أحشائي، ذلك أنها كانت قد استيقظت مذعورة في منتصف الليل وقد باغتها ذلك الصوت العميق الذي يحكي فردوس المياه في أحشائك المثلّمة بمساءات خبازية ورياح قطرانية، ذلك الصوت الداخلي الذي كان يحدثها عن حيوانات صلبك المخاطية، وفولاذ

أمعائك الليّن، وعنبر بولك الفاتر والغافي في منابعه، فألصق أقل الأذنين طنيناً ببطن ليتسيا وسمع القرقعة الخفيّة المتصاعدة من الثمرة الحيّة لخطيئته القاتلة، طفل من أحشائنا الفاحشة سوف ندعوه «عمانويل» ذلك أن الآلهة الأخرى تنادي الله بهذا الاسم، وسوف يحمل على جبينه نجماً أبيض كعلامة على أرومته النبيلة، وسوف يرث روح التضحية من أمه، والعظمة ومستقبل القيادة اللامرئية من أبيه، ورغم ذلك كان من شأنه أن يكون عار السماء وفضيحة الوطن نظراً لطبيعته غير الشرعية ما دام لم يُقدّس على المذبح ما قد دنّسه في المضجع طيلة أعوام وأعوام من الاستسرار المدنّس، حينئذ شق طريقه عبر زبد كلّة الزواج القديمة لاهثاً، كمرجل سفينة، بلهاث متدفق من نوبات غيظه المكبوح مع الصراخ بلا حماقات الموت أهون من الزواج، مجرجراً ساقي العريس العرفي الضخمتين عبر قاعات بيت مجهول عادت إليه إشراقات عصر آخر بعد مرحلة الحداد الرسمي الطويلة المظلمة، ولقد أزيلت أغطية قماش الكريب المتعفّنة العائدة إلى الأسبوع المقدّس من كل الأفاريز، وكان هناك ضياء بحري يعمّ الحجرات، وكان يمكن مشاهدة الزهور على الشرفات وسماع موسيقى عسكرية، كل ذلك كان استجابة لأمر لم يوعز به هو، ولكنه صادر بلا شك عنك سيدي الجنرال إذ أنه يتصف بصرامة صوتك الهادئة وأسلوب سلطتك الجائر، فأقرّ ذلك، موافق، وهكذا أعيد فتح الكنائس، وأرجعت الأديرة والمقابر إلى الجمعيات الدينية، وذلك إثْر أمر آخر لم يكن قد أوعز به ولكنه أقرّه، موافق، وأعيدت أعياد الاحتفالات الدينية القديمة، وتقاليد الصوم، وعبر الشرفات المشرعة النوافذ كانت تدخل تراتيل الحبور من الجموع التي كانت تنشد سابقاً

لتمجيده وها هي ذي الآن تنشد راكعة تحت الشمس الحارقة لتمجيد البشرى لقد أعادوا الله في سفينة سيدي الجنرال، كان ذلك صحيحاً، لقد أعيد بموكب أمرك، ليتسيا، وتم ذلك بفضل قرار اتّخذ، كغيره من القرارات، على الوسادة وكانت تبعث به سراً ومن دون استشارة أحد في حين كان هو يقرّه علناً لكي لا يظنّ الآخرون بأنه فقد عنان قيادته، إذ أنك كنتِ من يحث سراً على تلك الإجراءات اللامتناهية التي كان يتأملها مذهولاً من نوافذ غرفته، تلك الإجراءات التي كانت تمتد إلى أبعد من الأمكنة التي بلغتها سابقاً الجماعات المتعصبة لأمّه بندثيون ألفارادو التي شطبت ذكراها من زمن البشر، ولقد نثرت بقايا فستان زفافها ونشاء عظامها في الريح، وأعيدت شاهدة قبرها مع ما عليها من كتابات منقوشة إلى مدفن الكنيسة حتى يختفي اسم مربية الطيور في السلام الأبدي ويختفي اسم رسامة الصفاريات إلى آخر الأزمنة، وكل ذلك بموجب أمرك، وكي لا تظلّل ذاكرتك بذكرى أيّة امرأة أخرى، يا ليتسيا نازارينو شقائي، يا ابنة العاهرة. لقد حولته إلى عمر ليس من شأن المرء أن يتغير فيه إلا من أجل الموت، ونجحت بفضل إحدى مناورات المضجع في القضاء على مقاومته الصبيانية بلا حماقات، الموت أهون عليّ من الزواج، وأجبرته على استعمال حزام فتقك الجديد الذي، اسمع كيف أنه يرنّ كما لو كان جلجل شاة تائهة في الظلام، أجبرته على انتعال جزمتيك المبرنقتين العائدتين إلى اليوم الذي رقص فيه أول فالس مع الملكة، والمهماز الذهبي الخاص بالكعب الأيسر والذي وهبه إياه أميرال البحر المحيط ليستخدمه حتى الموت كعلامة على السيادة الرفيعة، وبزّتك المزركشة والمزينة بالشرائط مع كتفيّتيها الشبيهتين

بكتفيتي تمثال، والتي لم يعد إلى ارتدائها منذ الأزمنة التي صار فيها بالإمكان لمحه خلف ستائر العربة الرئاسية، بعينيه الحزينتين وذقنه المتأمّل ويده الصامتة وقفازه الساتان، أجبرته على تقلّد حسامك الحربي، والتطيب بعطرك الرجالي، ووضع كل أوسمتك بما في ذلك وسام الفارس الرفيع لقبر السيد المسيح الذي بعث به إليك الحبر الأعظم لأنك أعدت ممتلكات الكنيسة المصادرة، لقد زينتني مثل مقدّم القربان على المذبح وسُقتني فجراً برجليّ أنا، حتى قاعة الاجتماعات المعتمة التي كانت تعبق برائحة الشموع الجنائزية مع أغصان مزهرة من أشجار البرتقال على النوافذ ورايات الوطن معلقة على الجدران، بلا شهود، وأنا مشدود إلى نير العروس المتيبّسة مثل الجبس في تنورتها الكتّانية تحت هالة الموسلين كي تخفي خجل سبعة شهور من الفجور السرّي، كانا ينضحان عرقاً في غفوة البحر اللامرئي العابق حول قاعة الاحتفالات الكئيبة التي سدّت مداخلها بأمر منه، لقد سدّت النوافذ وأبيد كل أثر للحياة في البيت كيما يجهل العالم أدنى شائعة حول الزواج السري، كانت لا تكاد تقوى على التنفّس تحت الحرارة وذلك لفرط ما كان يضغط عليها ذلك الطفل الخديج المبكّر الذي كان يسبح ما بين بهق(٨) الظلمات على المقاعد الرملية داخل أحشائك، ذلك أنه قرر بأن يكون ولداً، ولقد كان كذلك، كان يغني في سرداب كيانك بذلك الصوت الشبيه بنبع الماء اللامرئي، ذلك الصوت الذي كان يتهيأ به كبير الأساقفة وهو في ثياب الاحتفال الرسمي كي ينشد المجد للربّ في الأعالي من دون أن يتمكن أحد من سماعه بدءاً من الحرس المتناعسين، وبذلك الرعب الشبيه برعب غواص تائه ذهب إلى كبير الأساقفة الذي سلّم أمره لله وهو يطلب من الشيخ

الغامض ما لم ولن يتجرأ أحد حتى ذلك الوقت ولا في أي وقت آخر حتى نهاية القرون على طلبه هل توافق على اتخاذ ليتسيا مرسيدس ماريا نازارينو زوجة لك، ولم يكد يحرّك حاجبيه، موافق، ولم تكد ميداليات الحروب ترنّ على صدره تحت الضغط المكتوم لقلبه، ورغم ذلك كانت تشوب صوته نبرة تسلط إلى حدّ أن طفل أحشائك الرّهيب استدار تماماً في اعتداله الفصلي ذي المياه العميقة، وبعد تعديله لاتجاهه وجد درب الضياء في حين كانت ليتسيا نازارينو تتلوى حول ذاتها منتحبة يا أبت وسيدي كن رحيماً بخادمتك الوضيعة التي بالغت في مخالفة قوانينك المقدّسة والتي تتقبل مستسلمة هذا العقاب الرّهيب، ولكنها كانت في الوقت نفسه تعض قفازها المشبك حتى لا تفضح طقطقة عظام مفاصلها عند الخاصرة، ذلك الخزي المغطّى بتنّورة النسيج، قرفصت، تمزّقت في بركة مياهها المتصاعدة البخار ثم أخرجت من عدّة تنورتها الخديج ذا الشهور السبعة الذي كان له الحجم والهيئة الحائرة لعجل وُلد ميتاً، رفعه بيديه الاثنتين محاولاً التعرّف إليه في الضوء الكدر المنبعث من شموع المذبح المعدّ بلا استعداد ورأى أنه كان ولداً، كما قرر ذلك سيدي الجنرال، طفل طري العود شديد الفزع كان عليه أن يحمل اسم عمانويل، كما هو مقرّر، ويعيّن جنرال فرقة مع إقليم وقيادة منذ اللحظة التي وضعه فيها على حجر القرابين وقطع له حبله السري بحسامه، معترفاً به على أنه ابني الوحيد الشرعي، أبتاه، عمّده. كان على هذا القرار الذي لم يسبق له مثيل أن يكون فاتحة عهد جديد، وإعلاناً منه على أزمنة سوداء كان الجيش فيها يسدّ الشوارع قبل الفجر، ويجبر القوم على إغلاق شرفاتهم ويفرغ الأسواق ضرباً بأعقاب الأسلحة كي لا

يرى أحد المرور الخاطف للسيارة الرسمية الجديدة بصفائحها المعدنية المدرّعة ومقابضها الذهبيّة، وأما أولئك الذين كانوا يخاطرون بالنظر من أعلى الشرفات الممنوعة فلم يكونوا كما في السابق، يشاهدون عبر الستائر المطرزة بألوان الراية، الجنرال الألفي وذقنه مستندة على يد متأملة ذات قفاز من الساتان، وإنما الراهبة البدينة المتقدمة في السن معتمرة قبعة القش المزينة بزهور اصطناعية مع مجموعة ثعالب موشاة بالفضّة برفقة دورية من الجنود المسلحين، وكانت تمسك بيدها الجنرال المتناهي في الصغر الذي كان عمره ثلاث سنوات على الأكثر والذي كان جماله وتراخيه يذهبان بنا إلى الاعتقاد بأن فتاة متنكرة في زي عسكري كانت تختفي في تلك البزّة الاستعراضية ذات الشرائط الذهبية التي يبدو عليها أنها تزداد اتساعاً مع نمو الطفل، ذلك أن ليتسيا نازارابنو أجبرته على ارتدائها قبل بروز أولى أسنانه بزمن طويل عندما كانت تأخذه وهو في مهده ذي الدواليب الصغيرة ليترأس الاحتفالات الرسمية باسم والده، كانت تمسك به تحت ذراعها لدى استعراضه لقواته المسلّحة، وترفعه فوق رأسها كي تقدمه إلى هتافات الجمهور في ملعب كرة القدم، وترضعه في السيارة المكشوفة خلال مواكب الأعياد الوطنية من دون التفكير في الدّعابات الخفيّة التي كانت تثيرها مشاهدة الجمهور لجنرال ذي خمسة نجوم وهو متعلق بثديي أمه مثل عجل يتيم في قمّة النشوة، وما أن غدا قادراً على التصرّف بمفرده حتى صار يحضر حفلات الاستقبال الدبلوماسية، مزيناً بزّته بالميداليات الحربيّة التي ينتقيها حسب هواه من صندوق الأوسمة الذي يعطيه إياه بابا كي يلعب به، ولقد كان طفلاً رصيناً وغريب الأطوار، تعلم منذ سنّ السادسة كيف يتصرّف

اجتماعياً وفي يده كوب من عصير الفواكه بمثابة كوب شمبانيا، وهو يتحدّث في الشؤون المتعلقة بأعمال الرجال البارزين بعزم ولطافة طبيعيين وغير موروثين البتة من أبويه، مع أن سحابة سوداء كبيرة اخترقت أكثر من مرّة قاعة الاحتفالات، فكان الزمن يتوقف، لقد استسلم ولي العهد الشاحب المتمتع بأعلى السلطات للنوم، سكوتاً، كانوا يهمسون، الجنرال الصغير نام، فكان مرافقوه يحملونه فوق سواعدهم في عزّ حوارات الحضور المعلّقة وحركاتهم المتحجّرة، وكان أفضل القتلة المأجورين والنسوة المحتشمات لا يكادون يجرؤون على الوشوشة كابحين ضحكهم وحمرة خجلهم خلف مراوح الريش، يا للهول، لو أن الجنرال يعلم بذلك، إذ أنه كان ينشر اعتقاداً من ابتكاره يعتبر نفسه بموجبه بعيداً عن أي حدث من شأنه أن يحصل ويكون ليس في مستواه سواء تعلق الأمر بالحماقات التي تثيرها العامة حول الابن الوحيد الذي اعترف به من بين الكثيرين الذين أنجبهم، أم بالتصرّفات المتجاوزة للحدود من قبل زوجتي الوحيدة الشرعية ليتسيا نازارينو التي كانت تصل إلى السوق كل يوم أربعاء فجراً ممسكة بجنرالها الصغير وهي محاطة برفقة من نساء الثكنات القذرات وجنود القتال الوصفاء وقد تغيّرت سحنات وجوههم بفعل ذلك الإشعاع الغريب للسريرة الذي يسبق شروق الشمس الموشك على الكاريبي، كانوا يغطسون حتى الخصر في مياه الجون العفنة كي ينهبوا المراكب الشراعية المرمّمة والراسية في ميناء تجارة الرقيق القديم محمّلة بزهور من المارتينيك وجذور زنجبيل من باراماريبو، وينهبون في طريقهم السمك الحيّ وهم يتعاركون كما في الحرب، وينازعون فيه الخنازير بأعقاب أسلحتهم قرب ميزان الرقيق

القديم الذي كان لا يزال مستخدماً وحيث ذات أربعاء في عصر آخر للوطن سابق لعهده بيعت في المزاد سجينة سنغالية بثمن تجاوز وزنها ذهباً نظراً لجمالها الخيالي، لقد أتوا على كل شيء سيدي الجنرال، أدهى من الجراد، أدهى من الإعصار، غير أنه كان يمكث متجمّداً أمام الفضيحة المتفاقمة لليتسيا نازارينو التي كانت تلوح بطريقة لم يكن ليجرؤ عليها هو في ممرّ السوق المبرقش بالطيور والبقول يتبعها صخب كلاب تائهة تنبح مذعورة وراء العيون الزجاجية المندهشة للثعالب الموشاة بالفضّة، كانت تظهر مفعمة بسلطة وقحة ما بين الأعمدة الرشيقة المصقولة تحت الأغصان الحديدية بأوراقها الكبيرة المصنوعة من الزجاج الأصفر، وتفّاحها المصقول من الزجاج الوردي، وقرون الخصب[٩] ذات الثروات الأسطورية التي تلوح بين النباتات البلّورية الزرقاء في القبّة الكبيرة المشعّة فكانت تختار أكثر الثمار إثارة للشهية وأكثر البقول طراوة فتذوي رغم ذلك بمجرد لمسها لها، من دون أن تدرك علامات السحر والأذى في يديها اللتين تتركان العفن على الخبز الساخن واللتين سوّدتا ذهب خاتم زواجها، زد على ذلك أنها كانت تنفجر بالشتائم ضد الميّارات[١٠] اللواتي أخفين أفضل المؤن تاركات لبيت السلطة هذه المانغات البائسة التي لا تصلح إلا للخنازير، أيتها السارقات القذرات، وهذا اليقطين الجاف الذي يرنّ مثل قرعة موسيقي، أيتها الحمقاوات، وهذا اللحم القذر المتعفّن الذي تشمّ نتونته على بعد فراسخ ليس لحم بقر بل لحم حمار قضى عليه طاعون خبيث، يا بنات العاهرة، كانت ترهق رئتيها من فرط الصراخ في حين كانت خادماتها بسلالهنّ والجنود بأسطل السقي ينهبون كل المؤن التي تطولها أيديهم، كانت صيحاتها،

صيحات المرأة القرصان، أكثر حدّة من زمجرة الكلاب المذعورة من آثار الثلج وجحر أذناب الثعالب الفضية الموشاة بالفضة التي تسلمتها حيّة من جزيرة الأمير إدوارد، أكثر إيذاء من أصوات البـبغاوات الجارحة المتهكّمة التي كانت صاحباتها يلقنّها سراً ما كن عاجزات عن الصراخ به ليتسيا ثرثارة سارقة، راهبة زانية، كانت الببغاوات تصرخ بها وهي جاثمة على الأغصان المعدنية بين الأوراق الزجاجية ذات الألوان المعفّرة في قبّة السوق حيث كانت تعرف أنها في منأى عن الأنفاس المدمّرة لتلك الضجة المنبعثة من صخب القراصنة والتي تكرّرت مع فجر كل أربعاء طيلة الطفولة العاصفة لذلك الجنرال الضئيل الحجم الذي أخذ صوته يزداد حناناً وحركاته تزداد لطفاً كلما حاول أن يبدو أكثر فحولة بحسام ملك الكبّا الذي كان لا يزال ينجرّ على الأرض عندما يمشي، كان يمكث في عزّ عمليات النهب رابط الجأش، هادئاً، متعالياً، محافظاً على هيبته الصارمة التي رسختها فيه أمّه حتى يكون جديراً بأصله النخبوي، ذلك الأصل الذي كانت هي بالذات تعبث به في السوق بعنف الكلبة المهتاجة وبالشتائم اللاذعة تحت النظرات الصارمة للزنجيات المعممات بخرق فاقعة الألوان واللواتي كن يتحملن الشتائم ويشاهدن عملية النهب متروحات في هدوء عميق، هدوء أصنام مقرفصة من دون تنفس وهن يجترن كريات من التبغ، كريات من الكوكا[١١]، كعلاج يمكنهن من الصمود أمام مثل ذلك العدد من الفضائح بينما الزوبعة تمر وليتسيا تشق طريقها مع عسكريّها الصغير للغاية عبر عدد من الكلاب المسعورة ذات الظهور الشائكة العظام صارخة وهي لا تزال عند الباب أرسلوا بقائمة الحساب إلى الحكومة، مثل العادة، فلا يكدن يتنهدن، يا إلهي،

لو أن الجنرال يعلم بذلك، لو أن أحداً يتجرأ على إعلامه، مخدوعات بوهم أنه ظلّ يجهل حتى ساعة موته ما كان الجميع يعلمه، أكبر كارثة لذاكرته وهي أن زوجتي الوحيدة الشرعية ليتسيا نازارينو قد أفرغت البازارات الهندوسية من إوزّاتها الزجاجية الفظيعة، ومن مراياها المبْروزة بالأصداف، ومنافضها المرجانية، كانت تنهب من متاجر دكاكين السوريين «التفتا» الجنائزية وتحمل سبحات الأسماك الذهبية الصغيرة بملء يديها وكذلك تعويذات الصاغة المتجولين في الشارع التجاري فكانوا يصرخون في وجهها أنت أكثر مكراً من تلك الـ ليتسيات الفضية التي كانت تعلقها حول عنقها، كانت تحمل كل ما تجده في طريقها لكي ترضي الشيء الوحيد المتبقي لها من أيام الترهّب، أي ذوقها السخيف التافه وحاجتها المرضية إلى السؤال عن أشياء لا تحتاجها، مع فارق كونها اليوم ليست في حاجة إلى التسوّل لوجه الله في أروقة حي حكام المستعمرات المعطرة بالياسمين، يكفيها أن تملأ المقطورات العسكرية بكل ما يروق لها من دون أي مقابل من جانبها سوى الأمر الصارم أرسلوا بقائمة الحساب إلى الحكومة. الأمر الذي كان يعني أرسلوا بقائمة الحساب إلى الرب، إذ لم يكن أحد يعلم إن كان لا يزال موجوداً أم لا، فقد صار لا مرئياً، كنا نشاهد الجدران المحصّنة على هضبة ساحة الأسلحة، وبيت السلطة بشرفات الخطب الأسطورية والنوافذ ذات ستائر الدنتيلا، والأفاريز بأصص الزهور، بيت كان في الليل يشبه باخرة تمخر عباب السماء، ليس فقط في كل مكان من المدينة وإنما أيضاً على بعد سبعة أميال في البحر منذ أن طلي بالأبيض وأضيء بالمصابيح الكهربائية للاحتفال بزيارة الشاعر المشهور روبن داريو، مع أنّ أياً من

تلك العلامات لم تؤكد بطريقة راسخة وجوده هناك، بالعكس، كانت لدينا مبرراتنا في التفكير بأن ذلك الاستعراض النشيط كان خدعة من قبل العسكريين محاولة منهم لتكذيب الرواية التي انتشرت ومفادها أنه راح في نوبة صوفية ذات علاقة بالشيخوخة وهجر بذخ السلطة وأباطيلها، فارضاً على نفسه التوبة بتمضية أعوامه الأخيرة في حالة رهيبة من الخضوع مع مسوح من التضحيات الجسيمة في الروح وكل أنواع التدابير من أجل إماتة الجسد، من دون غذاء آخر سوى خبز الشليم وماء الآبار، من دون سرير آخر سوى البلاط المصقول في إحدى حجرات دير الباسكيات تكفيراً عن فظاعة كونه امتلك امرأة محرمة من دون إرادتها وحبلها بطفل وهي لم ترتد الحجاب بعد لأن الله عظيم، ورغم ذلك فإن شيئاً لم يتغير في مملكة سأمه الشاسعة ذلك أن ليتسيا نازارينو كانت تملك مفاتيح السلطة فكان يكفيها أن تعترف بأنه لا يزال يحكم بقولها أرسلوا الحساب إلى الحكومة، وهي صيغة قديمة بدا تجنّبها في البداية سهلاً ولكنها غدت مريعة فيما بعد، حتى اليوم الذي تجرأت فيه مجموعة من الدائنين الحازمين على المثول بعد سنين عديدة ومعهم حقيبة من «الفاتورات» غير المدفوعة أمام وتد البيت الرئاسي حيث تبين لنا بكل دهشة أن لا أحد كان يتدخّل سواء معنا أم ضدنا، قادنا جندي مناوب نحو قاعة انتظار غامضة حيث ضابط بحرية فتيّ ولطيف جداً، رجل بشوش ذو صوت هادئ استقبلنا وقدّم لنا فنجان قهوة خفيفة معطرة بالمحاصيل الرئاسية، تفرّجنا على المكاتب البيضاء المضاءة جيّداً مع نوافذ مسيّجة ومراوح هوائية ذات أجنحة في السقف، كان كلّ شيء شفافاً وإنسانياً إلى حدّ أننا تساءلنا مضطربين أين يمكن أن تعشش

السلطة في هذا الجوّ العابق بالعطور الطبيّة، أين تعشش حقارة السلطة وصرامتها في وعي هؤلاء الموظفين ذوي القمصان الحريرية الذين يحكمون من دون عجلة وفي صمت، دلّنا على الساحة الداخلية الصغيرة التي قطعت ليتسيا نازارينو أشجار ورودها لتطهير النّدى الصباحي من الذكرى السيئة للبرصى والعميان والمشلولين الذين تم إرسالهم إلى الملاجئ لكي يموتوا في النسيان، دلّنا على مخيم المحظيات القديم، وآلات خياطتهنّ الصدئة، وأسرّة الميدان السيئة التي كان ينام عليها عبيد السراي أحياناً كل ثلاثة معاً في حجرات كريهة سيتمّ هدمها لبناء الكنيسة الخاصة في موضعها، دلنا من نافذة داخلية على الرواق الأكثر حميمية في البيت المدني، وعلى عريشة الجهنّميات المذهبة بشمس الساعة الرابعة مع حاجزها الزجاجي ذي أشكال المعيّنات الخضراء حيث تناول غذاءه منذ قليل برفقة ليتسيا نازارينو والصغير وهما الشخصيتان الوحيدتان المسموح لهما بالجلوس إلى طاولته، دلّنا على شجرة القابوق الأسطورية التي تُعلَّقُ في ظلّها أرجوحة الكتّان بألوان الراية حيث يقضي القيلولة لدى اشتداد القيظ ظهراً، دلّنا على زريبة الحليب وصنع الجبن، وخلايا النحل، وعندما كنا ندخل من الممشى الذي كان يجتازه في بداية الصباح ليحضر عملية حلب البقر بدا مرافقنا مصعوقاً بشرارة التجلّي ودلنا بإصبعه على أثر جزمة في الوحل، انظروا، قال، إنها آثار قدميه، مكثنا متحجّرين أمام الحفرة التي تركها نعل صخم قاس وقد بدا فيها إشراق الطمأنينة والسلطة ونعمة الراحة وبقية من جَرَبٍ قديم في درب نمرٍ معتاد على التوحد، وفي ذلك الأثر رأينا السلطة، وأدركنا لغزه الخفي بقوّة كشف أكثر من اللحظة التي تم فيها اختيار أحدنا لمقابلته شخصياً

إذ أن كبار القوات المسلحة كانوا قد بدأوا يتمردون ضد الوصولي الذي نجح في مراكمة سلطات تجاوزت سلطة القيادة العليا وسلطة الحكومة، بل إنها تجاوزت سلطته هو، ذلك أن ليتسيا نازارينو ذهبت بعيداً في طموحاتها كملكة إلى حدّ أن مجلس القيادة الرئاسي بالذات خاطر بالسماح لواحد منكم بالدخول، واحد فقط، حتى يكوّن فكرة صغيرة على الأقل حول الطريقة التي يسير بها الوطن خلف ظهرك سيدي الجنرال، وإليكم كيف شاهدته، كان وحيداً في المكتب القائظ ذي الجدران المزينة بصور خيول إنكليزية، كان مسترخياً على كرسيه المنجّد تحت المروحة الهوائية المزودة بأجنحة صغيرة، مرتدياً بزة النسيج المُحبّك البيضاء المجعّدة ذات الأزرار الجلدية والخالية من الشّارات، وكان قد وضع يده اليمنى وقفاز الساتان على المكتب حيث لم يكن يوجد سوى ثلاثة أزواج نظارات صغيرة جداً متشابهة وذات إطارات من ذهب، وكانت وراءه واجهة مملوءة كتباً مغبرة تشبه بالأحرى ملفات محاسبة مجلّدة بجلد آدمي، وعلى يمينه نافذة مفتوحة، مسيّجة، تشاهد من خلالها المدينة بأكملها وكل السماء الخالية من السحب والعصافير حتى الطرف الآخر من البحر، ولقد شعرت بالانفراج العميق لأنه كان يبدو أقل وعياً لسلطته من أي واحد من أنصاره، كان أكثر ألفة في صوره الفوتوغرافية وأيضاً أكثر إثارة للشفقة إذ أن كل ما فيه كان هرماً، عصبياً، وكان يبدو كما لو فتك به داء أكّال، إلى حدّ أن قواه لم تسعفه ليقول لي اجلس ولكنه عرض علي ذلك بإشارة حزينة من قفازه الساتان، واستمع إلى دواعي زيارتي من دون أن ينظر إلي، وهو يتنفّس بزفير رقيق وشاق، زفير مكتوم يترك في الغرفة أثر كريوزوت[١٢] كان غارقاً في امتحان

الحسابات التي كنت أعرضها عليه بواسطة الأمثلة المدرسية ذلك أنه لم يكن يدرك المفاهيم المجردة، بدأتُ إذاً بأنْ أوضحت له كيف أن ليتسيا نازارينو مدينة لنا بكمية من التّفتا مساوية مرتين للمسافة بحراً من سانتا ماريا دل ألتار، بمعنى آخر ١٩٠ فرسخاً، آه آه قال كما لو كان يخاطب نفسه، وأكملت مداخلتي موضحاً له أن مجمل الدين مع الحسم الخاص الممنوح لسموكم يعادل ست مرات قيمة جائزة اليانصيب الكبرى خلال عشر سنوات، آه آه، كرّر قائلاً وعندها فقط أخبرني بنبرة أرغن غريبة أن بواعثنا واضحة وعادلة، لكل حقّه، قال، أرسلوا بقائمة الحساب إلى الحكومة، وهكذا كان حقيقةً، في العصر الذي اعتادت فيه ليتسيا نازارينو تكوينه من الصفر بعيداً عن فظاظة أمه بندثيون ألفارادو، لقد أصلحت له عادته السيئة في الأكل والمشي، والصحن في يد والملعقة في الأخرى، كانوا ثلاثتهم يأكلون حول طاولة شاطئية في ظل جهنميّات التعريشة، هو باتجاه الصغير وليتسيا نازارينو تتوسطهما معلّمة إياهما أصول حسن التصرّف والعافية خلال وجبات الأكل، علمتهما كيف يجلسان مستقيمين والعمود الفقري مستند على مسند الكرسي، الشوكة في اليد اليسرى، والسكين في اليد اليمنى، مع مضغ كل لقمة خمس عشرة مرّة من جانب وخمس عشرة مرّة من الجانب الآخر والفم مغلق والرأس مرفوع من دون التوقف أمام احتجاجاتهما، مع كل هذا البهرج يخيل للمرء أنه في ثكنة، علمته أن يقرأ بعد الغداء الجريدة الرسمية التي عيّنوه صاحبها ومديرها الشرفي، كانت تضعها له بين يديه عندما تراه مسترخياً على أرجوحته تحت ظل شجرة القابوق الضخمة في الفناء العائلي إذ ليس من المعقول كانت تقول له، أن يجهل رئيس دولة

ما يحدث في العالم، كانت تدس له بنظارتيه المذهّبتي الإطار فوق أنفه وتتركه يتخبط في قراءة أخباره الشخصية بينما هي تدرّب الصغير على التقاط كرة من المطاط ورميها، وهي رياضة تمارسها الراهبات، وفي غضون ذلك كان هو يكتشف نفسه في صور جدّ قديمة يعود أكثرها إلى صنو قديم له، مات بدلاً منه وقد نسي اسمه، كان يكتشف نفسه وهو يترأس جلسة يوم الأربعاء لمجلس الوزراء الذي لم يعد يحضر اجتماعاته منذ زمن النجم المذنّب، كان يكتشف جملاً تاريخية ينسبها إليه وزراؤه المتعلّمون، كان يقرأ محركاً رأسه برفق في حرارة ظهيرات أغسطس المنبئة بالعواصف، وكان يغوص قليلاً قليلاً في حساء عرق القيلولة مهمهماً، يا للفوضى بئس هذه الجريدة، لست أفهم كيف يقدر القوم على قراءة مثل هذه الورقة السخيفة، ورغم ذلك كان يستحصل القليل من تلك القراءات الخالية من المتعة ذلك أنه كان يستيقظ من نومه القصير والخفيف بفكرة جديدة مستوحاة من قراءاته، فكان يرسل ليتسيا نازارينو لتملي أوامرها على وزرائه الذين يجيبونه عبر الوسيط نفسه محاولين سبر أغوار تفكيره عبر فكرها هي، لأنّكِ كنتِ كما شئتكِ أن تكوني، لسان حال إرادتي العليا، كنتِ صوتي، كنتِ عقلي وقوتي، كانت أذنه الأكثر وفاء والأكثر يقظة في ذلك الصخب من الحمم الأبدية في العالم المنيع الذي يحاصره، مع أنّ وسائط الوحي الأخيرة التي تتحكم في مصيره إنما كانت في الواقع الكتابات السرية المخطوطة على جدران مراحيض المستخدمين، فكان يتهجّى من خلالها الحقائق السرية التي لم يكن أحد ليجرؤ على كشفها له، بمن فيهم أنت، ليتسيا، كان يقرؤها في الفجر لدى عودته من الإسطبل بعد حلب الأبقار قبل أن يمحوها الجنود

الوصفاء المكلّفون بالتنظيف، لقد أمر بإعادة تبييض جدران المراحيض بالجير كل يوم حتى لا يتمادى أحد في التنفيس عن أحقاده الشخصية، وبهذه الطريقة أدرك جفاء القيادة العليا، والنوايا المكبوتة لدى أولئك الذين كانوا يزدهرون في ظلّه ويتخلّون عنه وراء ظهره، كان يحسّ بأنه سيد كل سلطته عندما ينجح في اكتشاف أحد ألغاز القلب البشري في مرآة جريدة الأوباش الكاشفة، وعاد إلى الغناء بعد أعوام عديدة متأملاً عبر ضباب الكلّة الناموسية نوم الحوت الصباحي الجانح، نوم زوجته الوحيدة الشرعية ليتسيا نازارينو، انهضي، كان يغني، إنها السادسة في قلبي، والبحر دائماً هناك، والحياة تتواصل، ليتسيا، الحياة غير المتوقعة للمرأة الوحيدة، من بين نسائه العديدات، التي حصلت منه على كل شيء سوى حظوة أن تراه يستيقظ صباحاً بجانبها، ذلك أنه كان يغادرها حالما يكون قد انتهى من ممارسة الحب معها للمرّة الأخيرة، فكان يعلق فوق باب غرفته، غرفة الأعزب المتصلب، مصباح الانطلاق نحو الكارثة، ثم يغلق الرتاجات الثلاثة، والمزاليج الثلاثة، والدعامات الثلاث، وينبطح على الأرض، وحيداً مرتدياً ثيابه، كما فعل ذلك في كل الليالي، قبلك، وكما فعل من دونك حتى آخر ليلة له من ليالي الغريق المتوحّد، وبعد انتهاء حلب الأبقار كان يلتحق بغرفتك ورائحتها الشبيهة برائحة حيوان ليليّ ليواصل إعطاءك كلّ ما كنت ترغبين فيه، أكثر بكثير من إرث أمّه بندثيون ألفارادو الواسع، أكثر بكثير مما حلم به أي شخص على هذه الأرض، وليس من أجلها هي فقط وإنما من أجل ذويها الذين لا ينتهون والذين كانوا يصلون من جزر الآنتيل الصغيرة المجهولة بلا ثروة أو سند سوى جلودهم ولقبهم نازارينو، عائلة فظّة من

الرجال العنيدين والنساء الجشعات، استولوا على احتكارات الملح والتبغ، وماء الشرب، وهي امتيازات قديمة كانت سابقاً ممنوحة إلى قادة مختلف القوات لإبقائهم بعيداً عن طموحات أخرى وقد اقتلعتها منهم ليتسيا نازارينو شيئاً فشيئاً بفضل أوامر لم يوعز بها لكنه أقرها، موافق، كان قد ألغى التنكيل الوحشي بواسطة الفسخ وحاول استبداله بالكرسي الكهربائي الذي وهبه له قائد البحرية لكي نستفيد نحن أيضاً من أداة إعدام أكثر حضارة، ولقد زار في قلعة الميناء مخبر الأهوال حيث كان يتم اختيار السجناء السياسيين المتردين صحيّاً للتدرب على استخدام عرش الموت الذي كان تفريغه الكهربائي يمتص مجمل كهرباء المدينة، كنا نعرف الساعة المحدّدة للتجربة المشؤومة فنمكث في العتمة وأنفاسنا مقطوعة من الانفعال، ونلازم الصمت في مواخير الميناء ونحتسي كأساً من أجل روح المنكّل به، ولم يكن ذلك لمرّة واحدة، وإنما في العديد من المرّات، لأن أغلب الضحايا كانوا يظلون معلّقين بأحزمة الكرسي والجسد مسودّ مثل نقانق دم واللحم مدخّن مثل الشواء لكنه نابض من الألم حتى اللحظة التي يشعر فيها شخص ما بالشفقة فيجهز عليه برصاص مسدّسه بعد محاولات عديدة فاشلة، كل ذلك لينال إعجابك، ليتسيا، من أجلك أفرغ السجون، وأمر بإعادة أعدائه إلى الوطن وأصدر مرسوماً طريفاً يمنع العقوبات بسبب الاختلاف في الرأي والملاحقات بسبب شؤون لها علاقة بضمير كل شخص، ميتقناً كل اليقين في تمام خريفه، أنّ لأكثر خصومه ضراوة الحقّ في مشاطرته راحة البال التي كان يتمتع بها طيلة ليالي يناير الفاتنة برفقة المرأة الوحيدة التي استحقت مجد أن تراه بلا قميص وفي سروال داخلي طويل مع الفتق

الضخم المذهب بأشعة القمر على شرفة البيت المدني، كانا يتأمّلان معاً الصفصاف الملغّز الذي أرسله لهما ملوك بابل في عيد الميلاد ذاك، كي يغرساه في حديقة المطر، فكانا يتعجبان من الشمس المشققة بالماء الخالد، ويعجبان بالنجم القطبي السجين بين أوراقها، ويتفحصان الكون عبر أرقام المذياع المشوش بالصفير الساخر للكواكب الهاربة، وينصتان كل يوم جنباً إلى جنب إلى حلقة من مسلسل راديو سانتياغو دي كوبا فكانت تترك في قلبيهما شعوراً بالغمّ هل سنبقى على قيد الحياة حتى الغد لكي نعرف كيف ستنتهي هذه المشكلة، وكانا يلعبان مع الصّغير قبل وضعه في السرير لتعليمه كل ما يمكن معرفته فيما يتعلّق باستخدام الأسلحة الحربية وصيانتها، وهو العلم الإنساني الذي كان يجيده أفضل من أي كان، ومع ذلك فإن النصيحة الوحيدة التي زوده بها كانت ألا يفرض أمراً إذا لم يكن متيقناً من الطاعة، ولقد جعله يردده حسب المرات التي رآها ضرورية لكي لا ينسى الطفل أبداً أن الخطأ الوحيد الذي على رجل متمتع بالسلطة والنفوذ ألا يقترفه في حياته ولو مرّة واحدة هو أن يفرض أمراً من دون أن يكون متيقناً من إطاعته، وهي نصيحة كانت بالأحرى نصيحة جدّ ملدوغ أكثر منها نصيحة أب حذر ولم يكن من شأن الطفل أن ينساها لو قيض له أن يعيش ويعمّر مثله ذلك أنه زوده بها عندما كان يجهّز له أوّل طلقة، وعمره ستّ سنوات، من مدفع ميدان ذي انفجار كوارثي مريع إلى حدّ أننا نسبنا إليه الزوبعة الجافة المهولة المملوءة بالبروق والرعود البركانية وبرياح «كومودورو ريفادافيا» القطبيّة التي قلبت أحشاء البحر وحملت إلى الفضاء سيركاً كاملاً من الحيوانات المقيمة في ساحة مرفأ تجارة العبيد القديم، ولقد

انتشلنا بواسطة الشّباك أفيالاً، ومهرجين غرقى، وزرافات جاثمة على أرجوحات الترويض بسبب هيجان الزويعة التي، بفعل معجزة، لم ترسل إلى الأعماق بسفينة شحن الموز التي وصل على متنها بعد ساعات قليلة الشاعر الشاب فيلكس روبن غارثيا سارميانتو الذي سيصبح مشهوراً فيما بعد باسم روبن داريو، ولحسن الحظ هدأ البحر في الساعة الرابعة وامتلأ الهواء المغسول بنمل طائر، عندئذ لاح من نافذة غرفته وشاهد، في حمى هضاب المرفأ، المركب الصغير الأبيض مائلاً على الميمنة وكان يبحر، رغم فقدانه للصاري، من دون عراقيل فوق ماء العشية الساكن المصفى بكبريت العاصفة، ورأى القبطان يتولى من مركزه القيادة الصعبة على شرف المسافر الشهير الذي كان يرتدي قميصاً غامق اللون وصدرة مشبكة والذي لم يسمع به قبل مساء الأحد اللاحق عندما طلبت منه ليتسيا نازارينو حظوة لا يمكن تخيلها تتعلق بمرافقته لها إلى الأمسية الشعرية في المسرح القومي، فقبل من دون تقطيب حاجبيه استياء، موافق. بقينا منتظرين واقفين لمدّة ثلاث ساعات في جو الأوركسترا البخاري، مختنقين في ثياب السهرة التي أمرنا بارتدائها في آخر لحظة، عندما انفجر النشيد الوطني في النهاية، التفتنا مصفّقين نحو الشرفة المزدانة بشعار الوطن حيث لاحت الراهبة السمينة لتوها، على رأسها قبعة من الريش المجعّد قليلاً وعلى فستان التفتا مجموعة من أذناب الثعالب الليلية، جلست من دون تحية قرب الصغير الذي كان في بدلة السهرة يردّ على الهتافات بزنبقة القفاز الخالي من الأصابع ماسكاً إياه بقبضته كما كان يفعل حسب حديث أمه أمراء عصور أخرى، لم نشاهد شخصاً آخر في الشرفة الرئاسية، ولكن طيلة ساعتي الأمسية كان لدينا

يقين بأنه كان هناك، أحسسنا بحضوره اللامرئي الذي كان يراقب قدرنا حتى لا يتعكّر بفوضى الشعر، كان يخطط للحب، ويقرر كثافة الموت وحدوده في زاوية الشرفة المعتمة حيث كان يرى، ذلك «المينوتور»[١٣] الثقيل الذي اقتلعه صوته الشبيه بالصاعقة البحرية من مقعده وللحظة تركه يطفو من دون إذنه فوق الذهب المرعد المنطلق من الأبواق الصاخبة لمارس ومينرفا[١٤] مجد لم يكن مجدك سيدي الجنرال، شاهد المصارعين الأبطال وراياتهم كلاب الحراسة السوداء صائدة الإنسان وخيول الحرب القوية ذات السنابك المصفّحة، الرماح الطويلة والرماح القصيرة لدى الفرسان المغامرين بقبعاتهم ذات الريش الهجومي والذين كانوا يأتون، في الأسر، براية غريبة من أجل شرف بعض الأسلحة التي لم تكن أسلحتك، سيدي الجنرال، رأى الشباب العاتي الذي تحدّى شموس الصيف الأرجواني وريح الشتاء الثلجي والجليد والكراهية والموت من أجل الإشراق الأبدي لوطن خالد أكبر وأمجد من كل تلك الأوطان التي حلم بها أثناء هذياناته الطويلة، هذيانات حمّى المحارب حافي القدمين، شعر أنه بائس وضئيل في هدير التصفيق الزلزالي الذي كان يستحسنه في الظل مفكّراً أماه بندثيون ألفارادو إنما هذا موكب، وليس مثل تلك العروض البائسة التي يقيمونها لي هنا، أحس بنفسه منقوصاً ووحيداً، مضايقاً بالنعاس والبرغش والأعمدة الملطّخة بالذهب والمخمل الذابل في شرفة الشرف، سحقاً إذاً، كيف يتمكن ذلك الهندي من كتابة شيء بهذا المقدار من الجمال باليد نفسها التي يستخدمها في مسح مؤخرته، كان يحدّث نفسه، وهو على درجة من التأثر بتجلّي الجمال المكتوب بحيث أخذ يجرّ قدميه، قدمي الفيل الأسير، على إيقاع القرع العسكري

للطبالين، وينعس مع الأصوات المجيدة في النشيد الرنان المتصاعد من الجوقة الحماسيّة، ذلك النشيد الذي كانت ليتسيا نازارينو تردده له في ظل أقواس النصر لشجرة القابوق في الفناء، فكان يكتب أبياته على جدران المراحيض، ويحاول أن يستظهر غيباً بالقصيدة كلّها أمام سماء الأولمب الدافئة المتشكلة من روث أبقار الإسطبل عندما دوّت الأرض تحت عبوة الديناميت التي انفجرت مبكّراً في الصندوق الخلفي للسيارة الرئاسية المتوقفة في المرآب، لقد كان الأمر فظيعاً سيدي الجنرال، كان الانفجار من القوة بحيث أننا حتى بعد الحادث بشهور عديدة كنا لا نزال نجد في كل المدينة القطع الملويّة من السيارة المصفحة التي كان على ليتسيا نازارينو والصبيّ أن يستخدماها بعد ساعة ليتسوقا كالعادة يوم الأربعاء، ذلك أن الاعتداء كان حقاً موجّهاً ضدها هي سيدي الجنرال، عندئذ ضرب على جبينه، سحقاً إذاً، كيف لم أتحسب لذلك، ما الذي أصاب بصيرته الأسطورية والحال أن الكتابات في المراحيض منذ شهور عديدة لم تعد تهاجمه هو، كما في العادة، أو تهاجم أي واحد من وزرائه المدنيين، ولكنها كانت مستوحاة من جرأة آل نازارينو الذين أخذوا الآن يعضعضون الوظائف التي لا عمل فيها والتي كانت مخصصة للقيادة العليا، ومستوحاة كذلك من طموح رجال الكنيسة الذين كانوا يحصلون من السلطة الزمنية على امتيازات أبدية لامحدودة، ولاحظ أن القدح البريء في أمه بندثيون ألفارادو تحول إلى شتائم ببغاوات، وإلى تهريج وأحقاد سريّة كانت تنمو في منأى عن القصاص في أجواء المراحيض الدافئة لتنتهي بالوصول إلى الشارع كما هو شأن فضائح أخرى أصغر كان هو نفسه يتحمل مسؤولية إذكائها والإسراع فيها، ورغم ذلك فإنه

لم يفكر ولو للحظة واحدة بأنهم سيكونون من الشراسة بحيث يضعون قنطارين من الديناميت داخل البيت المدني بالذات، يا للمنافقين، كيف ترك نفسه يقع في نشوة الأبواق الحماسية بحيث لم تقدر حاسة شمّه الشبيهة بحاسة شم النمر على كشف رائحة الخطر القديمة والناعمة في الوقت المناسب، يا للحماقة، دعا القيادة العليا بسرعة، أربعة عشر عسكرياً مرتجفاً في نهاية أعوام عديدة من الخدمة التافهة ومن الأوامر المتلقاة بواسطة شخص آخر، رأينا من جديد وعلى مقربة خطوتين منا الشيخ الغامض الذي كان وجوده الحقيقي من أبسط الألغاز، استقبلنا جالساً على الكرسي- العرش في قاعة الاجتماعات مرتدياً بزّة جندي بسيط تفوح منها رائحة بول الظربان ونظارتين رفيعتين مذهبتي الإطار لم يسبق لنا أن رأيناهما حتى في صوره الأكثر جدّة، كان أشد هرماً وأكثر بعداً مما في إمكان أحدنا أن يتصوّره، ووحدهما يداه الواهنتان من دون قفازي الساتان لم تكونا تشبهان يدي عسكري طبيعيتين بل تشبهان يدي كائن أكثر شباباً ورحمة، وكلّ ما تبقى كان متراصّاً ومعتماً، وكلما كنا نتعرف عليه أكثر كان لا يكاد يبدو محافظاً على نَفس من الحياة، ولكنه نَفَسُ سلطة استبدادية ومدمرة كان هو ذاته يجد صعوبة في إبقائها بعيدة عنه مثل حيوية فرس برية، من دون أن يتكلم، من دون حتى أن يحرك رأسه في حين كنا نؤدي له التشريفات المتوجّبة لجنرال ورئيس أعلى ونجلس متحلقين أمامه على الأرائك، عندئذ فقط خلع نظارتيه وشرع يتفرس فينا بعينيه المهووستين بالتفاصيل واللتين كانتا تنفذان جيداً إلى جحور سراعيب نوايانا غير الظاهرة، تفحصها بلا رحمة، الواحدة تلو الأخرى، الجحر تلو الجحر، مستغرقاً كل الوقت

الضروري ليحدّد بدقة كم تغيّر كل واحد منا منذ مساء الذاكرة المعتم ذاك، عندما رفعهم إلى أعلى الرتب بالإشارة إليهم بإصبعه حسب نزوات إلهامه، وكان كلّما سبرهم أحس باليقين يترسخ، ما بين هؤلاء الأعداء السريين الأربعة عشر يوجد المسؤولون عن محاولة الاغتيال، ولكنه أحس بنفسه وحيداً ضعيفاً أمامهم إلى حدّ أنه لم يكد يقطب حاجبيْه، ولم يكد يرفع رأسه ليحضهم على الوحدة الآن أكثر من أي وقت مضى من أجل خير الوطن وشرف القوات المسلحة، نصحهم بالحذر والحيوية وعهد إليهم بالمهمّة الشريفة في الكشف بكل صراحة عن المعتدين حتى يخضعوا إلى صرامة العدالة العسكرية الحكيمة، هذا كل شيء، سادتي، ختم قائلاً، ومدركاً تماماً بأن الفاعل المنفّذ كان واحداً منهم، وربما الجميع، ومصاباً في الصميم باليقين المحتّم في كون حياة ليتسيا نازارينو لم تعد متوقفة على مشيئة الرب وإنما على المهارة التي سيقدر بها على حمايتها من التّهديد الذي، عاجلاً أم آجلاً، سوف يغدو واقعاً، قضية سيئة. أرغمها على إلغاء مواعيدها العلنية، وأجبر أهلها الأكثر جشعاً على التخلّي عن الامتيازات التي من شأنها أن تجعلهم عرضة للتناقض مع القوات المسلحة، وعيّن الأكثر تفهّماً قناصل متمتعين بحرية التصرّف ولقد وجدنا أولئك الأكثر عناداً طافين بين أشجار المنغروف في مجاري السوق الصخرية، وبدا من جديد، بلا سابق إعلان وبعد أعوام عديدة، في كرسيه الفارغ داخل مجلس الوزراء عازماً على وضع حدّ لتغلغل الاكليروس في شؤون الدولة لإبقائك في منأى عن أعدائك، يا ليتسيا، وفي الوقت نفسه بدأ يدس مجسات طويلة بين القيادة العليا بعد القرارات التعسفية الأولى ولقد اقتنع بأن سبعة قادة كانوا أمناء بلا تحفظ وكذلك أقدم

رفاقه، والقائد العام، لكنْ لم تسعفه الوسيلة بعد، للخوض في الألغاز الستّة الأخرى التي كانت تطيل لياليه عندما كان يتهجّس بأن الموت قد استهدف ليتسيا نازارينو حتماً، وسيقتلونها بين يديه رغم شدة حرصه على جعل أحدهم يذوق كل ما كانت تأكله منذ أن تم اكتشاف حسكة في خبزها، وكان يعمد إلى اختبار مدى نقاء الهواء الذي تتنفسه لخشيته من أن يدسوا السمّ في رشاشة مبيد الحشرات، كان يراها شاحبة حول المائدة، ويشعر بصمتها في ذروة المضاجعة، وكان يتعذب من احتمال أن يضعوا جراثيم الحمّى الصفراء في مائها أو يسكبوا لها من الفتريول[١٥] في دواء عينيها، كان شياطين الموت البارعون يفسدون عليه كل لحظة من لحظات نهاراته وفي منتصف الليل يستيقظ بسبب كابوس عنيف ذلك أن رقية هنود جعلت ليتسيا نازارينو تفقد الكثير من دمها خلال نومه، بل وكانت المخاطر الخيالية والتهديدات الحقيقية الكثيرة تذهله بحيث كان يمنعها من الخروج من دون مرافقة حراسه الشرسين المدرّبين على القتل بلا مبرّر، ورغم ذلك فإنها كانت تخرج سيدي الجنرال، بل إنها تأخذ معها الصبيّ، أما هو فكان يتجاوز نذير الشؤم ليشاهدهما يصعدان في السيارة الجديدة المصفّحة، ومن شرفة داخلية يرسل إليهما بإشارات وداع أو في أحسن الأحوال بإشارات تعزيم وهو يصلّي أمّاه بندثيون ألفارادو احميهما، اجعلي الرصاص ينزلق على صدرها، دجّني «اللودانو»[١٦]، قوّمي الأفكار الملتوية، ولم يكن ليشعر بلحظة هدوء ما لم يسمع صفارات المرافقين في ساحة الأسلحة، وما لم ير ليتسيا نازارينو والصبيّ يدخلان الفناء تحت أولى أضواء المنارة، كانت تدخل منفعلة وسعيدة بين أولئك العسكريين المحملين بديكة رومية حية،

وسحلبيّات «انفيغادو» ومجموعات من المصابيح الملونة من أجل سهرات عيد الميلاد، عيد الميلاد الذي كانت تعلن عنه لافتات مضيئة ومرصّعة بالنجوم، علّقت بأمر منه لإخفاء قلقه، وكان يسير أمامها على السلم كي يشعر بأنها لا تزال على قيد الحياة في رائحة نفتالين أذناب الثعالب الموشاة بالفضّة، وفي العرق الحامض المنبعث من خصلاتك، خصلات العليلة، كان يساعدك على حمل الهدايا إلى غرفتك مع يقين غريب بأنه إنما كان يقرض البقايا الأخيرة من حبور مقضيّ عليه، تمنّى لو لم يعشه، لا سيما وأنه كان من الانزعاج بحيث غدا أكثر يقيناً من أن كل وسيلة ابتكرها من أجل تهدئة ذلك الغمّ الذي لا يحتمل، وكل خطوة قام بها للتوسل إليها، إنما كانت تدنيه بلا رحمة من ذلك الأربعاء المهول، أربعاء تعاستي حيث اتخذ القرار الرهيب، لننْه الأمر، يا للفوضى، وليحدث ما ينبغي أن يحدث وفي الحال، قرر، وكان ذلك مثل أمر مريع لم ينته بعد من تصوره عندما مثل اثنان من مرافقيه في مكتبه مع النبأ المهول ليتسيا نازارينو والصبي مزقتهما كلاب السوق البلدي المتوحشة والتهمتهما، لقد ابتلعتهما سيدي الجنرال، ولم يكن الأمر يتعلّق بالكلاب التائهة المعتادة وإنما بكلاب الحراسة ذات العيون الصفراء المذهلة وجلد أسماك القرش الأملس وقد دربها أحدهم ضد الثعالب الموشاة بالفضة، ستون كلباً من الكلاب المتشابهة لم يقدر أحد على الجزم متى وثبت خارج مناضد البضائع وانقضت على ليتسيا نازارينو والصغير من دون أن تترك لنا وقتاً لإطلاق الرصاص لا سيما وأننا كنا نخشى قتلهما، خيل إلينا أنهما كانا يغرقان مع الكلاب في دوامة جهنّمية، ولم نعد نرى سوى الرغوة الآنية من أيد شبحيّة ممدودة نحونا في حين كانت

بقايا الجسدين تختفي جزءاً بعد جزء، وكنا نرى تعبيرات خاطفة توحي على التوالي بالرعب، فالتوسل، فالفرح، ثم انتهت بأن غاصت نهائياً في صخب المعركة، وظلت قبعة ليتسيا نازارينو المصنوعة من البنفسج الاصطناعي طافية وحدها أمام ازدراء لا تأثر فيه للتجار الطوطميين الملطّخين بالدم الحار والذين كانوا يرددون يا إلهي، لم يكن من الممكن أن يحدث كل هذا لو لم يرغب فيه الجنرال، أو على الأقل لو لم يعلم بحدوثه، مع الخزي الأبدي للحرس الرئاسي الذي استطاع فقط أن يستعيد العظام المبعثرة بين البقول المدماة من دون أية طلقة، ولا شيء آخر سيدي الجنرال، لم نجد سوى هذه الميداليات وسيف الصبي من دون شراباته، وحذاء ليتسيا نازارينو المصنوع من جلد الجدي الذي لم يقدر أحد على القول لماذا طفا في الجون على بعد فرسخ تقريباً من السوق، وعقدها الزجاجي، وكيس نقودها ذي الزردات المعدنية وها نحن نسلمه إليك شخصياً سيدي الجنرال، مع هذه المفاتيح الثلاثة، وخاتم الزواج المسودّ وهذه الخمسين سانتافو التي وضعوها على المكتب كي يحصيها، هذا كلّ شيء سيدي الجنرال، لم يتبق شيء آخر منهما. وما كان ليكترث بأن يتبقى منهما أكثر من ذلك أو أقل لو أنه علم حينها بأن سنوات قليلة كانت كافية لجعله يقضي على آخر أثر من ذكرى ذلك الأربعاء المشؤوم، ولكن بما أنه كان يجهل ذلك، فقد بكى من الحنق واستيقظ وهو يصيح من الغيظ معذباً بنباح الكلاب التي قضت الليل مقيدة في الباحة بانتظار أن يقرّر مصيرها، ماذا نفعل بها سيدي الجنرال، كان يتساءل إنْ كان قتلُ الكلاب يعني قتل ليتسيا نازارينو والصغير مرّة ثانية في أحشائها، ولقد أمر بهدم القبّة الحديدية في سوق الخضر لكي تقام في

مكانها حديقة منغوليا وسماني مع صليب من المرمر يعلوه مصباح أعلى من مصباح المنارة وأكثف نوراً لكي تخلد في ذاكرة الأجيال الآتية وإلى نهاية القرون ذكرى امرأة تاريخية انتهى بأن نسيها هو ذاته قبل أن يقوم انفجار ليلي لم يعلن أحد مسؤوليته عنه بدحرجة النصب على الأرض، التهمت الخنازير زهور المنغوليا وتحوّلت الحديقة التذكارية إلى مزبلة وبائية موحلة قبل أن يتمكّن من معرفتها، أولاً لأنه كان قد أمر السائق بألا يمرّ عبر سوق الخضرة القديم حتى ولو أدى بك ذلك إلى الدوران حول العالم، ثانياً لأنه لم يغادر مقر الرئاسة منذ أن أمر بتحويل المكاتب إلى البناء الزجاجي اللمّاع حيث مقر الوزارات، ماكثاً وحده مع عدد ضئيل من المستخدمين في البيت المهجور حيث لم يعد المرء ليجد أدنى أثر مرئي يذكّر بإرادتك الملكية، يا ليتسيا، مكث تائهاً في البيت الخالي من دون نشاط يذكر عدا الاستشارة المحتملة للقيادة العليا، من أجل البت النهائي في إحدى جلسات مجلس الوزراء أو الزيارات الخبيثة للسفير ويلسون الذي كان في العادة يظل بصحبته حتى ساعة متأخرة من المساء تحت أوراق شجر القابوق، آتياً له بحلوى من بلتيمور وبمجلات مصورة تنشر صوراً ملونة لنساء عاريات محاولاً إقناعه بأن يتخلى له عن المياه الإقليمية كقسط من الديون الخارجيّة الضخمة، أما هو فكان يتركه يتكلم، ويتظاهر حسبما يشاء بأنه يسمع أقل أو أكثر مما في الواقع، ويحتمي بثرثرة الآخر منصرفاً إلى سماع إحدى أغاني الرقصات الدائرية، لي عصفور في بستاني يملأ سمعي بالأغاني، في مدرسة البنات المجاورة، وكان يرافقه عند الغروب حتى السلم محاولاً أن يوضح له بأنه يستطيع أخذ كل ما يرغب فيه عدا البحر أمام نوافذي، لكن تخيّل

قليلاً، ماذا يمكنني أن أفعل وحيداً في هذا البيت الواسع إذا ما غدوت عاجزاً عن تأمله كما في كل يوم في هذه الساعة مثل مستنقع تضطرم فيه النار، ماذا يمكنني أن أفعل من دون ريح ديسمبر التي تدخل وهي تعوي من الزجاج المحطّم، كيف يمكنني أن أعيش من دون شلالات المنارة الضوئية الخضراء، أنا الذي هجرت صحاريّ العالية الضبابية وشاركت رغم إصابتي بالحمّى في معمعان الحرب الفيدرالية ولا يذهبن بك الظن أنني قمت بكل ذلك بدافع وطني كما يؤكد القاموس، ولا حبّاً في المغامرة، ولا لأنني، بالخصوص، كنت ملتزماً بالمبادئ الفيدرالية، تقبّلها الله في فراديس جنانه، كلا يا عزيزي ويلسون، كل ما قمت به إنما كان لمعرفة البحر، إذاً ابحثْ عن حيلة أخرى، يقول له، ثم يسلّم عليه بضربة على كتفه، ويدخل ليشعل مصابيح المكاتب القديمة المهجورة حيث وجد ذات مساء بقرة تائهة، فطردها نحو السلم لكن قوائمها تعرقلت في رقع السجادات فوقعت أرضاً ثم وثبت ووثبت متدحرجة على درجات السلّم حيث تحطّمت عظامها الأمر الذي أفرح البرصى الذين حصلوا على قوتهم فهرعوا لسلخها، ذلك أن البرصى كانوا قد عادوا بعد موت ليتسيا نازارينو واجتمعوا من جديد مع العميان والمشلولين حيث كانوا ينتظرون ملح العافية من يديه بين أشجار الورد البرية في الباحة، كان يسمعهم يغنون عندما تكون الليالي مرصعة بالنجوم، فيغني معهم أغنية «سوزان تعالي يا سوزان» العائدة إلى أزمنة مجده، كان ينحني من كوّة مخزن الغلال في الساعة الخامسة مساء لكي يرى الفتيات وهن يخرجن من المدرسة فيمكث في حالة انتشاء أمام صداراتنا الزرقاء وجوارينا القصيرة، وضفائرنا، أماه، كنا نركض هلعات من عيني الشبح المسلول

الذي كان يشير إلينا عبر القضبان بقفازه ذي الأصابع الممزّقة وينادينا، يا صغيرتي، يا صغيرتي، اقتربي قليلاً كي ألمسك، كان يشاهدهن يهربن هلعات وهو يفكّر أماه بندثيون ألفارادو كم هنّ فتيّات فَتَياتُ هذا الوقت، وكان يضحك من نفسه غير أنه سرعان ما يتصالح معها عندما كان يفحص له طبيبه الخاص وزير الصحة شبكيّة عينه بعدسة مكبّرة في كل مرة يدعوه فيها للغداء، فكان الحكيم يجسّ نبضه، ويحاول إكراهه على تناول ملاعق من «الدّماغوجين» لكي يسدّ له دهاليز الذاكرة المظلمة، يا للحماقة، تريد إكراهي على شرب هذا، أنا الذي لم أصب في هذه الحياة بمرض آخر عدا ملاريا الجنود، اللعنة أيها الطبيب، ومن يومها صار يتناول طعامه وحيداً على طاولته الوحيدة مشيحاً بظهره عن العالم، مثل ملوك مراكش، كما أوضح له ماريلند السفير العلامة، كان يأكل بواسطة شوكة وسكين ورأسه مرفوع، استجابة منه لأصول حازمة تلقاها من مربية منسية، وكان يجوب البيت كلّه بحثاً عن أصص العسل التي صار ينسى مخابئها فيقع صدفة على الأوراق الصغيرة المطوية التي كان يكتبها في عصر آخر كي لا ينسى شيئاً عندما يغدو غير قادر على تذكر أي شيء. قرأ على إحدى قصاصات الورق المقتطعة من السجلات، غداً الثلاثاء، قرأ بأن هناك حروفاً أولى على منديلك الأبيض، حروف حمراء من اسم لم يكن اسمك يا معلّمي، قرأ محتاراً ليتسيا نازارينو قلبي انظري في أية حال أنا من دونك، وكان يقرأ، ليتسيا نازارينو، في كل مكان من دون أن يتمكن من الفهم بأن رجلاً ما كان شديد البؤس ذات يوم بحيث ترك كل هذه المجموعة من التنهدات المكتومة، ورغم ذلك فهذا خطّي، الخط الوحيد باليد اليسرى والذي كنا نقرأه في ذلك الوقت

على حيطان المراحيض حيث كان يكتب كي يواسي نفسه، عاش الجنرال، عاش أنا، يا للفوضى، وقد شفي تماماً من غيظ كونه أضعف عسكريّيّ البر والبحر والجو بسبب امرأة هجرت الرهبانية ولم يتبق منها الآن سوى الاسم المخطوط بالقلم على قطع من الورق، شفي بعد قراره بعدم لمس حتى الأشياء التي وضعها الجنود المرافقون على مكتبه والتي لم ينظر إليها عندما كان يأمر أبعدوا عني هذا الحذاء، هذه المفاتيح، كل ما من شأنه أن يذكر بصورة الميتين، ضعوا كل ما كان يخصهما في الغرفة التي كانا يهذيان فيها طيلة ساعات القيلولة ثم أرتجوا الأبواب والنوافذ مع منع الدخول حتى ولو كان ذلك بإيعاز مني، يا للفوضى، ولقد استطاع أن يصمد للرعشة الليلية التي تنتابه من جراء نباح الرّعب المتصاعد من الكلاب المكبّلة في الباحة طيلة شهور، ذلك أنه كان يذهب إلى أن أدنى شرّ يمكن أن يُلحقه بتلك الكلاب من شأنه أن يرتدّ على موتاه، ولقد اعتزل النوم في أرجوحة نومه، مرتجفاً من الغيظ لفكرة كونه يعرف قتلة دمه ورغم ذلك فهو مجبر على أن يرى نفسه مهاناً طيلة الوقت لدى رؤيته لأولئك القتلة في بيته بالذات إذْ كانت لا تزال تنقصه الوسائل لكشف أقنعتهم حينئذ، ولقد اعترض على أي شكل من أشكال الاحتفالات الجنائزية وتشريفات ما بعد الموت مهما كان نوعها، فمنع زيارات التعزية، والحِداد، وظل ينتظر ساعته متأرجحاً من الغيظ على أرجوحة نومه في ظلِ شجرة القابوق الواقية التي عبّر له تحتها شريكي الأخير عن اعتزاز القيادة العليا بالهدوء والانضباط اللذين تجشم بهما الشعب المأساة، ولم يكد يبتسم، لا تحاول أن تخدعني، يا عزيزي، عن أي هدوء وعن أي انضباط تتحدث، الشعب لا يكترث في الواقع لهذه

المصيبة، وكان يعيد قراءة الجريدة من أعلاها إلى أسفلها صفحة قبل صفحة، صفحة من الأمام وأخرى من الوراء باحثاً عن شيء آخر غير أخبار مكاتبه الصحفية الخاصة، ولقد أمر بوضع جهاز راديو في متناول يده لكي يستمع إلى النشرة نفسها من فيراكروز إلى ريوبامبا، قوى الأمن تقتفي الآن آثار المسؤولين عن حادثة الاغتيال، أما هو فكان يهمهم بلى، بلى، لقد تمّ التعرّف عليهم بلا شك، بلى، بلى، لقد تمت محاصرتهم بنيران مدفع هاون في بيت مغلق في الضواحي، ها قد انتهى الأمر، تنهّد قائلاً، يا للقوم المساكين، لكنه لبث في أرجوحته من دون أن يظهر عليه أي أثر للمكر وهو يصلي أمّاه بندثيون ألفارادو هبيني القوة من أجل هذا الانتقام، لا تحرميني من مساعدة يديك أماه، ألهميني، وكان شديد اليقين بجدوى استرحامه إلى درجة أننا وجدناه قد شفي من آلامه عندما جئنا نحن قادة أركان الحرب المسؤولين عن النظام العام وأمن الدولة لإبلاغه بالخبر، ثلاثة من المتورطين في الجريمة قتلوا إثر صدام مع رجال الشرطة أما الاثنان الآخران فإنهما تحت تصرّف سيدي الجنرال في سجن ثكنة سان خيرونيمو، آه آه، قال وهو جالس في أرجوحته، ممسكاً بدورق من عصير الفواكه في يده وقد قدم كوباً لكل واحد منا بقبضته الهادئة، قبضة القناص البارع، وكان أكثر رصانة وملاطفة من أي وقت كان، إلى حدّ أنه حزر تلهّفي إلى إشعال سيجارة وأذن لي بالتدخين وهو الذي لم يسبق له قط أن سمح به حتى ذلك الوقت لأي عسكري في الخدمة، تحت هذه الشجرة نحن جميعاً متساوون، قال، ثم استمع بلا ضغينة إلى التقرير المفصل المتعلّق بجريمة السوق، كيف تم استقدام اثنين وثمانين كلب حراسة حديث الولادة من اسكتلندا على

دفعات، مات منها اثنان وعشرون جرواً أثناء نموّها بينما تم، بكل خزي، تدريب ستين كلباً على القتل بواسطة مروّض اسكتلندي زرع فيها حقداً قاتلاً ليس فقط ضد الثعالب الموشاة بالفضة وإنما ضد ليتسيا نازارينو والصبي أيضاً، باستعمال أثواب مسروقة على التوالي من مغسل البيت المدني، ولقد تمّ استخدام هذا الصدار لليتسيا نازارينو، وهذا المنديل، وهذين الجوربين، وهذه البدلة الكاملة للصبي، وقمنا بعرضها أمام عينيه لكي يتعرف عليها، آه، آه اكتفى بالقول، من دون أن ينظر إليها، فسرّنا له كيف تم تدريب الستين كلباً على عدم النّباح عندما لا يتطلب الظرف ذلك، وعلى أكل اللحم البشري، ولقد تم عزل تلك الكلاب عن الخارج طيلة سنوات الترويض الصعبة في مزرعة بقول صينية في السّباخ على بعد سبعة فراسخ من العاصمة ما بين تماثيل تشخيصيّة بالحجم الطبيعي مرتدية أثواب ليتسيا نازارينو والصبيّ اللذين كان بمقدور الكلاب التعرف عليهما أيضاً بفضل هذه الصور الأصلية وهذه الصور المنشورة في الجرائد والتي أبرزناها له ملصقة في ألبوم حتى يقدّر سيدي الجنرال أحسن تقدير إتقان أبنائه الهجناء لعملهم، لكل اختصاصه، آه آه، اكتفى بالقول، من دون أن ينظر إليها، بيّنا له أخيراً أن القتلة لم يكونوا يتصرفون من تلقاء أنفسهم، بالطبع، وإنما يتعلق الأمر بعملاء حركة مخرّبة مستقرّة في المهجر وشعارها ريشة الإوزة المعقوفة على خنجر، هذه، آه آه، وكلهم مطاردون من قبل العدالة العسكرية بسبب تعدّيات سابقة على أمن الدولة، هؤلاء هم الثلاثة الذين قتلوا والذين قدمنا له صورهم في الألبوم مع الرقم وبطاقة المقاييس المعلقة في رقابهم، وهذان هما اللذان لا يزالان على قيد الحياة وينتظران في السجن القرار النهائي

الحاسم لسيدي الجنرال، وهما الأخوان موريثيو وغومارو بونسي دي لايون، سنّهما على التوالي ثمانية وعشرون وثلاثة وعشرون عاماً، الأول فارّ من الجيش بلا عمل أو سكن معروفين والثاني أستاذ خزفيات في مدرسة الفنون والحرف، ولقد أظهرت الكلاب تجاههما علامات بينة على الألفة والحبور بحيث قدمت الدليل الكافي على جرمهما سيدي الجنرال، آه آه، اكتفى بالقول، لكنه نوّه بالضبّاط الثلاثة الذين أنجحوا التحقيق حول الجريمة وقلّدهم الوسام العسكري مقابل الخدمات المبذولة من أجل الوطن في احتفال بهيج تم خلاله إنشاء المجلس الحربي الجزئي الذي حاكم الأخوين موريثيو وغومارو بونسي دي لايون وحكم عليهما بالإعدام رمياً بالرصاص خلال ثمان وأربعين ساعة، إلا إذا استفادا من عفوك سيدي الجنرال، أنت الذي تقرر. مكث مفكّراً ووحيداً على أرجوحته، غير مكترث لالتماسات العفو الواردة من أنحاء العالم بأسره، واستمع في الراديو إلى الجدل العقيم لعصبة الأمم، استمع إلى شتائم البلدان المجاورة وبعض الآراء البعيدة، واستمع باهتمام مماثل إلى الحجج الواهية التي قدّمها الوزراء المناصرون للعفو وإلى البراهين الثاقبة التي قدمها المصرون على تطبيق العقوبة، ورفض استقبال القاصد الرسولي الذي كان يحمل رسالة شخصية من البابا يعبّر فيها هذا الأخير عن قلقه الرعائي لمصير الولدين العاقّين، استمع إلى النشرات المتعلقة بالنظام العام في بلد مضطرب بسبب صمته، سمع إطلاق رصاص بعيداً، وفوجئ بزلزال انفجار مجهول المصدر في سفينة حربية راسية في الجوْن، أحد عشر قتيلاً سيدي الجنرال، اثنان وثمانون جريحاً والسفينة خرّبت تماماً، حسناً، قال متأملاً عبر نافذة غرفته الاتقاد الليلي فوق مياه الميناء في حين بدأ المحكومان

بالإعدام يعيشان ليلتهما الأخيرة في مصلّى قاعدة سان خيرونيمو المحرق، ولقد شاهدهما من جديد حينئذ، تماماً مثلما سبق له أن رآهما في الصورة وحاجباهما مشعثان كحاجبي أمهما المشتركة، رآهما من جديد مرتجفين ووحيدين مع رقْمَيْهما المتوأمين المعلقين في رقبتيهما وهما تحت المصباح الكهربائي المضاء دائماً في زنزانة النزع الأخير، أحس أنهما يفكران فيه، وأدرك أنه متوسّل، مسترحم، غير أنه لم يحرّك ساكناً ليفصح عن إرادته بعد أن انتهى من القيام بأعماله اليومية المعتادة لذلك النهار الذي تلا سائر أيام حياته واستأذن الضابط المناوب الذي كان عليه أن يحيي الليل ساهراً أمام غرفته للتبليغ بالقرار الذي قد يعلن عنه في أيما ساعة قبل صياح الديكة، حيّاه لدى مروره من دون أن ينظر إليه، مساء الخير أيها النقيب، علق المصباح فوق الباب، أغلق الرتاجات الثلاثة ثم الدعامات الثلاث، وانبطح في رقاد متيقظ ذي سُجُفٍ هشة واصل عبرها سماع نباح الكلاب المتلهّف في الباحة، وصفارات سيارات الإسعاف، والمفرقعات، واللازمات الغنائية المتناهية من عيد غامض في ليل المدينة الكثيف والمذهول لقسوة الحكم، ولقد جعلته نواقيس الكاتدرائية يستيقظ في منتصف الليل، ثم إنه استيقظ من جديد في الثانية صباحاً، واستيقظ قبل الساعة الثالثة بسبب وقع المطر على قضبان النوافذ، عندئذ قام متوخياً طريقة الثور بمناورة ضخمة قاسية، الردف أولاً ثم القائمتان الأماميتان وأخيراً الرأس منذهلاً بخيط لعاب رفيع من الخطم، وأمر ضابط الحراسة، أولاً، خذ هذه الكلاب إلى حيث لا أسمعها، تحت حماية الحكومة وحتى موعد انقراضها الطبيعي، ثانياً أطلق بلا شروط سراح الجنود الذين كانوا يرافقون ليتسيا نازارينو

والصبي، ثالثاً على الأخوين موريثيو وغومارو بونسي دي لايون أن يعدما بمجرد صدور قراري السامي والحاسم، ولكن لا ينبغي إعدامهما رمياً بالرصاص، كما هو منصوص عليه، كلا، ولقد أخضعوا لعقوبة الفسخ القديمة وعرضت أعضاؤهما أمام سخط الجمهور واستفظاعه، في الأماكن الأكثر وضوحاً من مملكة سأمه الشاسعة، يا للشابين البائسين، في حين كان يجرجر قائمتيه، قائمتي الفيل الجريح، متوسلاً بغضب، أماه بندثيون ألفارادو، ساعديني، يا أماه، لا تحرميني من سند يديك، ضعي في طريقي الرجل الذي سوف يساعدني على الانتقام لذلك الدم البريء، والرجل المناسب الذي تخيله في جموح ضغينته والذي ظل يبحث عنه بتلهف جنوني في كل العيون التي يقابلها، هذا الرجل الذي كان يحاول أن يجده لابداً في سجلات الأصوات الأكثر براعة، وفي ميول القلب وفي خبايا الذاكرة الأقل إنهاكاً، كان قد مني بالخيبة في التقائه عندما اكتشف نفسه مفتوناً بالكائن الأكثر فتنة وتعاظماً والذي لم أر مثله بعينيّ، أمّاه، كان يرتدي ثيابه على طريقة الغودوس القدامى، سترة هنري بول وزهرة غاردينيا في العروة، بنطال بيكوفر وصدرة من الحرير الموشى بالفضّة، طاف بها بأناقة فطرية في أشدّ صالونات أوروبا مناعة ومعه كلب دوبرمن صموت له عينان بشريتان وحجم ثور صغير، خوسيه انياثيوساينز دي لابارا خادمكم يا صاحب السموّ، آخر الأحياء من أرستقراطيتنا التي عصفت بها زوبعة الزعماء الفيدراليين، والتي تم كنسها من على وجه وطننا مع أحلامها المتعطشة إلى العظمة ومساكنها الكئيبة الواسعة، ولكْنَتها الفرنسية، عيّنة رائعة من سلالة منقرضة ولا ثروة له غير اثنتين وثلاثين سنة من العمر، سبع لغات، أربعة أرقام

قياسية في رمي الحمام في دوفيل، قوي، فارع، ذو لون حديدي، وشعر خلاسي مفروق في وسطه مع خصلة بيضاء كابية، ورسم شفتيه ينم عن إرادة أبدية، ونظرته الحازمة هي نظرة الرجل المناسب الذي كان يتظاهر بممارسة لعبة الكريكيت بعصا من خشب الكرز لكي تلتقط له صورة بالألوان وهو أمام خلفية ربيعية غزلية مكونة من بسط وفرش قاعة الاحتفالات، وباختصار في اللحظة التي رآه فيها أطلق زفرة ارتياح وقال لنفسه لقد أمسكت به، وبالفعل كان قد أمسك به. دخل في خدمته بموجب التزام بسيط أن تضع تحت تصرفي موازنة قدرها ثمانمائة وخمسون مليوناً من دون أن يقدّم حساباً لأحد ومن دون أي رئيس آخر سوى سموكم وأنا أتعهد بتسليمك خلال العامين القادمين رؤوس القتلة الحقيقيين لليتسيا نازارينو والصبيّ، فقبل، موافق، بعد أن اقتنع بأمانته وفعاليته بعد الاختبارات الصعبة العديدة التي أخضعه لها لسبر تعرّجات فكره، ولقد أخضعه إلى الاختبار الأخير المتعلق بجولات الدومينو الشائكة التي صمّم خوسيه انياثيو ساينز دي لابارا بكل جرأة أن يربحها كلّها من دون إذن، والتي ربحها بالفعل، إذ أنه كان أشجعَ من رأت عيناي، أماه، كان يتمتع بصبر ملاك، كان يعرف كل شيء، ويعرف اثنتين وسبعين طريقة لإعداد القهوة، ويميّز جنس المحار، ويجيد قراءة الموسيقى وكتابة المكفوفين، وكان يمكث ناظراً إليّ في عينيّ، من دون أن يتكلم، فأحتار في أيّ وضعٍ أتخذ أمام ذلك الوجه المتعذر إتلافه، واليدين الخاملتين الماسكتين بمقبض عصا الكرز والخنصر المرصّع بحجر مياه صباحية، مع ذلك الكلب الضخم المضطجع عند رجليه، متقداً بالانتباه والشراسة تحت المخمل الحي الذي يكسو جلده المتناوم، وهذا

العطر المتبقى من أملاح الاستحمام هو عطر جسد محصّن ضدّ الحنان والموت، جسد أكثر الرجال جمالاً وأشدّهم يقيناً ذلك الذي لم تر عيناي مثله عندما تجرأ على أن يقول لي بأنني لست سوى عسكري مصادفة، ذلك أن العسكريين هم على العكس منك تماماً، أيها الجنرال، إنهم رجال ذوو طموح فوري وسهل، ويفضلون القيادة على السلطة وليسوا في خدمة شيء ما وإنما هم في خدمة شخص ما، لهذا فمن السهل استخدامهم، قال، خاصة بعضهم ضد البعض، ولم يسعني سوى أن أبتسم، واثقاً أنه ليس بإمكانه إخفاء أفكاره أمام ذلك الرجل المذهل الذي أعطاه من السلطة أكثر من أي شخص آخر في ظل نظامه منذ شريكي رودريغو دي أغيلار، تقبله الله في فراديس جنانه، ولقد جعل منه سيداً مطلقاً على امبراطورية سرية داخل امبراطوريته الخاصة، ومحركاً هائلاً لمصلحة قمع وإبادة غير مرئية، وهي مصلحة لم تكن تنقصها الهوية الرسمية فحسب بل كان من الصعب الاعتقاد في وجودها أصلاً إذْ لم يكن ثمة أحد ليعلن مسؤوليته عما كانت تقوم به من أعمال، كما لم يكن لها اسم ولا مقر، ورغم ذلك فقد كانت حقيقة مرعبة فرضت نفسها بالرعب على سائر أجهزة القسر الأخرى للدولة قبل أن يتم اكتشاف مصدرها وطبيعتها السرية بكل يقين من قبل القيادة العليا، وحتى أنت سيدي الجنرال لم تكن لتدرك مدى تلك الآليات الرهيبة، كلا لم أكن لأشك بأنني، في اللحظة التي قبل فيها عرضي، سقطتُ تحت رحمة الفتنة القاهرة والشراهة ذات المجسات لدى ذلك الهمجي المتنكّر في زي أمير والذي أرسل لي إلى مقر الرئاسة بكيس من القنّب مملوء بجوز الهند في الظاهر، ضعه في مكان حيث لا يضايق أحداً، في خزانة

حائطية للأرشيف، أمر قائلاً، ولقد نسيه، ولكن بعد ثلاثة أسابيع أصبح التنفس متعذراً بسبب رائحة الجيفة التي كانت تخترق الجدران وتغطّي بلّور المرايا ببخار نتن، ولقد كنا نبحث عن النتونة في المطبخ فنجدها في الزريبة، ونزيلها من المكاتب بواسطة التبخير فتنبعث من جديد في قاعة الاجتماعات، ولقد نفذت بفوحانها، الشبيه بفوحان شجرة ورد متعفنة، عبر أشدّ الفجوات ضيقاً حيث لم تنفذ قط ولو كانت مخبأة في روائح أخرى، نسمة رياح الطاعون الليلية، ورغم ذلك فقد كانت توجد في أقل المواضع التي بحثنا عنها فيها، في الكيس الذي كنا نظنه مملوءاً بجوز الهند والذي أرسله خوسيه انياثيو دي لابارا كعمل أوّل في سياق تعاقدنا، ستة رؤوس مقطوعة مع شهادات الوفاة الخاصة بكل منها، رأس النبيل الأعمى العائد إلى العصر الحجري الدون نيبوموسين استرادا، وعمره أربعة وتسعون عاماً، آخر محارب في الحرب الكبرى ومؤسس الحزب الراديكالي، مات كما تنص الوثيقة المرفقة يوم ١٤ أيار بسبب وهن له علاقة بالشيخوخة، ثم رأس الدكتور نيبوموسين استرادا دي لا فوانتي، ابن الأول، وعمره سبعة وخمسون عاماً، طبيب تجانسي، توفيّ كما تنص الوثيقة المرفقة في تاريخ وفاة والده نتيجة تخثر في الدم، رأس أليسير كاستور، وعمره واحد وعشرون عاماً، طالب آداب، توفي كما تنص على ذلك الوثيقة المرفقة إثر مشاجرة في خمارة أصيب أثناءها بجروح متنوّعة من سلاح حادّ، رأس ليديثي سانتياغو، عمرها اثنان وثلاثون عاماً، متطرّفة سرية، توفيت كما تنص الوثيقة المرفقة إثر نوبة كحولية، رأس ناتاليثيو رويزر، سكرتير حركة ١٧ أكتوبر السرية، عمره سبعة عشر عاماً، توفي كما تنص الوثيقة المرفقة بعد أن أطلق

على نفسه رصاصة في الفم إثر خيبة عاطفية، ستة رؤوس في الجملة، مرفقة بإفادة استلام وقع عليها متبرماً من الرائحة ومن الهول وهو يفكّر أماه بندثيون ألفارادو هذا الرجل متوحش، من كان ليتصوره هكذا بهيئته الصوفية والزهرة في عروة سترته، أَمَرَهُ كفّ عن إرسالك اللحم المعلّب، إن وعدك يكفيني، غير أن ساينز دي لابارا أجابه، إنها قضية رجال، يا جنرال، وإذا لم تكن لك القدرة على رؤية الحقيقة وجهاً لوجه استرجع ذهبك ولنبقَ صديقين حميمين، يا لها من متاعب، لقد كان من شأنه أن ينفّذ حكم الإعدام في أمّه لو أنها ارتكبت أشياء أدنى من ذلك بكثير، غير أنه عضّ على لسانه، لا تغضب، قال له، قم بواجبك، بحيث ظلّت الرؤوس تصل في أكياس القنّب القاتمة التي كانت تبدو مملوءة بجوز الهند فكان يأمر منقبضاً، خذوا هذا إلى الشيطان، بينما كانت تُقرأ له تفاصيل شهادات الوفيات فيوقع إفادات الاستلام، موافق، ولقد أفاد باستلام ثمانمائة وتسعة عشر رأساً من رؤوس المعارضين الأشد بأساً في الليلة التي حلم فيها بأنه تحوّل إلى حيوان له إصبع يترك سلسلة من البصمات في سهل من الإسمنت الطريّ، ولقد استيقظ وفي فمه بقية من طعم المرارة، وتلافى انزعاج الفجر بالانصراف إلى خوض حسابات للرؤوس المقطوعة فوق زبل الذكريات الحامضة في الإسطبل، وكان مأخوذاً بتأملاته، تأملات الشيخ المسن، إلى حد أنه صار يخلط بين طنين طبلتي أذنيه وأصوات الحشرات في العشب المتعفّن وهو يفكّر أماه بندثيون ألفارادو كيف يمكن أن تكون الرؤوس بهذا العدد والحال أنه لم يحصل بعد على رؤوس القتلة الحقيقيين، غير أن ساينز دي لابارا بيّن له أن المرء مقابل ستة رؤوس يكوّن لنفسه ستّين عدواً، ومقابل ستين رأساً

فإنهم يصيرون ستمائة ثم ستة آلاف ثم ستة ملايين، كل البلاد ، سحقاً إذاً، لن ينتهي الأمر أبداً، ولقد ردّ ساينز دي لابارا على ذلك بهدوء أعصاب نم هانئاً جنرال، سوف ننتهي منهم عندما يكونون قد انتهوا ، يا للمتوحش الحقير. لم يعرف لحظة تردد واحدة قط، ولم يكن ليدع فرصة للخيار قط كان يستند إلى القوة الخفية عند كلب الدوبرمان الدائم اليقظة والذي كان الشاهد الوحيد على لقائهما رغم أنه حاول إبعاده منذ اليوم الأول الذي رأى فيه خوسيه انياثو ساينز دي لابارا مقبلاً وهو ممسك بذلك الحيوان ذي الأعصاب المهتاجة والذي لم يكن ليبدي طاعة سوى للإيعازات غير المحسوسة الصادرة عن أشد الرجال أناقة وأيضاً أقلهم ليونة ذاك الذي لم تر عيناي مثله، اتركْ هذا الكلب في الخارج، أمره، لكن ساينز دي لابارا أجابه كلا ، جنرال، ليس هنالك مكان في العالم أدخله منْ دون أن يدخله اللّورد كوشيل أيضاً، بحيث دخل ذلك الحيوان، وظل مضطجعاً عند قدمي سيده بينما كانا منصرفين إلى حساباتهما الروتينية للرؤوس المقطوعة، وعندما وصلت الحسابات إلى منعطف خطير استقام متوجّساً، ولقد كانت عيناه الأنثويتان تعرقلان تفكيري، كما كانت أنفاسه البشرية تصدمني، رأيته ينتصب فجأة ووجهه مدخّن مثل قدر تغلي عندما ضرب بقبضة حانقة على الطاولة إذ كان لتوّه قد اكتشف في الكيس رأس واحد من مرافقيه القدامى وكان بالإضافة إلى ذلك شريكه في لعبة الدومينو طيلة أعوام عديدة، تبّاً إذاً، انتهت المهزلة، غير أن ساينز دي لابارا واصل إقناعه دائماً، ولم يكن ذلك باستخدام الحجج والبراهين بقدر ما كان بصرامته الهادئة، صرامة مروّض الكلاب المتوحشة، كان يأخذ على نفسه خضوعه للفاني الوحيد

الذي تجرأ على معاملته كتابع، فيتمرّد على سيطرته، ويقرر التخلص من تلك التبعية التي بدأت تحدّ من مجال سلطته شيئاً فشيئاً، من الآن انتهت المهزلة، يا للفوضى، كان يقول، وفي نهاية الأمر لم تلدني بندثيون ألفارادو كي أتقبل الأوامر وإنما كي أعطيها، ورغم ذلك كانت قراراته الليلية تتلاشى في اللحظة التي كان ساينز دي لابارا يدخل فيها إلى مكتبه فيستسلم أمام فتنة الأناقة، في زهرة الغاردينيا الطبيعية، والصوت الصافي، وأريج العطور، والأردان المنشاة بأزرارها الزمردية، والعصا الهادئة، والجمال الوقور لدى الرجل المرغوب فيه والذي لا يطاق ذاك الذي لم تر عيناي مثله، لا تغضب، كان يكرر له، قم بواجبك، ويواصل هو استقبال أكياس الرؤوس، وتوقيع إفادات الاستلام من دون أن يطلّع عليها، ويغوص بلا حماية في رمال سلطته المتحركة متسائلاً لدى كل عودة، لكل فجر، في كل بحر، ماذا يحدث، الساعة توشك على الحادية عشرة وما من نسمة حياة في هذا البيت- المقبرة، مَنْ هناك، يسأل، لا أحد، هو وحده، أين أنا إذاً حتى صرت لا أتعرّف على نفسي، كان يقول، أين هي أعاصير الجنود الوصفاء الحفاة الذين كانوا يفرغون سلال الخضر المجلوبة على ظهور الحمير، أين صناديق سلال القصب المملوءة بالدواجن في الأروقة، أين هي برك المياه الوسخة حيث كانت نسائي الثرثارات يستبدلن زهور الليل بزهور النهار في الأصص، ويغسلن الأقفاص وينفضن السجادات على الشرفات وهن يغنّين على إيقاع أغصانهنّ اليابسة «سوزان تعالي يا سوزان، وليهلكني حبك الفتان»، أين هم أدعيائي الهجناء الذين كانوا يتغوّطون وراء الأبواب ويرسمون وهم يتبولون جمالاً على حيطان قاعة الاجتماعات، ماذا حل

بضجة موظفيّ الذين كانوا يجدون دجاجات تبيض في جوارير مكاتبهم، صفقات قحابي وجنودي في المراحيض، عراك كلابي التائهة التي كانت تلاحق الدبلوماسيين وهي تنبح، من الذي طرد مرّة أخرى مشلوليّ من السلالم، وبرصاي من أشجار الورد، ومتملقيٍّ من كل مكان، وصار لا يكاد يلمح آخر شركائه في القيادة العليا خلف الصفّ المرصوص من المسؤولين الجدد عن الأمن، ولا تكاد تُترك له فرصة للتدخل في جلسات اجتماعات الوزراء الجدد المعينين من قبل شخص آخر لم يكن هو، ستة دكاترة متعلمين يرتدون بدلات جنائزية ذات ياقات قديمة كانوا يستبقون أفكاره ويقررون شؤون الحكومة من دون استشارتي والحال أن الحكومة في نهاية المطاف هي أنا، لكن ساينز دي لابارا كان يوضح له رابط الجأش، أنت لست الحكومة، جنرال، أنت السلطة، ولقد كان يسأم، أثناء عشايا لعبة الدومينو، عندما يتقابل مع أبرع اللاعبين ذلك أنه لم يكن ليتوصّل إلى خسارة جولة واحدة حتى عندما يعمد إلى نصب أبرع الفخاخ، وكان عليه أن يخضع لآراء الذواقين الذين كانوا يأكلون من صحنه من دون رغبة قبل أن يتناول طعامه، ولم يعد يجد عسله في مخابئه، سحقاً إذاً، هذه ليست السلطة التي كنت أريد، احتجّ قائلاً، فردّ عليه ساينز دي لابارا ليس هناك غيرها، جنرال، ولقد كانت السلطة الوحيدة الممكنة في سبات وموت الشيء الذي كان في عصر آخر سوقه الفردوسي ليوم الأحد وحيث لم تعد وظيفته الآن سوى أن ينتظر الساعة الرابعة لكي يستمع من الراديو إلى المسلسل اليومي في المحطة المحلية، وهي رواية تتضمن قصص حب عقيمة كان يسمعها في أرجوحة نومه وكوب كامل من عصير الفواكه في يده، فيسبح في فراغ التوتر وعيناه

مغرورقتان بالدموع متلهفاً لمعرفة إن كانت تلك الفتاة الشابة ستموت أم لا فيتوقعساينز دي لابارا أن، نعم جنرال، تموت، إيه إذاً يجب ألا تموت، يا للفوضى، كان يأمر، فلتعش حتى النهاية، فلتتزوج وتنجب الكثير من الأبناء لتهرم مثل سائر الناس، فيوعز ساينز دي لابارا بتحوير الميلودراما لكي يترك له وهم الإحساس بالقيادة، وهكذا وبأمر منه لم يمت أحد، فكان هناك مخطوبون غير متحابين يتزوجون، كما كان يتم بعث شخصيات، دفنت في الحلقات السابقة، إلى الحياة وإنزال القصاص بالأشرار قبل الأوان إرضاءً لسيدي الجنرال، وكان كل الناس سعداء بأمر منه وذلك لكي تبدو له الحياة أقل عبثاً عندما يتفقد البيت منذ الدقّات المعدنية الثماني لساعة الحائط فيكتشف أن أحدهم قد اعتنى بالبقرات، وقد أطفئت الأنوار في جناح الحرس الرئاسي بينما المستخدمون نائمون والمطابخ مرتبة والطوابق منظفة، وطاولات القصابين الممسوحة والمغسولة بالكريولين لم يبق عليها أي أثر للدم وهي تعبق برائحة المستشفيات، وكان أحدهم قد أغلق الرتاجات وارتج المكاتب رغم أنه كان الوحيد الذي بحوزته حزمة المفاتيح، وأخذت الأضواء تنطفئ الواحد تلو الآخر قبل أن يضغط على زر بهو المدخل حتى غرفته، وكان يمشي في العتمة ساحباً قائمتيه الضخمتين، قائمتي الملك الأسير، عبر المرايا المعتمة ومشدّ من المخمل يحصر مهمازه الوحيد حتى لا يقتفي أحد آثاره الشبيهة بالنشارة المذهبة، ولدى مروره لمح البحر عبر النوافذ، بحر الكاريبي في شهر يناير، نظر إليه ثلاثاً وعشرين مرّة بلا توقف فكان كعادته دائماً في يناير شبيهاً بمستنقع مزهر، أدخل رأسه في غرفة بندثيون ألفارادو ليتأكد من أن الإرث لم يتحرّك من مكانه، الترنجان، أقفاص الطيور الميتة، سرير

الآلام حيث كابدت أمّ الوطن شيخوختها المضنية، ليلة سعيدة، همهم كعادته رغم أن لا أحد أجابه ليلة سعيدة يا ابني ليحرسك الله في نومك، وكان يتوجّه نحو غرفته مع مصباح الرحيل إلى الكارثة عندما شعر في الظلام بقشعريرة الجمرتين المشدوهتين في بؤبؤي لورد كوشيل، واشتم عطر رجل، وأحسّ بثقل سلطته ولمعان احتقاره، مَنْ هناك، سأل، رغم معرفته بأنه إنما كان هو، خوسيه انياثيو ساينز دي لابارا في ثياب السهرة وقد جاء ليذكره بأن اليوم هو ١٢ أغسطس، جنرال، يوم تاريخي، اليوم العظيم الذي نحتفل فيه بالذكرى المئوية لتوليك السلطة، الأمر الذي جذب زواراً من العالم بأسره وقد أغراهم الإعلان عن حدث لا يمكن للمرء أن يشهده أكثر من مرّة في العمر مهما كان طوله، كان الوطن في عيد، كل الوطن باستثنائه هو، إذ أنه رغم إصرار خوسيه انياثيو ساينز دي لابارا الذي طلب منه أن يعيش تلك الليلة المشهودة وسط صخب شعبه وحماسته، أغلق، في وقت أبكر مما في السابق، رتاجات سجنه الليلي الثلاثة، ثم المزاليج الثلاثة، ثم الدعامات الثلاث، ونام منبطحاً على البلاط العاري ببزته الكتانية القاسية والخالية من الشارات، وبلفافاته، وبمهمازه الذهبي، وساعده الأيمن منثن تحت رأسه على هيئة وسادة، كما كان علينا أن نكتشفه تماماً وقد قرضته العقبان وغطته حيوانات الأعماق البحرية وزهورها، وعبر الضبابة المتبخرة من مرشح سنة النوم لمح الأسهم النارية النائية في العيد من دون حضوره هو، أدرك لازمات الحبور الغنائية، وأجراس الفرح، والسيل الموحل للحشود التي جاءت تحتفل بمجد ليس مجده، في حين كان يهمهم وهو مشغول البال أكثر مما هو حزين، أماه يا بندثيون ألفارادو قدري، مرّت مائة عام، يا للفوضى، مرّت مائة عام، ما أسرع الزمن.

الهوامش:

١– Remora نوع من الأسماك المزوّدة بأسطوانة امتصاص على رؤوسها ، تمكّنها من الانتقال وهي ملتصقة بأسماك أخرى أو بمراكب . . الخ . .

٢– نوع من الشمع الأبيض المستخرج من النفط .

٣– صفة تحقير تستعمل للإشارة إلى المحافظين .

٤– المقصود الأجانب وخاصة سكان الولايات المتحدة الأمريكية .

٥– Rompecabezas نوع معقد من لعب الورق .

٦– Manglares من أشجار المستنقعات .

٧– نبات طبي .

٨– نبات يعلو الصخور عادة .

٩– قرن الخصب : هو عبارة عن قرن يملأ بالأزهار والفواكه للزّينة .

١٠– Vivanderas (الميّار هو الشخص الذي كان مكلفاً ببيع المؤن للجنود قديماً) .

١١– نبتة يستخرج منها الكوكايين .

١٢– Creosota سائل زيتي يستخرج من القطران .

١٣– كائن أسطوري نصفه إنسان ونصفه ثور في الميثولوجيا اليونانية .

١٤– عند الرومان : الأول إله الحرب والزراعة والثانية آلهة الحكمة والحرفيين .

١٥– اسم قديم كان يطلق على «السلفات» مثل سلفات الحديد وسلفات النحاس . الخ .

١٦– دواء يستخرج من الأفيون .

لقد كان هناك، إذاً، كما لو كان الأمر يتعلق به فعلاً مع أنه لم يكن هو، مسجّى على مائدة الولائم في قاعة الاحتفالات، مزهواً باذخاً ومخنثاً مثل حبر أعظم متوفى ما بين الزهور، وهو الأمر الذي حال في السابق دون تعرفه على نفسه بعد موته الأول عندما تم عرض جثته، وهو الآن أكثر رهبة بقفازه الساتان المحشو بالقطن فوق صدره المزرّد بميداليات ربحها في انتصارات خيالية أثناء حروب من الشوكولاته ابتدعها متملقوه بلا حياء، وببزّته الاستعراضية، ولفافاته المبرنقة، ومهمازه الذهبي الوحيد إذ أننا لم نجد غيره في البيت، وكذلك مع الشموس العشر الكئيبة لجنرال الكون التي فرضت عليه في آخر لحظة لاكتسابه رتبة أخرى أعلى من رتبة الموت، وكان مرئياً بوضوح وهو بهويته الجديدة لما بعد الموت بحيث كان بالإمكان للمرة الأولى الاعتقاد بلا أدنى شك في وجوده الفعلي، ورغم ذلك لم يكن أحد أكثر اختلافاً عنه مثل هذه الجثة، جثة الواجهة الزجاجية التي كانت حتى منتصف الليل لا تزال تنطبخ على نار خفيفة في الفضاء المحموم داخل الغرفة الحارة في حين كنا في القاعة المجاورة حيث يلتئم مجلس الحكومة، نناقش واحداً واحداً عبارات الإعلان النهائي عن النبأ الذي لم يكن أحد ليجرؤ على تصديقه، ولقد أفقنا على ضجة شاحنات محمّلة بجنود مدججين بالسلاح احتلّوا منذ الفجر، وبمجموعات صغيرة، كل المباني العامة، وانبطحوا متخذين

وضع الرماية تحت أقواس الشارع التجاري، واختبأوا داخل الأروقة، شاهدتهم ينصبون رشاشاتهم في شرفات حي حكام المستعمرات عندما فتحتُ في الفجر نافذة شرفتي لأرى أين أضع باقة القرنقل المبتل التي كنت قد قطفتها من الباحة، رأيت تحت الشرفة دورية تحت إمرة ملازم أول كان ينتقل من باب إلى آخر آمراً بإغلاق المحلات النادرة التي كانت قد بدأت ترفع ستائرها في الشارع التجاري، بقرار أعلى، إنه يوم عطلة لكل البلاد ، كان يصرخ، ألقيت لهم بقرنفلة من شرفتي وسألت ماذا يحدث، هناك جنود وصليل سلاح في كل مكان، فأجابني الضابط وهو يتلقف القرنفلة في الهواء، اعلمي يا جميلتي بأننا مثلك لا نعلم شيئاً مما يحدث، أو ربما كان الميت قد بعث إلى الحياة، قال، مستغرقاً في الضحك، إذ لم يكن أحد ليجرؤ على التفكير بأن مثل ذلك الحدث الخارق قد حصل فعلاً، بالعكس، كنا نفكّر بأنه بعد أعوام طويلة من ترك الأمور تجري في أعنتها ، قبض ثانية على أعنة سلطته فصار أكثر حياة من أي وقت سابق، ومن جديد أخذ يجرجر ساقيه الضخمتين، ساقي الملك- الخدعة في بيت السلطة الذي أعيدتْ فيه إنارة الضوء المركّز، وكنا نفكر بأنه هو الذي أخرج الأبقار التي كانت ترعى العشب بين بلاط ساحة الأسلحة حيث كان ذلك الأعمى الجالس في ظل بعض النخلات المحتضرة، يظنّ أظلافها جزمات عسكريين، ويتلو أشعار الفارس السعيد الذي عاد حياً من الحرب، كان يلقيها بأعلى صوته ويده ممدودة نحو البقرات التي كانت، وهي المعتادة على صعود الدرج والنزول منه بحثاً عن رزقها، تصعد إلى محلّ الموسيقى لكي تأكل ما فيه من أكاليل البلسمين، وكانت تقيم بين تماثيل ربات الفنون المنهارة والمتوّجة

بأزهار الكاميليا البرية وبين القرود المتدلية من قيثارات المسرح الوطني الذي لم يعد سوى كومة من الحجارة، ثم تلجأ منهوكة من العطش، بقرقعة أصص ناردين تتحطم، إلى ظل الأروقة الندي في حيّ حكام المستعمرات فتغطس خطمها اللاهب في برك الباحات من دون أن يجرؤ أحد على إزعاجها وذلك لأننا كنا نتحقق من علامات الوسم الرئاسي المدموغ على خاصرات البقر وأعناق الثيران، كانت تلك حيوانات لا تمسّ، وحتى الجنود أنفسهم كانوا يفسحون لها الطريق في انعطافات الشارع التجاري الذي فقد جلبته القديمة المصمّة، ولم يتبق فيه سوى منقع من الضلوع المسحوقة والصّواري المحطمة في البرك الحارة والنتنة حيث سبق للسوق البلدي أن شيّد عندما كان البحر لايزال بحوزتنا وعندما كانت سفن الصيد الشراعية تأتي جانحة بين رفوف الخضار، كما بقيت المحلات الفارغة لهِنْدوسيّي أزمنة مجده، ذلك أن الهندوسيين كانوا قد فرّوا لا يلوون على شيء، من دون حتى أن يقولوا شكراً سيدي الجنرال، يا للفوضى، صرخ مخبولاً بآخر نوبات حنق الشيخوخة، فليهربوا إذاً لتنظيف براز الإنجليز، صرخ، لقد فروا كلهم، وحل محلهم باعة متجولون يعرضون تعويذات هندية ومساحيق مضادة للدغ الثعابين، وحلّت محلهم أيضاً مراقص بائسة ذات أسطوانات جنونية وفيها أسرّة للإيجار في الغرف الداخليّة التي خلعها الجنود بأعقاب بنادقهم في الوقت الذي كانت فيه أجراس الكاتدرائية تعلن الحِداد، ولقد تم إنجاز كل شيء قبله هو، أما نحن فكنا نخبو حتى آخر نفس منتظرين بلا أمل ذلك اليوم الذي من شأن الشائعة التي كانت تنتشر ثم تكذّب، أن تؤكد نهائياً بأنه قد مات أخيراً تحت وطأة أحد أمراضه الملكية العديدة، ورغم ذلك لم نعد

نعتقد الآن بأن الخبر كان صحيحاً، أو بالأحرى لم نعد نعتقد في صحته لأننا لا نريد أن نعتقد ذلك، لقد انتهت بنا الحال إلى أننا لم نعد ندرك ماذا سيحل بنا من دونه، ماذا سيحل بحياتنا، لم أكن قادرة على تصور العالم من دون الرجل الذي جعلني سعيدة في سن الثانية عشرة كما لم يقدر أحد على ذلك فيما بعد، كنت أسترجع تلك الأماسي النّائية عندما كنّا نخرج من المدرسة في الساعة الخامسة وعندما كان يترصد، عبر كوى الإسطبل، بنيّات المدرسة بأزيائهنّ الزرقاء ذات الياقات البحرية وحقائبهنّ على ظهورهنّ، وهو يفكّر أمّاه بندثيون ألفارادو كم أن النساء جميلات في مثله هذا السنّ، كان ينادينا من بعيد، فنشاهد عينيه المنطنطتين، ويده في قفاز الساتان ذي الأصابع الممزّقة والتي كانت تحاول جلبنا إلى الطُّعم بواسطة حلوى السفير فوربيس، وكانت البنيات يهربن جميعاً مذعورات، باستثنائي أنا التي لبثت ذات يوم في شارع المدرسة عندما تأكدت من أنّ لا أحد كان يراقبني وحاولت الإمساك بقطعة الحلوى، غير أنه أمسك بي متلهفاً وهو يخدشني بلطف مثل نمر، رفعني من دون أذى وأدخلني من الكوة برفقٍ متناهٍ بحيث لم يدعك أية طيّة من طيات فستاني، مدّدني على العلف العابق برائحة بول قديم وحاول أن يقول لي كلاماً لم يجد طريقه إلى خارج فمه الناشف لأنه كان أكثر خوفاً منّي، كان يرتجف، بل كان يمكن مشاهدة خفقات قلبه على قميصه، كان شاحباً، وكانت عيناه مغرورقتين بدموع لم تغرورق بها عينا أي شخص آخر من أجلي طيلة حياة المنفى التي قضيتها، كان يجسني صامتاً وهو يتنفس بهدوء، وكان يداعبني بحنان رجل لم أصادف مثله أبداً فيما بعد، كان يجعل حلمتي ثدييّ تتصلبان، ويدس

بأصابعه تحت سروالي الداخلي، ثم يشمّها ويجعلني أشمها، شمّي، كان يقول لي، إنها رائحتك، ولم يكن عليه أن يستعمل حلوى السفير بالدريش لأنني شرعت أنسلّ من تلقاء نفسي عبر كوة الإسطبل لأعيش ساعات بلوغي السعيدة مع ذلك الرجل ذي القلب السوي الحزين، والذي كان ينتظرني جالساً على العلف ومعه كيس مؤونة، فيمسح بالخبز أولى بوادر «صلصة» مراهقتي، ويضع لي كل الأشياء في ثقبي الصغير قبل أن يأكلها، ويناولني منها لأذوقها، كما كان يغرز لي في الموضع الذي حدثتكم عنه رؤوس الهليون كي يتذوقها مملّحة بمياه رطوبتي الحميمة، لذيذ، كان يقول لي، لك شذا مرفأ بحري، وكان يحلم بأكل صلبي مسلوقاً في حسائه النشادري نفسه، مع عرق إبطيك، كان يحلم، مع بولك الفاتر، كان يقطعني من رأسي إلى قدمي، ويتبّلني بالملح الخشن وحبوب الفلفل وأوراق الرند ويتركني أغلي على نار خفيفة في مساءات الخبازى المتوهجة والمتلاشية، مساءات حبنا الذي لا مستقبل له، كان يقضمني من رأسي إلى قدميّ بشهية الشيخ وسخائه، الأمر الذي لم أصادفه فيما بعد أبداً لدى العديد من أولئك الرجال اللّجوجين الدّنيئين الذين حاولوا أن يحبوني من دون أن ينجحوا في ذلك طيلة ما تبقّى من حياتي، كان يحدثني عن نفسه أثناء عمليات هضم الحب البطيئة في الوقت نفسه الذي كنا فيه نبعد من فوقنا أخطام الأبقار التي كانت تحاول لعقنا، كان يقول لي بأنه هو ذاته لا يعرف من يكون، وإنه قرف من سيدي الجنرال، وكان يقول ذلك من دون مرارة، هكذا، كما لو أنه تحدّث مع نفسه، سابحاً في الطنين المتواصل لصمت داخلي لا يمكن للمرء أن ينهيه إلا بصرخات عالية، لا أحد كان أكثر منه تفانياً ولا علماً، لا أحد

كان أكثر منه رجولة، كان قد أصبح مبرر وجودي أنا ابنة الرابعة عشرة عندما حضر ضابطان برتبتين عاليتين إلى أهلي مع حقيبة محشوّة بالقطع الذهبية وأركبوني في منتصف الليل على متن سفينة أجنبية برفقة سائر أفراد عائلتي مع الأمر بعدم العودة إلى أرض الوطن طيلة أعوام وأعوام حتى اللحظة التي أذيع فيها نبأ موته من دون أن يعلم بأنني قضيت بقية حياتي مجنونة بحبه، فكنت أنام مع مجهولين أصادفهم في الشارع لأرى إن كان بإمكان أحدهم أن يتفوق عليه، ثم عدت إلى البلاد هرمة حزينة مع هذه المجموعة من الأطفال المولودين من آباء مختلفين والذين أنجبتهم متوهّمة بأنهم إنما كانوا من عمل صلبه، أمّا هو فكان بالمقابل قد نسيها منذ اليوم الثاني عندما لم يرها تلوح من كوة الإسطبل، واعتاد على استبدالها بصاحبة أخرى كل مساء، ذلك أنه، كان في ذلك العصر، قد كفّ عن تمييز مَنْ كانتْ مَنْ في تلك الزمرة من تلميذات الثانوية ذوات الزيّ الموحّد واللواتي كنّ يخرجن له ألسنتهنّ ويصرخن به، أيها الشيخ الخرف، وذلك عندما كان يحاول جذبهنّ إلى الطّعم بواسطة حلوى السفير رومبلماير، كان يدعوهنّ من بعيد من دون التمييز بينهنّ، ومن دون أن يتساءل إن كانت رفيقة اليوم هي نفسها بنيّة الأمس، وكان يستقبلهن جميعاً بالطريقة نفسها، ويفكر فيهن جميعاً كما لو كنّ واحدة فقط بينما هو يستمع متناوماً على أرجوحته إلى المبررات ذاتها من السفير سترايمبرغ الذي أهدى إليه بوق صمم شبيهاً ببوق الكلب «صوت سيدّه»[1] مع مضخم صوت كهربائي حتى يتمكن مرة أخرى من سماع مطالبتهم العنيدة بأخذ مياهنا الإقليمية كدفعة شرعية على الحساب، من ديوننا الخارجية، في حين كان هو يكرر، بلا حماقات يا عزيزي

ستنفنسون، خذوا كل ما تريدون ما عدا البحر، ثم يعمد إلى قطع التيار عن السماعة لكي يكف عن سماع الصوت المضخم للكائن المعدني الذي لاح يقلب الإسطوانة ليفسر لي مرّة أخرى ما كرّره لي خبرائي مراراً من دون بهرجة لفظية، لم يتبق لدينا شيء سيدي الجنرال، أنفقنا كل ما تبقى معنا، وضرورة القرن تستدعي منا اللجوء إلى الاقتراض لتسديد الديون الخارجية منذ حروب الاستقلال ثم قبول قروض أخرى لتسديد فوائد الفوائد، ودائماً مقابل شيء ما سيدي الجنرال، لقد تخلينا عن امتيازات الكينا والتبغ للإنجليز، ثم تخلّينا عن امتياز المطاط والكاكاو للهولنديين، ثم عن سكة حديد المرتفعات والملاحة النهرية للألمان، وكلّ الباقي للأمريكيين بسبب الاتفاقات السرية التي لم يعلم بها إلا بعد السقوط المدوّي والموت العلني لخوسيه انياثيوساينز دي لابارا، شواه الله على نار حامية في مواقد جحيمه، لم يبق لنا شيء، سيدي الجنرال، ولقد استمع إلى كل وزراء ماليته يكررون له الشيء نفسه منذ الأزمنة العسيرة عندما أصدر قراراً بتأجيل الديون المستحقة لصيارفة هامبورغ، فأحدق الأسطول الألماني بالميناء، وأطلقت بارجة إنجليزية طلقة إنذار مدفعية فتحت ثغرة في برج جرس الكاتدرائية، أما أنا فأقول سحقاً لملك إنكلترا، صرخ قائلاً، نموت ولا نخون، الموت لكايزر، صرخ قائلاً، لكنه نجا في النهاية بواسطة شريكه في لعبة الدومينو السفير شارل ف. تراكسلر الذي ضمنت حكومته الالتزامات تجاه أوروبا مقابل حق الاستغلال الدائم لثرواتنا الباطنية، ومنذ ذلك الوقت حُصدنا مثلما يحصد القمح، سيدي الجنرال، ليس لدينا حتى ما ندفعه ثمناً لسراويلنا الداخلية، لكنه كان يرافق سفير الساعة الخامسة حتى السلم ويصرفه

بضربة على كتفه، بلا حماقات يا عزيزي باكستر، الموت أفضل من فقدان البحر، وكان يشعر بالانسحاق في ذلك البيت-المقبرة الذي كان بوسع المرء أن يسير فيه من دون أن يتعثر كما لو كان يعيش تحت المياه منذ الأزمنة الرجيمة مع خوسيه انياثيوساينز دي لابارا ضلالي الذي قطع كل رؤوس الجنس البشري ما عدا المطلوب منها، رؤوس المسؤولين عن اغتيال ليتسيا نازارينو والصبي، كانت العصافير ترفض الغناء في أقفاصها رغم قطرات «الانشادين» العديدة التي كان يقطرها لها في مناقيرها، ولم تعد بنيات المدرسة المجاورة إلى إنشاد أغنية الرقص الدائريّة أثناء الاستراحة، لي عصفور في بستاني يملأ سمعي بالأغاني، وأخذت حياته تنقضي في الانتظار المتلهف للساعات التي نكون فيها أنت وأنا في الإسطبل يا حبيبة قلبي، مع نهديك الصغيرين الشبيهين بزرّين عاجيين، ومع «بلحة شرشورك»، وكان يتناول طعامه بمفرده تحت تعريشة الجهنمية، ويسبح في الحرارة المرتدّة رائحاً في غفوات قصيرة من القيلولة حتى لا يفوته سير الأحداث في المسلسل التلفزيوني الذي كان كل شيء يحدث فيه بعكس الحياة، لأن ولي نعمة الوطن الذي يعلم كل شيء لم يعلم أبداً بأننا منذ زمن خوسيه انياثيو ساينز دي لابارا خصصنا له جهاز بث لقصص المسلسلات الإذاعية ثم قناة تلفزيون خاصة حتى يكون الوحيد الذي يتنعّم وحده برؤية الأفلام المعدّلة حسب ذوقه حيث لا يموت سوى الأشرار، وحيث الحياة محتملة، وكنا نسعده بمخادعته كما حصل ذلك أيضاً طيلة ليال عديدة من شيخوخته بالنسبة للبنيات ذوات الزي الموحد اللواتي كان من شأنهن أن يبهجنه حتى وفاته لو لم يخالفه الحظ ذات يوم ويسأل إحداهنّ ماذا يعلمونك في المدرسة، فأجبتُه، في

الحقيقة، يا سيدي، لا أحد يعلمني شيئاً لأنني لست سوى مومس لبحارة المرفأ، فطلب منها أن تعيد الإجابة ظناً منه أنه لم يسمع جيّداً ما تهجاه على شفتيّ، فكررت له القول مشددة على الحروف، كلا سيدي لست طالبة، ما أنا إلا مومس بحارة، وكان رجال الخدمات الصحية قد نظفوها بالإسفنجة، والكريولين وطلبوا منها أن ترتدي تلك البدلة البحرية وجوارب بنات العائلات المحترمة ثم تمرّ من هذا الشارع كل مساء في الساعة الخامسة، قالوا لي ذلك ولكنهم قالوه أيضاً لكل العاهرات اللواتي في سني بعد أن جنّدتهنّ الشرطة الصحية ونظّفتهنّ، لقد ألبسونا الزي نفسه، وكنا ننتعل الأحذية الرجالية نفسها، ونستعمل هذه الخصلات المأخوذة من أعراف الخيل والتي، انظر سيدي، ننزعها ونعيدها بواسطة ملقط شعر، ولقد طمأنونا لا تخفن إنه شيخ خرف وبائس ولن يُدخله لكنّ بل سوف يفحصكنّ بإصبعه مثل الطبيب ويمتص نهودكنّ ويغرز لكنّ أشياء تؤكل، في عصفوركنّ، وباختصار كل ما تفعله لي عندما أجيء إلى هنا، وليس علينا إلا أن نرخي جفوننا من الالتذاذ ونُهَمهم يا حبيبي يا حبيبي لأن ذلك يروق لك سيدي الجنرال، هذا ما قالوه لنا بل إنهم درّبونا وجعلونا نكرّر كل شيء من البداية قبل أن يدفعوا لنا، لكنّني أرى بأن هناك مبالغة في إدخال كل تلك الموزات القاسية في «شرشورنا» وأعقاب لحية التّيس في ثقب مؤخراتنا مقابل أربعة بيزو بائسة، لأن ذلك هو المبلغ الذي يتبقى لنا بعد طرح النفقات الصحية وعمولة الرقيب العسكري، سحقاً إذاً، وأنا أرى أنه من المحزن أن يبدّد المرء تلك الكمية من القوت، من تحت، عندما لا يكون بحوزته شيء ليأكله من فوق، قالت له، ملتفّة في الهالة الحِدادية للشيخ الغامض

الذي استمع إلى البوح من دون أن يقطّب حاجبيه وهو يفكر أماه بندثيون ألفارادو لماذا ترسلين إليّ بهذا العقاب، ولم يفش أساه بأي تغضّن لكنه أكبّ على كلّ أشكال التحقيقات السرية وانتهى بأن اكتشف بالفعل أن ثانوية البنات المجاورة للبيت المدني أغلقت منذ أعوام عديدة سيدي الجنرال، ولقد قام وزير التربية شخصياً باتفاق مع رئيس الأساقفة وجمعية أولياء التلاميذ بجمع الأموال الضرورية لإقامة المبنى الجديد المكون من ثلاثة طوابق والمطل على البحر حيث صارت بنات العائلات الكبرى في منأى عن كمائن الفاتن الغسقي الذي كان جسده، الشبيه بسمكة شابل جانحة وبطنها إلى أعلى فوق طاولة وليمة، قد بدأ يبرز بوضوح على الأنوار الخبازية الدكناء في أفق الفوهات القمرية لأول فجر لنا من دونه، كان آمناً بين ثلوج الأزهار، متحرّراً أخيراً من سلطته المطلقة بعد أعوام عديدة من الأسر المتبادل بحيث غدا من المستحيل التمييز مَنْ كان ضحيّة مَنْ في مقبرة الرؤساء الأحياء التي تم تبييضها، مثل قبر، من الداّخل ومن الخارج من دون استشارتي، وبالعكس كانوا يأمرونه من دون التعرف عليه لا تدخل يا سيد سوف تشوّه الجصّ، فكان لا يدخل، ابق هناك في الأعلى يا سيد وإلا قد تسقط الصقالة على رأسك، فكان يبقى هناك في الأعلى، مذهولاً من لغط النجارين وغيظ البنائين الذين كانوا يصرخون به اذهب من هنا أيها الشيخ الخرف لا تتغوط في الملاط، فكان يبتعد، أكثر طاعة من جندي ذي رتبة ثانوية وذلك طيلة الشهور التي رمّم فيها كلّ شيء من دون استشارته، وفتحت نوافذ جديدة على الرياح البحرية، كان أكثر وحدة من أي وقت مضى تحت الحراسة المتيقظة لمجموعة من المرافقين الذين كانت مهمتهم مراقبته،

أكثر مما كانت حمايته، كانوا يأكلون نصف طعامه كي لا يموت متسمّماً، ويغيّرون مخابئ عسله، ويدخلون مهمازه الذهبي داخل غمد، مثل مهمازي ديك مصارع، حتى لا يرن أثناء سيره، سحقاً إذاً، سلسلة كاملة من مناورات الكنّاسين كان من شأنها أن تثير ضحك شريكي ساتورنو سانتوس، كان يعيش تحت رحمة إحدى عشرة غوريلا مرتدية ربطات عنق وأزياء مضحكة وتقضي وقتها في ممارسة ألعاب بهلوانية يابانية وفي التلويح بإحدى آلاته ذات النور الأخضر والأحمر، والتي تضيء وتنطفئ بمجرد وجود شخص يحمل سلاحاً ضمن دائرة خمسين متراً، أما نحن فكنا نجوب المدينة مثل هاربين في سبع سيارات متشابهة كانت تغيّر مواضعها بتجاوز بعضها خلال السير بحيث أنني غير قادر تماماً على الجزم في أيّة سيارة بالضبط أوجد، يا للفوضى، كان في كل ذلك الصخب خدعة لأنه عندما أزاح الستائر كي يلمح الشوارع بعد أعوام عديدة من الانزواء أدرك أن لا أحد كان يهتم بالمرور الخفي لسيارات الليموزين الجنائزية في القافلة الرئاسية، رأى صخور البلّور اللامع عند مبنى الوزارات الذي كان ينتصب أعلى من أبراج الكاتدرائية والذي أخفى الشناخ الصخري المسيّج حيث أكواخ الزنوج فوق هضاب الميناء، رأى دورية جنود تمحو كتابة حديثة مكتوبة على جدار بريشة كبيرة، ماذا كانت تقول، سأل، كانت تقول المجد الأبدي لصانع الوطن الجديد، أجابوه، كلا، فكّر بينه وبين نفسه وإلا لما هرعوا لمحوها، سحقاً إذاً، رأى في مكان مستنقعات الوحل مُنْتَزَهاً من أشجار جوز الهند على امتداد ستة شوارع مع أجمات من الزهور متدرجة حتى البحر، ورأى أن مزبلة السوق البلدي القديم قام في موضعها حي كامل من الفيلات المتشابهة

مع أروقة رومانية وفنادق ذات حدائق أمازونية، رأى السيارات متتابعة في متاهات أوتوستـرادات المدينة الحلزونية رأى الحشد مخبولاً بقيظ منتصف النهار على رصيف الشمس في حين كان الرصيف الثاني لا يؤوي سوى المحصّلين المكلفين بقبض ثمن السير في الظل وهم واقفون بلا زبائن، ولكن في هذه المرة لم يرتعش أحد من كشف السلطة المختفية في النعش المبرّد داخل الليموزين الرئاسية، لم يتعرف أحد على العينين الخائبتين، والشفتين المهمومتين، واليد المحرومة من الإرث والتي كانت تقوم بوداعات لا غاية لها عبر صراخات بائعي الجرائد والتعاويذ، وعربات بائعي المرطبات المثلجة، ورايات يا نصيب الأرقام الثلاثية، الضوضاء اليومية لأناس الشارع الغريبين عن المأساة الحميمة للجندي المتوحّد الذي كان يتنهّد من التّوق مفكّراً أماه بندثيون ألفارادو ماذا حدث لمدينتي، أين هو زقاق البؤس حيث نساء بلا رجال كنّ يخرجن عاريات تحت جنح الظلام لاقتناء غربان بحرية زرقاء وأسماك قجّار وردية ويتلاسنّ بضراوة مع باعة الخضر بينما غسيلهن يجف على الشرفات، أين هم الهندوسيون الذين كانوا يتغوّطون عند أبواب محلاتهم، أين زوجاتهم الداّكنات اللواتي كنّ يلينّ الموت بأغانيهن المأساوية، أين هي المرأة التي مسخت عقرباً لأنها عَصَت والديها، أين حانات المرتزقة، جداول البول المتخمّر، فضاء البجعات لدى تجاوز منعطف الشارع، وفجأة، آه، الميناء، أين هو الآن بما أنه كان هنا، ماذا حدث لمراكب المهرّبين الشراعية وكل تلك القعقعة المصمّة لنزول المارينز من البواخر، رائحة برازي، أماه، ما الذي كف عن الدوران في العالم حتى لا يتعرّف أحد على اليد الشاردة للعاشق المنسي والتي كانت

تخلف ثلماً من الوداعات غير المجدية من هذا الباب ذي الزجاج الملوّن في قطار افتتاحي اجتاز، وهو يصفّر، مشاتل الأعشاب العابقة التي صارت تغطي مزارع الأرز القديمة، تلك المزارع التي كانت مسكونة بالعصافير الصارّة والملاريا، ثم أجتاز سهولاً زرقاء مدهشة شاقاً طريقه عبر قطعان من مواشي الأبقار الموسومة بالحديد الرئاسي، وفي تلك المقطورة المنجّدة بالمخمل الكنسي، مقطورة الصّلاة لراحة مصيري المحتوم، كان يتساءل أين هو قطاري المتعرّج القديم ذو الدواليب الأربعة، يا للفوضى، أين هي أغصاني الملأى بالـ أناكندة[٢] وبالبلسمين السام، وجلبة قرودي، وطيور فردوسي، والوطن بتنينه، أمّاه، أين هي الآن، بما أنها كانت هنا، محطات الهنديات الصموتات بقبعاتهن المستديرة المنتفخة واللواتي كنّ يبعن لك عبر النوافذ حيوانات من السكر، وبطاطا محشوّة بالقشدة، أمّاه، اللواتي كن يبعن لك دجاجات مسلوقة ومغمّسة في دهن الخنزير الأصفر تحت الأقواس حيث كتابات بحروف من الزهر المجد الأبدي لولي نعمة الوطن الذي لا أحد يقدر على تحديد مكانه، ولكن ما إن كان يحتجّ مؤكداً أن حياة الهارب هذه أمرٌ من الموت حتى يجيبوه كلا كلا سيدي الجنرال، إن في ذلك سلامة النظام، فينتهي بالقبول، موافق، مفتوناً مرّة أخرى بجمال خوسيه انياثيو ساينز دي لابارا اضطرابي الذي أهانه ورذله مراراً في ثورات أرقه ولكنه كان يضعف أمام فتنته من جديد حالما يدخل الأخير مع الشمس إلى مكتبه مع كلبه ذي نظرة الإنسان والذي لم يكن ليهجره أبداً حتى من أجل التبوّل زد على ذلك أن له اسماً بشرياً، لورد كوشيل، كان يتقبل كلامه بوداعة تثيره ضد نفسه، لا تقلق نفسك، كان يقول له راضياً، قم بواجبك، بحيث

كان خوسيه انياثيو ساينز دي لابارا يعود بكامل سلطته إلى محطة التعذيب التي أقامها على مقربة أقل من خمسمائة متر، من مقر الرئاسة في المبنى الكولونيالي البعيد عن الشبهات والذي كان سابقاً ملجأ للمجانين الهولنديين، وهو بيت كبير مثل بيتك، سيدي الجنرال، يقع في غابة من شجر اللوز، ويحيط به مرج بنفسج برّي، وقد خصص الطابق الأول منه للخدمات المتعلقة بعِلْم أقيسة الجسم البشري والتحقيق في شخصية المجرمين وحالتهم المدنية أما ما تبقى فقد شغلته أشد أدوات التعذيب مهارة ووحشية والتي تتجاوز حدود الخيال، بحيث لم يرغب في رؤيتها، بل اكتفى فقط بإنذار ساينز دي لابارا واصل القيام بواجبك كما ينبغي حسبما تقتضي مصلحة الوطن بشرط واحد، أنا لا أعلم شيئاً، لم أر شيئاً ولم أذهب قط إلى هنالك، ووعده ساينز دي لابارا، أنا في خدمتك سيدي الجنرال، وهو وعد لم يخلّ به، كما أنه أخذ بعين الاعتبار أمره الموعز بعدم التضحية بالأطفال الذين لا يتجاوزون سن الخامسة بتسليط قطبين كهربائيين على خصيتهم لإجبار ذويهم على الاعتراف، وبالفعل كان يخشى أن يوقظ فيه مثل هذا العمل الشائن، أرق ليال عديدة كما في زمن اليانصيب، ورغم ذلك لم يكن قادراً على نسيان ورشة الأهوال تلك، القريبة من غرفته لأن الليالي الهادئة المقمرة وموسيقى القطارات الهاربة في صباحات بروكنر(٣) العاصفة كانت توقظه متسببة في دمار طوفاني مخلّفة كآبة مزق من أزياء عرائس ميتات، قضين نحبهنّ ما بين أفنان ملجأ المجانين الهولنديين القديم، كل ذلك كي لا تسمع صرخات ألم المحتضرين ورعبهم في الشارع، كل ذلك من دون نفقات سيدي الجنرال، إذ رغم أن خوسيه انياثيو دي لابارا كان

يتصرف في أجرته لاقتناء ثياب أمراء، وأقمصة حرير طبيعي مع حروف اسمه الأولى منقوشة على الصدر، وأحذية من جلد الجدي، وأحواض غاردينيا من أجل عروة سترته، وعطوراته الفرنسية مع الشعارات الممتازة المطبوعة على البطاقات الأصلية، رغم كل ذلك لم تعرف له أيّة علاقة مع النساء، كما لم يشتهر بأنه لوطي، ولم يكن له أصدقاء أو مسكن خاص، لا شيء سيدي الجنرال، حياته حياة قديس، حياة عبد، في مختبر محطة التعذيب تلك، حتى اللحظة التي يبطحه فيها التعب على أريكة المكتب فينام كما اتفق ولكن ليس في الليل أبداً كما أن نومه لا يتجاوز ثلاث ساعات متواصلة، من دون حراس أمام بابه، من دون سلاح في متناول يده، وتحت الحراسة اللاهثة للورد كوشيل الذي لم يعد قادراً على التماسك بسبب القلق الذي لم يكن ناجماً عن الجوع، بل حسب أقوال الناس لأنه كان يتغذّى من الأمعاء الساخنة لمقطوعي الرؤوس، وكان خلال حراسته يصدر ضجة شبيهة بضجة قدر تغلي لكي يوقظه حالما تلمح نظراته البشرية اقتراب شخصٍ ما عبر الجدران، مهما كانت هويّته، سيدي الجنرال، إن ذلك الرجل يحتاط حتى من صورته على المرآة، لقد كان يتخذ قراراته من دون استشارة أحد، وذلك بعد الاستماع إلى تقارير عملائه، وما من حدث يحصل في البلاد، ما من زفرة تخرج من فم أحد المنفيين في أية نقطة من الأرض من دون أن يعلم بها خوسيه انياثيو ساينز دي لابارا فوراً عبر نسيج عنكبوت النميمة والفساد الذي لفّ به الكرة الأرضية، لقد كان ينفق المال على ذلك، سيدي الجنرال، إذ لم يكن من المؤكد أن الجلادين كانوا يحصلون على أجرة وزراء كما كان شائعاً، بالعكس، كانوا يعملون مجاناً ليثبتوا أنهم قادرون على تمزيق

أمـهـاتهم إرباً إرباً وإلقـاء المزق إلى الخنازير من دون أن يتـحـرك لـهم ساكن، وبدل رسائل التـوصـية وشـهادات حسن السلوك، كـانوا يقدمـون إثبـاتات بسـوابقـهم الشنيـعـة كي يكونوا تحت إمرة الجلادين الفرنسـيين الذين يمتـازون بأنـهم عـقـلانيـون سيـدي الجنرال، أي أنهم منـهـجيـون في القسوة ولا تأخذهم الرأفة، وهم الذين جعلوا التـقدم في التـأديب ممكناً، هم الذيـن كـانوا يسـتـبـقـون المؤامـرات قـبل أن تفـقس في الأذهان، وهم الزبائـن اللامـبـالون الذين يلجـأون إلى الهـواء البـارد قـرب مـراوح باعـة المثلجات، ويقرأون الجرائد في الخمـارات الصينيـة، وينامـون في قـاعـات السـينمـا، ويتـخلّون عن مقـاعدهم في البـاصـات للنسـاء الحـوامل، وهم الذين تخصـصوا في الكهربـاء أو الترصيص بعد أن قضوا نصف حياتهم كمعتدين ليليين وقطاع طرق، وهم متـزوّجو الخادمات مؤقتاً، ومومسـات الكراسي العـالية والبـارات العـالميـة، والمبـشرون بالسـيـاحة في فـراديس الكاريبي بواسطة وكـالات سفر ميـامي، ومنهم أمين السرّ الخـاص بالوزير البلجيكي للشؤون الخـارجية، والحارسة الدّائمة للممشى المعتم في الطابق الرابع من فندق موسكو الدولي، وكـثير غيـرهم حتى آخر نقطة في نهـاية الأرض، ولكن يمكنك أن تنام مطمئـن البـال سيـدي الجنرال لأن الوطـنيين الصادقين يقولون بأنك لست على علم بما يحدث، وأن كل هذا يحدث من دون مـوافـقـتك، وأنّ سـيـدي الجنرال لو علم بذلك لأرسـل سـاينز دي لابارا يلتـقـط زهور المرغـريت في مـقـبرة الجـاحـدين داخل قلعـة الميـنـاء، وفي كل مرّة يصلهم فـيـها نبـأ عـمل وحشي جديد يتنهدون خفـيـة آه لو أن الجنرال كـان يعلم بذلك، لو كـان بإمكاننا إعـلامـه، لو أننا تمكنا من رؤيتـه، ولقـد أمـر الشـخص الذي أخبـره بذلك ألا ينسى مطلقاً بأنني في الحـقـيقـة لست

أعلم شيئاً، لم أر شيئاً، لم أتحدث قط مع أي كان بخصوص هذه الأشياء، الأمر الذي كان يمكنه من استعادة هدوئه، غير أنه ظل يستقبل العديد من الأكياس المملوءة بالرؤوس المقطوعة بحيث بدا له من غير المعقول أن يتلطّخ خوسيه انياثيو دي لابارا بالدم حتى أعلى شعرة في رأسه من دون أية فائدة إذ أن القوم خبثاء لكن ليس إلى هذه الدرجة، وكان يرى بأن مرور أعوام عديدة من التبعية من دون احتجاج من قبل قادة القوات المسلحة أمر غير طبيعي، وكذلك عدم مطالبتهم بالزيادة، أو بأي شيء آخر، الأمر الذي جعله يدسّ بمجساته الشخصية لتبيّن أسباب خضوع العسكريين، كان يريد أن يعرف لماذا لا يرغبون في التمرّد، ولماذا يتقبلون القدرة الكلية لرجل مدني، ولقد سأل أكثرهم طموحاً إن كانوا يعتقدون بأن الوقت قد حان لقطع عنق ذلك الوصولي الدموي الذي أخذ يلوث سمعة القوات المسلحة، ولكنهم أجابوه بأن، يقيناً، لا، سيدي الجنرال، لا أهمية لكل ما يحدث، ومنذئذ لم أعد أعرف مَنْ هو مَنْ، ولا مَنْ هو مع مَنْ، في مستودع التقدم في التأديب هذا، الذي بدأت تفوح منه نتونة الجثث مثل أطفال اليانصيب المساكين الذين لا أريد أن أتذكرهم، غير أن خوسيه انياثيو ساينز دي لابارا كان يهدئ من روعه بفضل سطوته الفاتنة التي اكتسبها من ترويض الكلاب المتوحشة، نَمْ مرتاح البال جنرال، كان يقول له، العالم بين يديك، وكان يوهمه بأن كل شيء بسيط وفي غاية الوضوح ثم يعيده فوراً إلى ظلمات بيته الفارغ، فيجوبه جيئة وذهاباً متسائلاً بصرخات عالية، من أنا يا للفوضى إنْ كنتُ أرى نفسي بالمقلوب في المرايا، ولكن أين أنا يا للفوضى إنْ كانت الساعة الحادية عشرة صباحاً ولا توجد دجاجة واحدة ولو تائهة في هذه

الصحراء، تذكّرْ أيامك الخوالي، كان يصيح، تذكر ذلك التشابك من العميان والمشلولين الذين كانوا يتشاجرون على الطعام مع الكلاب، تذكر السلّم حيث كنّا نتزحلق على البراز كما في ميدان تزلج، ومهزلة أولئك المواطنين الذين كانوا يعترضون طريقي مرددين الأغنية المبتذلة نفسها أنثر على جسدي ملح العافية سيدي الجنرال، عمّد طفلي لعله يشفى من إسهاله إذ كان يقال بأن لمباركتي نجاعة أكثر فاعلية من الموز الأخضر، المسني هنا لعلني أشفى من اختلاجاتي إذ أنني لم أعد قادراً على العيش مع هذا الزلزال الأبدي، تلفّتْ إلى البحر سيدي الجنرال حتى تختفي الزوابع، انظر إلى السماء كي يتراجع الكسوف والخسوف، حدّق في الأرض كي ترعب الطاعون، إذ كان يقال بأنني صاحب الكرامات الذي يلهم الطبيعة الاحترام وعدم التعدّي ويقوّم نظام الكون ويخفف من غرور العناية الإلهية، كنت أعطيهم ما يطلبونه وأشتري منهم كل ما كانوا يبيعونه لي، ليس عن ضعف كما كانت تقول أمه بندثيون ألفارادو ولكن لأن قلبه لم يكن مجبولاً من فولاذ حتى يرفض تقديم معروف لشخص يتغنّى بفضائله، أما الآن، بالمقابل، فلم يعد أحد يسأله شيئاً، بل لم يعد أحد يقول له صباح الخير سيدي الجنرال، كيف قضيتَ ليلتك، وفَقَدَ العزاء في تلك الانفجارات الليلية التي كانت توقظه بوابل من الزجاج المحطّم، وتخلع الأبواب من محاورها وتزرع الفوضى بين الجنود، ولكنها كانت على الأقل تشعره بأنه كان حيّاً بخلاف هذا الصمت الذي يطنّ في رأسي ويوقظني بقعقعته، لم أعد سوى دمية مرسومة على جدار هذا البيت المرعب حيث يستحيل عليه أن يوعز بأمر لم ينفّذ بعد، كان يرضي رغباته الحميمة بواسطة الصّحيفة الرسمية التي يواصل قراءتها

وهو على أرجوحته ساعة القيلولة من الصفحة الأولى حتى الأخيرة من دون أن ينسى الإعلانات الصغيرة، وما من حيوية في شخصيته أو نيّة في إرادته إلا وظهرت بحروف كبيرة مع صورة الجسر الذي لم يأمر بإقامته سهواً، ومع بناء مدرسة تعليم الكنْس، والبقرة الحلوب وشجرة الخبز وصورته أثناء عمليات تدشين أخرى تعود إلى أزمنة مجده، ورغم ذلك لم يكن ليسترجع صفاءه، كان يجرجر قدمي الفيل الضخمتين باحثاً عن شيء لم يفقده في بيت عزلته، ويكتشف بأن أحدهم سبقه إلى تغطية الأقفاص بخرق الحِداد، أحدهم سبقه إلى تأمل البحر عبر النوافذ وعدّ البقرات، كلّ شيء كامل العدد كل شيء على مايرام، وكان يلتحق بغرفته ومصباحه في يده عندما تعرّف على صوته مضخماً قرب مركز الحراسة، فانحنى عبر النافذة المفتوحة قليلاً، ورأى في الغرفة المسودّة بالدخان مجموعة من الضباط المسترخين أمام ضوء الشاشة الصغيرة المغبش، وعلى الشاشة شاهد نفسه، هو، أكثر نحولاً وانقباضاً، ولكني كنت أنا بالذات، أماه، جلسنا في المكتب حيث كان عليه أن يموت مع شعار الوطن خلفه والأزواج الثلاثة من النظارات المذهبة الإطار على الطاولة، وكان يعيد عن ظهر قلب تحليلاً لحسابات الأمة بواسطة كلمات معقّدة لم يكن ليجرؤ أبداً على تكرارها، يا للفوضى، كانت تلك رؤية أكثر إزعاجاً من رؤية جثته بين الزهور، إذ أنه صار الآن يرى نفسه حيّاً ويسمع نفسه يتحدّث بصوته ذاته، أنا، أماه، أنا، الذي لم أتحمّل قط عار الظهور على شرفة، أنا الذي لم أقدر قط على أن أتغلب على الخجل أثناء التحدث إلى الملأ، ورغم ذلك فقد كان هناك على الشاشة الصغيرة، حقيقياً وفانياً بحيث لبث مفكراً قرب نافذته، أماه بندثيون

ألفارادو كيف لهذه الأعجوبة أن تكون ممكنة، لكن خوسيه انياثيو ساينز دي لابارا مكث هادئ الأعصاب أمام إحدى ثورات غضبه النادرة التي سمح بها لنفسه طيلة أعوام حكمه العديدة، لا تغضب، جنرال، قال له بصوته الرّخيم المفخّم، لقد اضطررنا إلى توخّي هذا الأسلوب غير المشروع كي نحمي سفينة التقدّم في التأديب من الغرق، إنه إلهام إلهي، جنرال، استطعنا بفضله تجنّب ارتياب الشعب وذلك بتقديم سلطة من لحم ودم تحلّل يوم الأربعاء الأخير من كل شهر، وبطريقة مسكّنة للروع، إدارة أعمال الحكومة عبر قناة التلفزيون والإذاعة الوطنيين، وأنا أتحمل مسؤولية ذلك، جنرال، لقد وضعت هنا هذا الأصيص المزود بست سماعات على شكل أزهار دوار الشمس كانت تسجل أفكارك العلنيّة، لقد كنت أنا الذي أطرح الأسئلة التي كان يجيب عليها أثناء جلسة يوم الجمعة من دون أن يرتاب بأن أجوبته البريئة كانت هي التي تشكل مقاطع الخطاب الشهري الموجّه إلى الأمّة، إذ أننا لم نستخدم صوراً أخرى قط غير صورته ولا كلمات أخرى غير كلماته، كما يمكنك أن تتأكد من ذلك شخصياً بواسطة هذه الأسطوانات التي وضعها ساينز دي لابارا على مكتبه مع هذه الأفلام وهذه الرسالة الموقعة بيدي في حضورك، جنرال، حتى تتمكّن من التصرف في حياتي كما يحلو لك، فنظر إليه محتاراً إذ أنه لاحظ فجأة أن ساينز دي لابارا كان يبدو للمرة الأولى شاحباً مخذولاً، ومن دون كلبه، عندئذ تنهّد حسناً، قم بواجبك، قال منهوكاً ومتقلباً على كرسيه المنجّد وعيناه مسمّرتان في العيون الواشية في لوحات الرجال المشهورين، كان أشد هرماً وأشد شؤماً وأشد حزناً من أي وقت مضى مع نوايا مبيّتة لم يتعرّف عليها ساينز دي لابارا إلا بعد

أسبوعين عندما دخل المكتب مجدداً من دون سابق إعلان، ساحباً الكلب من زمامه مع النبأ المستعجل عن عصيان مسلح لا يمكن إلا لتدخلك الشخصي أن يمنع حدوثه، جنرال، وأخيراً اكتشف الصدع غير الملحوظ في جدار الفتنة المكّون من الزجاج الأسود، أماه بندثيون ألفارادو انتقامي، قال، هذا الأحمق، المسكين بصدد التغوط في سرواله، ورغم ذلك فإنه لم يأت بأية حركة من شأنها أن تسمح بلمح نواياه، بالعكس، لقد دثر ساينز دي لابارا بهالة أمومية، لا تشغل بالك، تنهد قائلاً، مازال لدينا الكثير من الوقت للتفكير قبل أن يزعجونا، أين كانت الحقيقة يا للفوضى في هذا المستنقع من الحقائق المتناقضة التي تبدو غير محققة شأنها شأن الأكاذيب، في حين كان ساينز دي لابارا يتأكد من ساعته ذات السلسلة الذهبية بأن الساعة توشك على السابعة مساء، جنرال، وقادة القوات المسلحة ينهون تناول العشاء في بيوتهم، مع نسائهم وأطفالهم حتى لا يرتاب الأخيرون أيضاً في دسائسهم، وسوف يخرجون باللباس المدني بلا مرافقين من باب الخدمة حيث تنتظرهم سيارة أجرة تمّ طلبها بالهاتف لمغافلة حرسنا الذين لن يقابلوا منهم أحداً، طبعاً، لكنهم سوف يحضرون، جنرال، لأنهم هم بذواتهم السائقون، جنرال، لكنه قال آه آه وابتسم، لا تكن على هذا القدر من الانزعاج، بل أوضح لي بالأحرى كيف بقينا حتى الآن على قيد الحياة في حين كان لنا من الأعداء حسب حساباتك للرؤوس المقطوعة أكثر مما كان لنا من الجنود، غير أن ساينز دي لابارا لم يكن منشغلاً إلا بالدقات الضعيفة الصادرة عن ساعته ذات السلسلة الذهبية، لم يتبق لنا سوى ثلاث ساعات تقريباً، جنرال، قائد القوات البحرية يتجه الآن نحو قلعة الميناء، وقائد

القوات الجويّة نحو قاعدة سان خيرونيمو، ولا يزال بالإمكان إيقافهم لأن شاحنة صغيرة لأمن الدولة محملة بالخضار تتعقبهم، أما هو فلم يكن ليحرك ساكناً، كان يحس بأن قلق ساينز دي لابارا المتنامي أخذ يخلّصه من قصاص التبعيّة الذي كان أشدّ قسوة من تعطشه للسلطة، اهدأ، كان يقول له، قل لي بالأحرى لماذا لم تشتر مسكناً كبيراً بحجم عابرة محيطات، لماذا تعمل مثل بغل والحال أن المال لا يهمّك، لماذا تعيش مثل ناسك والحال أن أشد النساء تكبراً يلهثن من أجل النوم في فراشك، أنت تبدو خورياً أكثر من الخوارنة، لكن ساينز دي لابارا كان يختنق، وكان ينزّ عرقاً بارداً لم تكن جدارته الكاملة قادرة على إخفائه في هذا المكتب الذي تحوّل إلى محرقة جثث، الساعة الحادية عشرة، الآن فات الأوان، قال، بدأت إشارة مرموزة تنتقل عبر أسلاك التلغراف باتّجاه مختلف ثكنات البلاد، والقادة المتمرّدون يعلقون أوسمتهم على بدلات الاحتفال استعداداً لالتقاط أول صورة رسمية لقادة الانقلاب في حين يواصل مساعدوهم تبليغ آخر الأوامر في حرب بلا أعداء اقتصرت فيها المعارك على مراقبة مراكز الاتصالات والخدمات العامة، ولكن لم ترمش له عين أمام حدس لورد كوشيل اللاهث والذي كان قد انتصب وخيط من اللعاب ينساب من خطمه مثل دمعة لا تنتهي، بلا فوضى، قل لي بالأحرى لماذا تبدي كل هذا الخوف من الموت، فما كان من خوسيه انياثيو دي لابارا إلا أن اقتلع رأساً ياقة قميصه المنشّاة بعد أن ارتخت من العَرَق، في حين ظل وجهه الشبيه بآلة باريتون موسيقية خالياً من أي تعبير، لا شيء أكثر طبيعية، ردّ قائلاً، الخوف من الموت هو رماد السعادة، ولهذا فإنك لا تشعر به، جنرال، ثم قام وهو يعدّ، كعادته،

دقات جرس الكاتدرائية، منتصف الليل الآن، لم يعد لك أحد في العالم، جنرال، كنت أنا سندك الأخير، لكنه لم يشأ التحرّك من كرسيه المنجّد ما دام لم يسمع رعد الدبابات الأرضي في ساحة الأسلحة، عندئذ، ابتسم، لا يخدعنّك الأمر، بقي لي الشعب، قال، الشعب الأبدي البائس الذي خرج إلى الشارع قبل الفجر، محرضاً من قبل الشيخ المفاجئ الذي توجه عبر الإذاعة والتلفزيون وبتأثر تاريخي بالغ إلى كل الوطنيين في البلاد بلا استثناء ليعلن بأن قادة القوات المسلحة قاموا، بإلهام من المبادئ الراسخة للنظام القائم، وتحت قيادتي مباشرة، وترجمة منهم كما في العادة لإرادة الشعب الأعظم، بوضع حدّ في منتصف هذه الليلة المجيدة لآلة الرعب التي كان يديرها رجل مدني دموي، وقد نال عقابه بفضل العدالة المطلقة للجماهير، ذلك أن خوسيه انياثيو ساينز دي لابارا كان قد وُجد مهشّماً من الضرب، ومعلّقاً من عرقوبه على أحد فوانيس ساحة الأسلحة وعضوه التناسلي مغروز في فمه، لقد قدّر سيدي الجنرال ذلك عندما أمرنا بمحاصرة شوارع السفارات لحرمانه من حق اللجوء، لقد طارده الشعب رمياً بالحجارة، سيدي الجنرال، ولكن قبل ذلك توجب علينا أن نقتل بالطريقة نفسها ذلك الكلب الدموي الذي التهم أحشاء أربعة مدنيين وأصاب سبعة من جنودنا بجروح قاتلة عندما حاصرْنا مكاتبه وألقينا من النافذة بأكثر من مائتي صدار من الحرير المقصّب كانت لاتزال تحمل علامات معملها، وحوالي ثلاثة آلاف زوج من الأحذية الإيطالية الجديدة، ثلاثة آلاف سيدي الجنرال، لقد كان يبذر أموال الحكومة في اقتناء تلك الأشياء، ولست أدري كم صندوق غاردينيا من أجل عروة سترته وكل أسطوانات بروكنر مع توليفات لقادة أوركسترا

مسجلة بخط يده، وتم أيضاً إطلاق سراح المساجين المحجوزين في الأقبية وإحراق غرف التعذيب في ملجأ المجانين الهولنديين القديم مع هتافات عاش الجنرال، فيفا الماتشو(٤)، الذي أدرك الحقيقة أخيراً، إذ أن الجميع يقولون بأنك لم تكن على علم سيدي الجنرال، وبأنهم كانوا يضعونك على الهامش ويستغلون طيبة قلبك، وحتى الساعة لا نزال نصطاد جلادي أمن الدولة مثل الجرذان من دون أن نمكّنهم، بموجب أوامرك، من حماية الجيش وذلك لكي ينفّس القوم عن أحقادهم القديمة وضغائنهم الشديدة، فاستحسن ذلك، حسناً، كان متأثراً بصلصلة النواقيس، ومعزوفات الحريّة، وهتافات الامتنان من الجموع المحتشدة في ساحة الأسلحة، مع لافتات كبيرة حفظ الله العظيم الذي أخرجنا من ظلمات الرعب، وبمناسبة ذلك الردّ العابر العائد لأزمنته المجيدة، جمع في الباحة كل التلاميذ الضباط الذين ساعدوه على تحطيم قيود السلطة التي كانت تكبله شخصياً مثل محكوم بالأشغال الشاقة وبالإشارة إلينا بإصبعه حسب نزوات إلهامه حصل على العدد الكافي من أجل آخر مجلس قيادة في نظامه المنهار وذلك تعويضاً للمسؤولين على موت ليستيا نازارينو والصبيّ، ولقد تم القبض عليهم وهم في البيجاما أثناء محاولاتهم البحث عن ملجأ في السفارات، لكنه لم يكد يتعرف عليهم، كان قد نسي أسماءهم، بحث في قلبه عن مُدَّخر الكراهية الذي كان قد حاول الإبقاء عليه متقداً حتى الموت فلم يجد سوى رماد كبرياء جريح لم يكن ليستحق الإذكاء، فلينسحبوا، قال آمراً، وتم نقلهم على متن أول سفينة متجهة نحو مكان ينساهم فيه إلى الأبد، يا للمغفلين الحمقى، وترأس أول جلسة للحكومة الجديدة مع شعور جلي بان زهوراً ناعمة، من جيل

جديد، في قرن جديد، هم من جديد، وزراؤه المدنيّون المعتادون بستراتهم المغبرة وطبيعتهم الغرّة، مع فارق كونهم أكثر تعطشاً للشرف منهم للسلطة، أكثر قابلية للخوف والاستعباد وأقل نفعاً من سابقيهم أمام ديون خارجية أضخم من أي مشروع يمكن تمويله في مملكة سأمه المنهوبة، إذ لم يعد يوجد شيء سيدي الجنرال، حتى قطار المرتفعات نفسه خرج عن السكة وانهار في أودية تنمو فيها الأوركيديا، الفهود تنام على أرائك مخملية وهياكل السفن ذات الدواليب تهجع غائصة في مستنقعات حقول الرزّ، البريد يتعفن في الأكياس، وأزواج خرفان البحر تتوهم بأنّها تلد عرائس بحرية بين الزنابق المعتمة في مرايا المقطورة الرئاسية، كان هو وحده الذي يجهل ذلك، طبعاً، لقد اعتقد في جدوى التقدّم في التأديب لأنه لم يكن عندئذ يملك أية صلة بالحياة الواقعية ما عدا قراءة صحيفة الحكومة التي كانوا يطبعونها من أجلك أنت فقط سيدي الجنرال، طبعة كاملة مسحوبة على نسخة واحدة فيها كل الأخبار التي كنت تحب قراءتها، والصور التي كنت تأمل رؤيتها، والدعاوة التي كانت تجعلك تحلم بعالم مختلف عن ذلك العالم الذي كانوا يوفرونه لك أثناء القيلولة، حتى اليوم الذي تأكدت فيه بعينيّ المرتابتين أنّ أكواخ الزنوج المسيّجة فوق روابي الميناء ظلت كما هي خلف مباني الوزارات ذات البلّور اللمّاع، ولقد أنشئت منتزهات النّخيل حتى شاطئ البحر لكي لا يرى بأن خلف الفيللات الرومانية ذات الأروقة المتشابهة كانت لا تزال توجد أحياء البؤس التي اكتسحتها زوابعنا العديدة، كما تم زرع أعشاب عطرة على جانبي السكة الحديدية حتى يرى من المقطورة الرئاسية بأن العالم يبدو ممجّداً بفضل المياه التي كانت تباع وتشترى، تلك المياه التي كانت أمه،

أمّ أحشائي بندثيون ألفارادو، تلوّن بها الصفاريات، ولم يكن يخدع طمعاً في إرضائه كما فعل ذلك في الفترة الأخيرة من أزمنته المجيدة الجنرال رود ريغو دي أغيلار، ولا لتجنيبه مضايقات غير مجدية كما كانت تفعل ذلك ليتسيا نازارينو منطلقة من الشفقة أكثر منها من الحبّ، وإنما لإبقائه سجين سلطته بالذات مع استفحال شيخوخته على الأرجوحة تحت شجرة قابوق الباحة، حيث كانت في آخر سنوات حياته أغاني الرقصات الدائرية في المدرسة، لي عصفور في بستاني يملأ سمعي بالأغاني، قد كفّت عن أن تكون حقيقة، يا للفوضى، إلا أن تلك الدّعابة لم تحزنه، بل إنه حاول أن يجاري الواقع وذلك بإصداره مراسيم تم بموجبها استرجاع امتيازات مادة الكينا وجرعات أخرى ضرورية لسعادة الدولة، غير أن الواقع فاجأه مرّة أخرى محذراً بأن العالم يتغير والحياة تواصل مجراها خلف ظهر نظامك، ذلك أن الكينا نفدت، سيدي الجنرال، نفد الكاكاو، نفدت النّيلة، نفد كل شيء ما عدا ثروتك الخاصة التي لا تحصى ولكنها ظلت عقيمة، مهدّدة بالفراغ، ورغم ذلك لم يكن لمثل تلك الأنباء السيئة أن تقلقه بل إنه أرسل بالأحرى برسالة تحدٍّ للسفير القديم المسن روكسبوري، ربّما أمكن لنا إيجاد صيغة مصالحة حول طاولة الدومينو، لكن السفير أجابه بالأسلوب نفسه، بلا حماقات يا صاحب السمو، هذه البلاد لا تساوي بعرة، باستثناء بحرها، طبعاً، الذي يعدّ شفافاً وعذباً، زد على ذلك أن إشعال النار فوقه يعد كافياً لطبخ الحساء الكبير المؤلف من محار الكون على فوهاته، إذاً فكر في الأمر، يا صاحب السمو، إننا نرضى به كدفعة شرعية على تلك الديون القديمة التي لن يتوصل مائة جيل من الوطنيين المرموقين والمثابرين مثل سموكم

إلى تسديدها، ولكنه لم يحمل القضية محمل الجدّ في ذلك اليوم، رافقه حتى السلم متفكّراً أماه بندثيون ألفارادو يا لهم من همج هؤلاء الأمريكان، كيف تراهم لا يفكّرون في البحر إلا من أجل التهامه، حيّاه كالعادة بضربة على كتفه ثم وجد نفسه وحيداً متخبطاً بين أسجاف الضباب الاصطناعي في صحارى مرتفعات السلطة، إذ أنّ الحشود كانت قد غادرت ساحة الأسلحة، حاملة معها لافتات التمجيد ومحتفظة بالأدوات المستأجرة من أجل مسرّات مقبلة وذلك حالما كفّ الجند عن تغذية الاستراحات، التي كانت تتخلل الهتافات، بتوزيع المشروبات والمأكولات، غادرت، تاركة القاعات لحزنها، تلك القاعات التي أمست مقفرة رغم أمره بعدم إقفال الأبواب حتى يتمكن، أيّ كان، من الدخول، في أيّما ساعة، كما في السابق، عندما لم يكن المرء يعيش في بيت - مقبرة وإنما في قصر مضياف، رغم أن المتبقين لم يكونوا سوى البرصى، سيدي الجنرال، والعميان والمشلولين الذين انتظروا طيلة أعوام مصفرّين من أشعة الشمس على أبواب هذه القدس مثلما سبق لديمترو الدوس أن رآهم، منهوكين دؤوبين، ومتيقنين بأنْ عاجلاً أم آجلاً سوف يدخلون من جديد لتناول ملح العافية من يديه بما أنه كان قادراً دائماً على قهر أقسى المحن، وأشد الأهواء وأعْتى مكائد النسيان، بما أنه خالدٌ، ولقد اكتشفهم من جديد وهو عائد من الاحتلاب وكانوا يسخّنون علباً ملأى ببقايا طعام المطبخ، على قطع قرميدية مشمسة، رآهم ممدّدين فوق الحصر المبلّلة بعرق القروح وسواعدهم على شكل صلبان في ظل أشجار الورد المعطر، فتدبّر لهم موقداً جماعياً، واشترى لهم حصراً جديدة، وأرسلهم يبتنون ملجأ من سعف النخيل في آخر الباحة حتى لا يضطروا إلى

الاحتماء بداخل البيت، ورغم ذلك لم تكن لتمرّ أربعة أيام حتى يجد زوجاً من البرصى نائمين على السجادات العربية في قاعة الاحتفالات، وأعمى تائهاً في المكاتب أو مشلولاً مهشماً فوق الدرج، فكان يأمر بإقفال الأبواب كي يتحاشى أن يخلفوا سلسلة من الجروح الدامية على الجدران أو يفسدوا الهواء برائحة حامض الفينول الذي كان المسؤولون عن الخدمات الصحية يرشونهم به، مع ذلك ما إن يتم طردهم من جهة حتى يلوحوا من الجهة الثانية، عنيدين، غير تلوفين، ومتعلقين بأملهم الشرس القديم، والحال أن لا أحد كان ينتظر شيئاً من ذلك الشيخ العليل الذي يخبئ ذكريات مكتوبة في كوى الجدران ويجتاز الرياح المتضادّة في مستنقعات ذاكرته الضبابية بتلمّسات شخص سائر في نومه، ويقضي ساعات من دون أن ينام في أرجوحته متسائلاً كيف سأتخلّص، يا للفوضى، من ورطة السفير الجديد فيشر الذي اقترح عليّ التبليغ بوجود كارثة حمّى صفراء لتبرير إنزال المارينز طبقاً لاتفاقية التعاون المشترك فيما بيننا وذلك طيلة السنوات الضرورية لبعث الحياة في الوطن المحتضر، ولقد ردّ فوراً، بلا حماقات، مفتوناً ببداهة كونه كان يعيش من جديد في بدايات نظامه عندما التجأ إلى الأسلوب نفسه كي يتصرف بسلطات استثنائية ضمن الأحكام العرفية رغم الخطر المهدد بانتفاضة شعبية، وكان قد أصدر مرسوماً يعلن حالة الطاعون، فرفع العلم الأصفر على عمود المنارة، وأغلق الميناء، وألغيت الآحاد، ومنع البكاء على الموتى علانية وكذلك عزف الألحان لذكراهم، ولقد حض القوات المسلحة على أن ترعى تطبيق المرسوم آمراً بأن يتصرفوا كما يشاؤون في المصابين بالطاعون، بحيث كان الجند المميزون بشارات صحية على سواعدهم

يفتكون علانية بمختلف الناس مهما كانت ظروفهم، ويميّزون بدوائر حمراء أبواب المنازل المشبوهة بمعاداتها للنظام، ويَسِمُون بحديد وسم الأبقار جباه أبسط المخالفين، والسحاقيات واللواطيين، في حين كانت بعثة طبية، تم استدعاؤها على عجل لحكومته بوساطة السفير ميتشل، تسهر على منع انتقال العدوى إلى سكان البيت الرئاسي، وتجمع براز أطفاله الهجناء من الأرض لتحليله بواسطة عدسات مكبرة، وتلقي بالأقراص المطهرة في الجرار، وتلقح حيوانات المختبرات بيرقانات حشرات في حين كان يقول لهم بواسطة الترجمان وهو يكاد يموت من الضحك لا تكونوا مغفلين إلى هذه الدرجة يا «مسترز» إنما الطاعون هنا هو أنتم، لكنهم كانوا يلحّون قائلين بالتوالي وحسب منزلتهم، بلى بلى، الطاعون موجود، ولقد جهزوا عسلاً وقائياً، خثراً أخضر، كانوا يطلون به كل الزائرين بلا تمييز ابتداء من الزوار الاعتياديين وحتى المرموقين، من رؤوسهم إلى أقدامهم، وكانوا يجبرونهم على المكوث بعيداً في قاعة الاجتماعات خلال الجلسات، بحيث يكونون واقفين عند العتبة ويكون هو جالساً في المكان الذي تتناهى إليه منه أصواتهم دون أنفاسهم، فكان يتفاوض بصرخات عالية مع أقوام مجردين من الثياب ذوي أصول عائلية قديمة كانوا يومئون بيد، يا صاحب السموّ، ويغطون عصفورهم الكسيح المبرقش باليد الأخرى، كل ذلك كي يحولوا دون انتقال العدوى إلى ذلك الذي تصور في وهن أرقه كل تفاصيل الكارثة المصطنعة، وابتكر إشاعات زلزالية ونشر تنبؤات رؤيوية متطابقة مع معياره الخاص، بقدر ما يفهم القوم أقل بقدر ما ينخدعون أكثر، ولم يكد يقطب حاجبيه عندما أقبل أحد مرافقيه، أدكن من الهول، واتخذ وضع الاستعداد العسكري وأخبره سيدي الجنرال

الطاعون بصدد إحداث مذبحة رهيبة في صفوف السكان المدنيين، بحيث أنه شاهد، عبر زجاج بلّور المركبة الرئاسية الملوّن، الزمن المتوقف بموجب أمره في الشوارع المهجورة، رأى الريح المذهولة على الأعلام الصفراء، رأى كل الأبواب موصدة بما في ذلك تلك التي لم تميّز بدوائر حمراء، رأى العقبان متخمة على الشرفات، رأى الموتى، الموتى، الموتى، كان عددهم كبيراً وفي كل مكان، كان من المستحيل إحصاؤهم في المستنقعات، كانوا مكدّسين في الشرفات تحت أشعة الشمس، وممددين فوق الخضار في السوق، موتى من لحم ودم سيدي الجنرال ومن عساه يقدر على إحصائهم، إذ أنهم كانوا أكثر عدداً مما كان يرغب أن يكونوا في صفوف أعدائه، مقذوفين مثل الكلاب الميتة في صناديق النفايات، ولقد استطاع وهو يحوّم فوق الأجساد المتعفّنة ونتانة الشوارع المعتادة أن يتعرّف على رائحة المصيبة، رائحة الطاعون، ورغم ذلك لم يرتبك، ولم يخضع لأي التماس ما دام لم يشعر من جديد بأنه سيّد سلطته المطلقة، وعندما بدا أن ليس هناك إمكانية بشرية أو إلهية قادرة على وضع حد للإبادة، عند ذلك فقط شاهدنا مركبة خالية من الأعلام تلوح في الشوارع، ولأول وهلة لم يتوصل أحد إلى اكتشاف الأنفاس الجامدة لعظمة السلطة، ولكننا داخل المخمل المأتمي شاهدنا العينين المهلكتين، الشفتين المرتعشتين، وقفاز الزواج الذي كان يلقي بحفنات من الملح باتجاه الأقواس، رأينا القطار المطلي بألوان الراية يتسلق ببراثنه مرتفعات الغاردينيا والفهود المذعورة مخترقاً ضباب المنحدرات الساحلية في أشد القرى وعورة، رأينا العينين الكدرتين عبر ستائر المقطورة الوحيدة، رأينا الوجه المكروب، يد الفتاة المتحررة من الوهم والتي كانت تخلف سحابة

من الملح على طول مرتفعات طفولته الصحراوية الكئيبة، رأينا الباخرة ذات الدولاب الخشبي تتصاعد منها ألحان مازوركا معزوفة بآلات بيانو آلية غريبة، وكانت تلك الباخرة تتقدم مهتزّة ما بين صخور المقاعد الرملية المتبقية من الكوارث التي لحقت بالغابة إثر النزهات الربيعية للتّنين، رأينا عيني المساء الغاربتين خلف كوّة المقطورة الرئاسية، شاهدنا الشفتين الشاحبتين، واليد التي لا أرومة لها ترمي بحفنات الملح في القرى المسترخية من القيظ، وكان أولئك الذين يأكلون الملح ويلعقون الأرض التي تلقته، يسترجعون عافيتهم حالاً ويمكثون محصّنين طويلاً ضدّ الشؤم ونزوات الوهم، وبالإضافة إلى ذلك لم يعجب في آخر سنوات خريفه عندما اقترحوا عليه مخططاً جديداً للانطلاق يقوم على إشاعة مماثلة تتعلق بوباء سياسي من الحمّى الصفراء ورغم ذلك فقد اعترض على مبررات الوزراء العقيمين الذين كانوا يزعقون فليعودوا، سيدي الجنرال، على المارينز أن يعودوا مع آلاتهم الخاصة بتطهير الموبوئين وذلك مقابل كل ما يرغبون فيه، فليعودوا مع مستشفياتهم البيضاء، ومروجهم الزرقاء، ونوافيرهم المدوّمة التي تضفي على السنوات الكبيسة قروناً من العافية، غير أنه ضرب على الطاولة وقرر أن كلا، وكل ذلك تحت مسؤوليته العليا، حتى اللحظة التي ردّ فيها على السفير ماك كوين، الأمر لا يتعلق بالجدال، يا صاحب السموّ، فالنظام ليس مدعوماً بالأمل ولا بالعرف، ولا حتى بالإرهاب، وإنما بقصور وبخيبة قديمة ومحتمة، اخرجْ إلى الشارع وجابه الحقيقة، يا صاحب السموّ، إننا نقترب من المنعطف الأخير، إمّا أن ينزل المارينز وإما أن نأخذ معنا البحر، ليس هناك من خيار آخر يا صاحب السموّ، لم يكن هناك من خيار آخر، أماه،

بحيث أنهم نقلوا بحرنا الكاريبي في شهر نيسان، لقد نقله مهندسو السفير ايونغ النوتيون قطعاً مرقمة كي يعيدوا تركيبه بعيداً عن أعاصير صباحات الدم في الأريزونا، لقد نقلوه مع كل محتوياته، سيدي الجنرال مع انعكاسات مدننا، وغرقانا الفزعين وتنّيننا الهاذي، ولقد التجأ إلى أشد سجلات مكره الألفي جرأة، محاولة منه لإحداث انتفاضة احتجاج وطنية ضدّ المغتصبين، ولكن ما من أحد أبدى أدنى اهتمام بالأمر سيدي الجنرال، لم يرغب القوم في الخروج إلى الشارع تلقائياً أو بالإكراه إذ أننا كنّا نفكر بأن الأمر يتعلق بمناورة جديدة بعد مناورات سابقة عديدة محاولة منه لإرضاء رغبته التي لا يكبح لها جماح في البقاء حتى أبعد الحدود الممكنة، كنا نقول فليحدث أي شيء كان، حتى ولو كان ذلك يعني أن يحملوا كل الوطن مع تنّينه، كنا نفكر، غير شاعرين بخداعات الاستدراج لدى العسكريين الذين كانوا يدخلون بيوتنا متنكرين في ثياب مدنية ويتوسلون إلينا باسم الوطن أن نخرج إلى الشارع صارخين، اخرجوا أيها "الغرينغو"، للحؤول دون الاغتصاب، كانوا يحرضوننا على نهب فيللات الأجانب وإشعال النار فيها، ولقد دفعوا لنا أموالاً رنّانة كي نخرج للاحتجاج، تحت حماية الجنود المتضامنين مع الشعب، ضد العدوان، ولكن لم يتحرك أحد سيدي الجنرال لأن لا أحد نسي أنهم في مناسبة أخرى قالوا لنا الشيء نفسه مع وعدهم لنا بشرفهم العسكري الأمر الذي لم يمنعهم من تقتيلنا بالبنادق متذرّعين بوجود مندسّين بيننا أطلقوا النار على الجنود، بحيث لا يمكننا في هذه المرّة أن نعتمد على الشعب سيدي الجنرال، ولقد توجّب عليّ أن أتحمل عبء القصاص وحدي، توجب عليّ أن أوقع وحدي مفكراً أمّاه بندثيون ألفارادو لا أحد

يدرك أفضل منك أن فقدان البحر أهون من السماح بنزول المارينز، تذكري لقد كانوا هم الذين يفكّرون في الأوامر التي يسمحون لي بتوقيعها، وكانوا يحوّلون الفنانين إلى لواطيين، ولقد أتوا بالكتاب المقدس وبداء السفلس، وأسروا في اعتقاد القوم بأن الحياة سهلة، أماه، وأنّ بوسع المرء أن يحصل على كل شيء بواسطة المال، وأن الزنوج مصابون بأوبئة سارية، وحاولوا أن يقنعوا جنودنا بأن الوطن صفقة تجاريّة وبأنّ الشعور بالشرف ليس سوى مهزلة اخترعتها الحكومة حتى يقاتل الجنود مجاناً، ولتفادي تكرار ذلك العدد من المصائب، وهبْتُهم حق التمتع ببحارنا الإقليمية بالطريقة التي يعتبرونها تتطابق مع مصالح الإنسانية وتخدم السلام بين الشعوب، والتنازل الاختياري المذكور يتضمن، كما ينبغي، ليس فقط المياه الطبيعية المرئية من نافذة غرفته حتى الأفق وإنما أيضاً كل ما يفهم من كلمة بحر بالمعنى الواسع للكلمة، أي حيواناته ونباتاته، وسرعة رياحه، ومليباراته[٥]، وكل شيء، غير أنني لم أكن أتصورهم قادرين على استعمال تلك الجرافات الماصة الضخمة لحمل الرافعات المرقمة في بحرنا القديم الذي ظل شبيهاً برقعة شطرنج مع فوهته الممزّقة التي شاهدنا فيها الأنقاض المكتسحة لمدينة سانتا ماريا دل داريان القديمة التي أتت عليها الحرب وكانت تلوح مثل بروق خاطفة، ومن جديد شاهدنا أيضاً السفينة الشراعية لأميرال البحر المحيط تماماً مثلما سبق لي أن رأيتها من نافذتي، أماه، كانت سليمة، محجوزة في دغل من الحيوانات القشرية اللّصوقة وسرعان ما اقتلعتها الجرّافة الكاسحة بضربة واحدة من دون أن تترك له وقتاً كي يأمر بالتشريفات الجديرة بالحجم التاريخي لذلك الغريق، ولقد نقلوا كل ما

كان يشكل مبرر حروبي ومبرر سلطته ولم يتركوا سوى السهل المقفر بغباره القمري الخشن والذي كان يشاهده من نوافذه لدى مروره منقبض القلب صارخاً أمّاه بندثيون ألفارادو أنيريني بأنوارك المعرفية، ذلك أنه طيلة تلك الليالي من حياته المنتهية كان يستيقظ مرتاعاً، وكان موتى الوطن ينتصبون في قبورهم لكي يحاسبوه في قضية البحر، وكان يسمع صوت حك أظافرهم على الجدران، ويفاجأ بأصوات بلا قبور، وبهول نظرات المنبعثين من موتهم وهي تراقب، عبر ثقب الأقفال، أثر قدميه الكبيرتين، قدمي العظاية المحتضرة في بخار مستنقع الخلاص الأخير، داخل البيت المعتم، كان يمشي بلا توقف في ملتقى رياح الصابيات البطيئة ورياح الميسترال المزيفة المتأتّية من المروحة الهوائية التي أهداها له السفير ايبرهرت كي يقوى على تحمّل تلك الصفقة البحرية الخاسرة، وهنالك فوق ذروة الصخور كان يشاهد النور المتوحّد الكئيب في بيت الدكتاتوريين المنفيين الذين ينامون نوماً عميقاً بينما أنا أتعذّب هنا، المنحطّون، وكان يتذكر شخير الوداع من أمّه بندثيون ألفارادو في قصر الضاحية، ونومها الهانئ، نوم مربية الطيور، في الغرفة المضاءة بيقظة الصعتر البرّي، آه لو أنها كانت مكاني، يتنهد، تلك الأم السعيدة النائمة التي لم تسمح قط للطاعون أن يلامسها، ولا للحبّ أن يخجلها ولا للموت أن يربكها، أما هو فكان على قدر من الضنى بحيث أن شلالات النور الخضراء المنبعثة من المنارة، تلك المنارة التي غدت بلا بحر، كانت تبدو له لدى دخولها من النوافذ، كأنها مدنسة بالموتى، ولقد فرّ مرتاعاً من هول تلك الحباحب الفلكية التي كان مدارها الكابوسي الدوّار يبخّر ذلك الدفق الخطير من غبار نخاع الموتى المشع، أطفئوه

صرخ، فأطفئ، ولقد أمر بسدّ شقوق البيت من الداخل ومن الخارج حتى لا تتمكّن أدنى نسمة من نسمات الطاعون المتنقل في طيات رياح الموت الليلية، من التسرّب عبر شقوق الأبواب والنوافذ حتى وإن اندسّت في روائح أخرى، ولقد عاش في العتمة، متخبّطاً، وكان يتنفس بصعوبة بسبب الحرارة ونقص الهواء، وكان يشعر بأنه يخترق مرايا معتمة، فيسير هلعاً، حتى اللحظة التي سمع فيها وقع حوافر تنفلق من فوهة البحر لقد كان القمر وهو يطلع بثلوجه المفرقعة، إنه مفزع، طاردوه، صاح، أطفئوا النجوم، يا للفوضى، إنه الربّ يأمركم بذلك، ولكن ما من أحد استجاب لصراخه، ما من أحد سمعه، باستثناء المشلولين الذين استيقظوا مذعورين في المكاتب القديمة، والعميان فوق درجات السلم، والبرصى المبللين بلؤلؤ الندى الذين وقفوا، لدى مروره فوق سيقان الورود الحديثة، لكي يتوسلوا بأيديهم ملح العافية، وعندئذ، يا متشكّكي العالم بأسره، أيها المشركون القذرون، نعم عندئذ ولدى مروره، مسّ رؤوسنا الواحد بعد الآخر، نعم الواحد بعد الآخر، لسنا في موضع مرضنا بيد ناعمة وعالمة ولم تكن سوى يد الحقيقة، وعلى الفور استعدنا عافية الجسد وصفاء الروح، استعدنا القوة والرغبة في الحياة، وشاهدنا العميان مبهورين بألق الورود، شاهدنا الكسيحين وقد بدأوا يترنحون على السلّم، شاهدنا جلدي أنا بالذات وقد تحول إلى جلد مولود جديد وأنا الآن أعرضه في كل معارض العالم بأسره حتى لا يجهل أحد نبأ المعجزة، ولقد شممنا أريج تلك الزنبقة البدرية من ندوب جروحي، وها أنذا أنشره على وجه الأرض عقاباً للكافرين وخزياً للفاسقين، كانوا يبشرون بذلك في الجبال وفي المدن، في الحِلّ وفي الترحال، محاولين زرع الهلع في

الحشود أمام المعجزة، لكن ما من أحد كان يصدق ذلك، إذ كنا نفكر بأن الأمر لا يتعلق إلا بواحد من أولئك المتملقين الذين كانوا يرسلون إلى القرى مع مجموعة من المشعوذين محاولة منهم لإقناعنا كي نؤمن بالعجيب الذي أعاد الجلد للبرصى، والرؤية للعميان، والنشاط للمشلولين، كنا نفكّر بأنّ تلك لم تكن سوى ورقة النظام الأخيرة لجلب الانتباه إلى رئيس غير محتمل بدأ عدد حراسه الخاص يتقلص إلى دورية من الأغرار المجندين وذلك بخلاف المعيار الإجماعي لمجلس الحكومة الذي كان قد أصر سيدي الجنرال، لا بد من حماية أكثر صرامة، أنت بحاجة إلى وحدة قناصين على الأقل، لكنه أصر ليس لأحد حاجة أو رغبة في قتلي، باستثنائكم أنتم، وزرائي غير المجديين، وقادتي العاطلين، لا يتجرأ أحد ولن يتجرأ أحد على قتلي إذ من المعروف أنهم بعدي سوف يقتتلون فيما بينهم، إذاً لم تبق سوى دورية مجندين لحماية بيت ميت كانت الأبقار فيه تذهب وتجيء حسب رغبتها من بهو الدخول إلى قاعة الاجتماعات، لقد التهمت مروج الزهر حتى على السجادات سيدي الجنرال، لقد التهمت الأرشيف، أما هو فلم يكن ليكترث، وفي إحدى ظهيرات أكتوبر حيث كان يتعذّر البقاء خارج البيت بسبب غزارة الأمطار، رأى أول بقرة تصعد، فحاول إبعادها بيديه، أيتها البقرة الصغيرة، أيتها البقرة الصغيرة، متذكراً فجأة أن بقرة تكتب بالتاء المربوطة لا بالتاء المفتوحة، ثم رآها ثانية وقد شرعت تأكل أغطية المصابيح في مرحلة من حياته كان قد بدأ يدرك فيها بأن التنقل حتى الدرج لإبعاد بقرة ليس أمراً ذا بال، ولقد وجد في قاعة الاحتفالات بقرتين أخريين، متضايقتين من الدجاجات التي كانت تقفز فوقهماكي

تنقر القراد، ويمكننا أن نستخلص من كل ذلك بأنه، طيلة الليالي الأخيرة التي شاهدنا فيها أنواراً تشبه أنوار ملاحة في البحر، والتي سمعنا فيها صدى التخريب الذي كانت تحدثه حوافر حيوان ضخم خلف الجدران المحصّنة، كان وبيده فانوس بحري ينازع الأبقار لإيجاد زاوية ينام فيها في حين كانت حياته العامة في الخارج تتواصل من دونه، إذ كنا نرى بانتظام في صحف السلطة، الصور الخداعة المتعلقة بالاجتماعات المدنيّة والعسكرية، وكانوا يظهرونه لنا في تلك الصور مرتدياً بدلات مختلفة حسب المناسبات، كما كنا نسمع من الإذاعة الخطب المجترّة في كل عام ومنذ سنين عديدة بمناسبة الأعياد الوطنية، كان حاضراً في حياتنا منذ خروجه من بيته وحتى دخوله الكنيسة، أثناء أكله ونومه، في حين كان من المعلوم للكافة بأنه لا يكاد يقدر على التحرك بجزمتيه الضخمتين، جزمتي المشاء العنيد، في ذلك المسكن المتداعي الذي صار عدد مستخدميه مقتصراً على ثلاثة جنود وصفاء أو أربعة كانوا يجهزون له طعامه، ويموّنون مخابئه بالعسل، ويطردون الأبقار التي داست التمثال الخزفي لمجلس قيادة الماريشالات، في المكتب المحظور الذي ينبغي أن يموت فيه، وذلك حسب تنبؤات العرافات التي نسيها شخصياً، ولقد كانوا يظلون تحت أوامره النزقة حتى اللحظة التي يعلّق فيها مصباحه فوق الباب ويسمعون قرقعة الرتاجات الثلاثة والمزاليج الثلاثة والدّعامات الثلاث في الغرفة التي كان غياب البحر قد جعلها خانقة، فكانوا عندئذ ينسحبون إلى أكواخهم في الطبقة الأرضية متيقّنين بأنه غاطس في أحلامه، أحلام الغريق المتوحّد، حتى بداية الصباح، غير أن رجفات غير منتظرة كانت توقظه مذعوراً فيقضي ليلته أرِقاً مجرجراً

قدميه الضخمتين، قدمي الميّت المنبثق من قبره، عبر البيت الشاسع المعتم الذي كان صفو هدوئه لا يكاد يشوّش باجترار الأبقار البطيء والتنفس الخامد للدجاج الهاجع، فوق المشاجب التي كانت تعلق عليها سابقاً معاطف حكام المستعمرات، كان يسمع رياحاً قمرية في العتمة، ويفاجئ خطوات الزمن في الظلمة، ويرى أمّه بندثيون ألفارادو تكنس في الظلام بالمكنسة نفسها المضفورة من الأغصان الخضراء، والتي استخدمها ليكنس، مثلما تكنس الأوراق الصفراء الميتة، حيوات رجال مرموقين مثل كورنيليوس نيبوس في الطّبعة الأصلية، وكتاب فنّ الخطابة القديم لليفيوس أندرونيكوس وسيسيليوس وهي كتب ملأت سلال المهملات في الليلة الدموية نفسها التي دخل فيها بيت السلطة الفارغ لأول مرّة بينما في الخارج كانت تصمد آخر المتاريس الانتحارية التابعة للجنرال الشهير المتبحّر في العلوم اللاتينية لوتارو مونيوز، تقبله الله في فراديس جنانه، ولقد اجتازا الباحة تحت احمرار المدينة المشتعلة بالنيران قافزيْن فوق تلال جثث الحرس الخاص بالرئيس العلامة، ولقد كان هو يرتجف من الملاريا في حين لم يكن بحوزة أمه بندثيون ألفارادو سلاح آخر عدا مكنستها المضفورة من الأغصان الخضراء، ولقد صعدا السلّم متعثرين في الظلام بجثث خيول الإسطبل الرئاسي الفاخر، التي كانت لاتزال تنزف دماً من المدخل وحتى قاعة الاجتماعات، وكان من الصعب التنفس في البيت المغلق بسبب رائحة دم الخيول القريبة من رائحة البارود الحامضة، رأينا في الأروقة آثار أقدام حافية ملطخة بدم الخيول، رأينا على الجدران آثار أكف ملوّثة بدم الخيول، كما أنّنا رأينا في بحيرة الدم، داخل قاعة الاجتماعات، جسداً نازفاً لفلورنسية جميلة

في قميص النوم مع سيف مستقر في قلبها، وكانت تلك زوجة الرئيس، وبالقرب منها رأينا جثةَ بُنيّة كانت تشبه راقصة الباليه وقد اخترقت جبينها رصاصة مسدّس، وهي ابنته ذات التسع سنوات، ثم رأينا جثة الرئيس لوتارو مونيوز مثل قيصر، غاريبالدي الملامح، لوتارو مونيوز، ليس فقط أبرع وأجدر الجنرالات الأربعة عشر الفيدراليين الذين توالوا على السلطة عبر سلسلة من الاغتيالات طيلة إحدى عشرة سنة من التنافس الدموي، وإنما أيضاً الوحيد الذي تجرأ على قول لا بلغته القومية للقنصل الإنجليزي، كان ممدّداً هناك مثل سمكة حفش، حافي القدمين، متكبّداً عاقبة تهوّره ومحطّم الجمجمة برصاصة مسدّس أطلقها في فمه بعد أن قتل زوجته وابنته وخيوله الأندلسية البالغ عددها اثنين وأربعين كي لا يقعوا بين أيدي أفراد الحملة التأديبية البريطانية، وعندئذ قال لي المقدّم كيتشنر مشيراً إلى الجثة، انظر يا جنرال، هكذا ينتهي الذين يتجرؤون على عصيان أبيهم، تذكر ذلك جيداً عندما تصبح على رأس مملكتك، قال له، ولقد نودي به بعد العديد من ليالي الانتظار والأرق، بعد العديد من نوبات الحنق المؤجلة، وبعد العديد من الإهانات المتجرعة، نودي به، أمّاه، قائداً عاماً للقوات المسلحة ورئيساً للجمهورية طيلة الفترة الضرورية لإعادة النظام والتوازن الاقتصادي للأمّة، كما أجمع سائر الزعماء الفيدراليين مع موافقة مجلس الشيوخ ومجلس النواب بالكامل، وكذلك بتأييد من الأسطول البريطاني الذي رغب في شكري على سهراتي العديدة الشاقة في لعب الدومينو مع القنصل ماكدونال، رغم أن أحداً لم يعتقد بصحة ذلك في البداية، وأولهم أنا، طبعاً، ومن عساه كان يصدق في ليلة الهول الصاخبة تلك، أن بندثيون

ألفارادو نفسها لم تتوصل بعد إلى الاقتناع بذلك وهي على فراشها العفن عندما كانت تستحضر ذكرى ماضي ابنها الذي كان يجهل من أين يبدأ بالحكم في تلك الفوضى، إذ كانا لا يجدان ولو عشبة يمكن سلقها لتخفيف وطأة الحمّى عليه في ذلك البيت الرحب الخالي من الأثاث، والذي لم يتبق فيه أي شيء ذي قيمة ما عدا اللوحات المقروضة لحكام المستعمرات والمطارنة المخلّدين لمجد إسبانيا المندثر، أما كل ما تبقى فقد نقله أسلافه شيئاً فشيئاً إلى قصورهم الخاصة، وعلى الجدران لم يعد هناك من أثر للورق الجميل الملون الذي كان يصوّر مشاهد بطولية، وكانت الغرف ملأى بفضلات الثكنات، وكانت توجد في كل مكان آثار متأتية من مجازر تاريخية مع كتابات، خطها رؤساء أشباح لمدّة ليلة واحدة بإصبع نازف، ولكن لم يكن يوجد أي حصير يمكنه أن يعرق فوقه بارتياح، الأمر الذي جعل أمه بندثيون ألفارادو تقتلع ستارة كي تدثرني بها، ثم تركته ممدداً في إحدى زوايا الدرج الكبير بينما أخذت تكنس بمكنستها، المضفورة من الأغصان الخضراء، الغرف الرئاسية التي كان الإنجليز قد انتهوا من نهبها، ولقد نظفت الطابق بكامله، مستعملة مكنستها، في غضون ذلك، للدفاع عن نفسها ضد تلك الزمرة من القراصنة الذين كانوا يحاولون اغتصابها وراء الأبواب، وعادت قبل طلوع الفجر بقليل لتجلس بجانب ابنها الذي أنهكته القشعريرة وهو ملفوف بستارة القطيفة، ناضحاً بعرق غزير فوق الدرجة الأخيرة من سلم البيت المخرّب وكانت تحاول التخفيف من درجة حرارته بواسطة حسابات سهلة، لا تزعج نفسك بهذه البلبلة، يا بنيّ، يكفينا أن نشتري بعض المناضد الجلدية الرخيصة ونرسم عليها زهوراً وحيوانات،

سأتولى أنا ذلك، حسبنا أن نشتري عدداً من أرجوحات النوم من أجل الضيوف، نعم، أرجوحات نوم بالخصوص، إذ من المفروض، في بيت رحب مثل هذا، أن يفاجئك قوم كثيرون في أيما ساعة ومن دون سابق إعلان، كانت تقول، سوف نشتري طاولة كنيسة للطعام، وملاعق وشوكات وسكاكين معدنية وصحوناً قصديرية، لكي لا يطعجها الجنود كثيراً، وسوف نشتري جرّة ماء مناسبة ومدفأة فحم، وهكذا سوف تسير الأمور على ما يرام، إذ في نهاية الأمر إنما الحكومة هي التي تدفع، كانت تقول له لتواسيه، لكنه لم يكن يصغي إليها وهو رازح تحت أولى أنوار الصباح الخبازية اللون، التي أخذت تضيء الوجه المخفي للحقيقة إلى حدود إبرازها عارية تماماً، وكان يدرك بأنه ليس سوى شيخ هرم مثير للشفقة يرتجف من الحمّى وهو جالس على السلّم مفكّراً بازدراء أماه بندثيون ألفارادو هكذا إذاً لم يكن كل شيء سوى بؤس مقيت يا للفوضى، والسلطة لم تكن سوى بيت للغرقى ورائحة بشرية شبيهة برائحة حصان مشوي، وتاريخ السلطة إذاً لم يكن سوى هذا، الفجر الموحش في يوم ١٢ أغسطس الشبيه بسائر الأيام العديدة الأخرى، أماه، في أي مأزق تورطنا، وكان يعاني من التوعّك المتعلق بأصله ومنشئه، والخوف الوراثي من قرن الظلمات الجديد الذي بدأ يحل في العالم من دون إذنه، كانت الديكة تصيح في البحر، والإنكليز يغنون بالإنكليزية وهم يجمعون الموتى من الباحة في حين كانت أمّه بندثيون ألفارادو تنجز حساباتها النشطة، مضيفة، كلا لست خائفة من الأشياء التي علينا أن نشتريها ولا من العمل الذي ينتظرني، يا بنيّ، إنما الذي يفزعني هو عدد الأغطية التي ينبغي غسلها في هذا البيت، وعندئذ كان يستند بدوره

إلى قوة خيبته محاولاً مواساتها نامي مرتاحة البال، أماه، في هذه البلاد لا يطيل الرؤساء البقاء، قال لها، سوف يطيحون بي قبل خمسة عشر يوماً، سترين، قال لها، ولم يكن متيقناً من ذلك في ذلك العصر فقط بل إنه ظل على يقينه هذا، في كل لحظة، من كل ساعة، خلال حياته الطويلة، حياة الطاغية المقيم، برسوخ متزايد بحيث كانت الحياة تقنعه بأنه لا يمكن أن يكون في أعوام حكمه الطويلة يومان متشابهان، وبأن هناك دائماً نوايا مبيّتة في حديث رئيس الوزراء عندما كان الأخير يقوم بتفجير مبهر للحقيقة في تقريره الروتيني ليوم الأربعاء، كان لا يكاد يبتسم إليه، لا تفصح لي عن الحقيقة، أيها المجاز(٦)، إذ أنك تجازف هكذا بإمكانية اقتناعي بها، ناسفاً بتلك الجملة القصيرة كل الاستراتيجية الشاقّة لمجلس الوزراء الذي كان كل همه أن يراه يوقع من دون أسئلة، إذ لم يسبق قط أن بدا لي أكثر صحواً منه في تلك اللحظة التي انتشرت فيها أكثر الإشاعات إقناعاً، مؤكدة بأنه كان يتبوّل في بنطاله أثناء الزيارات الرسمية، ولقد كان يبدو لي أكثر صرامة بمجرّد أن يغطس في مياه العجز الراكدة، منتعلاً خفّي المريض الذي لا أمل في شفائه، وواضعاً نظارته ذات اليد الواحدة المرقعة بخيط الحياكة، ولقد أصبح طبعه أكثر حيوية، وغريزته أكثر مهارة في استبعاد كل ما هو غير مناسب وفي توقيع ما هو مناسب من دون الاطلاع عليه، يا للفوضى، لا أحد يصغي إليّ في النهاية، كان يبتسم، تصوّروا أنه طالب بوضع سياج في الرّواق حتى لا تتسلق الأبقار السلم، ورغم ذلك فإنها كانت هناك، بقربه، يا بقرتي الصغيرة، يا بقرتي الصغيرة، ولقد أدخلت رأسها عبر نافذة المكتب وأخذت تأكل الزهور الورقية التي تزيّن هيكل

الوطن، أما هو فكان يكتفي بالابتسام، هل تدرك ما أقول لك، أيها المجاز، إنما سبب كارثة هذه البلاد هو كون لا أحد أصغى إليّ قطّ، كان يقول، ويقول ذلك ببعد نظر لا يصدّق بالنسبة لسنه، الأمر الذي أنكره السفير كبلنغ عندما روى في مذكراته المحظورة أنه وجده في ذلك العصر في حالة شاقة من فقدان الوعي بسبب الشيخوخة وهي حالة لم تعد تمكنه حتى من تدبّر أمره في الشؤون الأكثر صبيانية، ويروي بأنه وجده مندبقاً بمادة مملّحة كانت تنزّ من جلده من دون انقطاع، وأنه تحوّل إلى حجم غريق ضخم يطفو جانحاً ببطء وصفاء، ولقد فتح قميصه كي يظهر لي جسده المتيبّس واللامع، جسد الغريق في اليابسة، وكانت تتكاثر في تجويفاته طفيليات صخرية من أعماق البحار، وكانت أسماك لَشَك ملتصقة بظهره وكأنها ملتصقة بمركب، كما كانت أنواع من المديخ(٧) والقشريات عالقة بإبطيه، لكنه كان مقتنعاً بأن تلك البراعم الصخرية إنما كانت الأعراض الأولى لعودة البحر التلقائية، البحر الذي أخذه ملاحوكم، يا عزيزي جونسون، ذلك أن البحار مثل القطط، قال، إنها تعود دائماً، وكان مقتنعاً بأن أسراب القشريات الملتصقة بثنية فخذه إنما كانت الإعلان السري عن فجر سعيد سوف يفتح فيه نافذة غرفته ليرى من جديد السفن الشراعية الثلاث لأميرال البحر المحيط الذي بحث عنه سدى في كل أنحاء العالم كي يتحقق إنْ كانت يداه حقاً ناعمتين مثله ومثل العديد من أبطال التاريخ كما رووا له، ايتوني به طوعاً أو كرهاً، أمر، غير أنّ ملاحين آخرين رووا له بأنهم رأوه منهمكاً في رسم خرائط للجزر العديدة الموجودة في البحار المجاورة مستبدلاً أسماء العسكريين التي كانت تطلق عليها بأسماء ملوك وقديسين في حين كان يبحث في العلم البلدي عن

الشيء الوحيد الذي اهتم به حقاً ويتعلق باكتشاف دواء ناجع لمعالجة صلعه الناشئ، ولقد فقدنا الأمل في العثور عليه عندما تمكن، وهو في سيارة الليموزين الرئاسية، من التعرف عليه، كان متنكراً في ثوب راهب داكن اللون ومتمنطقاً بحبل القديس فرانشيسكو وكان يدق على ناقوس توبة خشبي بين جمهور السوق، يوم الأحد، لكنه كان يشي بحالة من التدنّي الأخلاقي بحيث كان من شأن المرء أن يشك بأنه رآه يدخل سابقاً قاعة الاجتماعات مرتدياً بدلة قرمزية ومهمازين من ذهب بمشية سرطان بحري على اليابسة، ولكن عندما تمت، بأمر منه، محاولة نقله إلى سيارة الليموزين أفلت من بين أيدينا سيدي الجنرال، ولقد ابتلعته الأرض، ويقال بأنه تحوّل إلى مسلم، وأنه مات بعد إصابته بداء الحصاف في السّنغال وقد تمّ دفنه في ثلاثة قبور مختلفة توجد في ثلاث مدن مختلفة من الكون رغم أنه في الحقيقة لم يكن يوجد فيها، بل ظل محكوماً عليه بالتشرّد من قبر إلى قبر حتى نهاية القرون بسبب بؤس مشاريعه، إذ أن هذا الرجل كان سيء الحظ، سيدي الجنرال، نعم لقد كان يجرّ نحسه أينما حلّ، أما هو فلم يصدّق أية كلمة مطلقاً، وواصل انتظاره لعودته حتى الوقت الذي بلغ فيه نهاية شيخوخته وصار وزير الصحة يقتلع له بواسطة كلابة كل القرادات التي كانت تظهر على جلده في حين كان هو يصرّ ليست قرادات، أيها الطبيب، إنه البحر يعود، يقول، راسخ اليقين بقوله إلى درجة أن وزير الصحة كثيراً ما فكر بأنه ليس على تلك الدرجة من الصمم التي كان يتظاهر بها علانيةً، ولا هو أرعن كما يتظاهر بتلك الدرجة التي يتصنّعها أثناء الاجتماعات المزعجة، زد على ذلك أن فحصاً شاملاً كشف بأن له شرايين من زجاج، ورملاً ساحليّاً في الكلية

وأنّ قلبه مصدّع بسبب فقدان الحبّ، ولقد احتمى الشيخ الحكيم بثقة شريك قديمة حتى يقول له لقد أزفت الساعة كي تتنحّى سيدي الجنرال، قرّرْ على الأقل، تحت وصاية مَنْ سوف تتركنا، أنقذنا من الفوضى، غير أنه سأل مذهولاً من قال لك بأني أنوي الموت يا طبيبي العزيز، فليمتْ آخرون في انتظار ذلك، يا للفوضى، وأضاف من باب المزاح، قبل ليلتين شاهدت نفسي في التلفزيون ولقد وجدتني أكثر عافية من أيّما وقت، ثورَ سباقٍ حقيقياً، قال وهو يكاد يموت من الضحك، ذلك أنه لمح نفسه في الضباب، متداعياً من النوم ورأسه ملفوف بمنديل مبلّل أمام الشاشة المنعدمة الصوت تماماً كما كان قد قرّر بالنسبة لآخر سهرات توحده، ولقد كان حقاً أكثر غطرسة من ثور مصارعة أمام فتنة سفيرة فرنسا، أو ربّما سفيرة تركيا، أو السويد، يا للفوضى، لقد كنّ عديدات ومتشابهات إلى درجة أنه كان يخلط بينهنّ ولقد مرّت أعوام عديدة بحيث لم يعد يجد نفسه بينهن في زي السهرة مع كوب شامبانيا في يده احتفالاً بالذكرى السنوية ليوم ١٢ أغسطس، أو بعيد النصر في ١٤ يناير، أو بعيد النهضة في ١٣ مارس، ما أدراني أنا، ذلك أنه انتهى، في تلك البلبلة من أيام نظامه التاريخية، بأن كفّ عن معرفة متى يكون ذلك الاحتفال أو ماذا يصادف، أما بالنسبة للأوراق الصغيرة التي خبّأها بعناية وانتباه شديدَيْن في شقوق الجدران فإنها لم تعد تخدمه في شيء إذ أنه انتهى بنسيان موضوعها نفسه، ولقد كان يكتشفها مصادفةً في مخابئ العسل وهكذا قرأ بأن يوم ٧ أبريل يصادف عيد ميلاد الدكتور ماركوس دي لايون، إرسال نمر هدية له، ولقد قرأ ذلك، مكتوباً بيده ذاتها، من دون أن تكون له أدنى فكرة عمّن يكون الدكتور المذكور، شاعراً في الأثناء

بأنْ ليس ثمة عقاب أكثر إهانة وأقل جدارة بالنسبة لرجل من أن يخدعه جسمه بالذات، وكان قد بدأ باستشفاف المشكلة قبل أزمنة خوسيه انياثيو ساينز دي لابارا السحيقة بكثير عندما أدرك بأنه لا يكاد يعرف مَنْ كان مَن في الجلسات الجماعية، أنا الرجل الذي كان قادراً على مناداة أبعد سكان مملكة سأمه الشاسعة بأسمائهم وألقابهم، والذي انتقل مع ذلك إلى الطرف المقابل، ولقد لمح من مركبته في الزحام طفلاً معروفاً فتملّكه الجزع لأنه لم يقدر على التذكر أين سبق لي أن رأيته بحيث أمر مرافقيه بإيقافه في انتظار أن تعود لي ذاكرتي، وكان الأمر يتعلق بقروي بائس ظل اثنتين وعشرين سنة في السجن مكرّراً الحقيقة التي تم إثباتها منذ اليوم الأول بواسطة التحقيق القضائي أي أنه يدعى بروليو ليناريس موسكوت، وأنه كان ابن زنا ولكن تم الاعتراف به من ماركوس ليناريس وهو بحار مياه حلوة، ومن دلفينا موسكوت، وهي مربية كلاب نمريّة، وكلاهما قاطنان في روزال دل فيراي، والمدعو بروليو ليناريس موسكوت حلّ بعاصمة هذه المملكة لأوّل مرة لأن أمّه كانت قد أرسلته لبيع جرْويْن في عيد الزهور خلال شهر مارس، ولقد وصل على ظهر حمار مستأجر، بلا ثياب أخرى عدا تلك التي كان يرتديها فجر يوم الخميس ذاته الذي تم إيقافه فيه، وكان يشرب فنجاناً صغيراً من القهوة المرّة تحت خيمة السوق، سائلاً بائعات المقالي إن كنّ يعرفن أحداً يرغب في اشتراء جروين هجينين لصيد النمور، وكنّ قد انتهين من إجابته بأن، كلا، عندما تعالت جلبة الطبول والأبواق والأسهم النارية، وأخذ القوم يصرخون ها هوذا، إنه قادم، فسأل، ولكن من هو، فأجيب ولكن كيف عساك تسأل، إنه رئيسنا جميعاً، عندئذ وضع الجروين في صندوق لكي

تتفضّل بائعات المقالي اللطيفات بحراستهما في انتظار عودتي، ولقد تسلّق حافة إحدى النوافذ كي يتمكّن من الرؤية فوق رؤوس الناس فشاهد موكب الخيول بأغطية ذهبية على سروجها وقنزعات من ريش على رؤوسها، وشاهد المركبة وعليها صورة تنين الوطن، ورأى تحيات اليد المرتدية قفاز ساتان، والوجه الكابي، والشفتين الصموتتيْن من دون طيف ابتسامة، للرجل القائد، والعينين الحزينتين اللتينْ سرعان ما اكتشفتاه بغتة مثل إبرة في كومة تبن، وكان ثمة إصبع تشير إليه، هناك، ذلك الرجل، المتسلق تلك النافذة، أوقفوه بينما أتذكر أين سبق لي أن رأيته، أمر قائلاً، عندئذ أمسكوا بي بعد أن أشبعوني ضرباً، ولقد أهلكوني بسيوفهم، وتركوني أشوى فوق أداة تعذيب حتى أعترف أين سبق للرئيس الكبير أن رآني، ومع ذلك فإنهم لم يحصلوا على حقيقة أخرى سوى تلك التي ذكرها وهو في سجن قلعة الميناء، ولقد كررها لهم بقوة يقين وشجاعة شخصية إلى حدّ أنه انتهى بأن شك في الأمر وافترض بأنه أخطأ، ولكن من الصعب العودة إلى الوراء الآن، قال، في الواقع، لقد أسيئت معاملته كثيراً بحيث إذا لم يكن في السابق عدواً فقد صار الآن كذلك، المسكين، من الأفضل إذاً تركه يتعفن حيّاً في زنزانته بينما أنا أطوف في بيت الأشباح هذا مفكّراً أمّاه يا بندثيون ألفارادو الزمن الغابر، ساعديني، انظري كيف أعيش من دون حمايتك، متوحداً زاعقاً بأن لا قيمة للأيام المجيدة الكثيرة التي يعيشها المرء من دون أن يكون قادراً على تذكرها لكي يتجدّد عبرها ويتغذّى منها ويتمكن من البقاء بفضلها رغم مستنقعات الشيخوخة، إذ حتى أشد الآلام وأسعد اللحظات في عصره المجيد كانت قد تلاشت نهائياً عبر ثغرات الذاكرة رغم

محاولاته الساذجة للإمساك بها بواسطة الأوراق الصغيرة المطوية والمختومة، ولقد كان محكوماً عليه إلى الأبد بألا يعرف من كانت هذه الفرنشيسكا لينيرو ذات الـ ١٩ عاماً، والتي دفنت بأمر منه مع التشريفات المخصصة لملكة، حسب ما تشير إلى ذلك ملاحظة أخرى كتبت بخط يده، وكان محكوماً عليه أن يحكم خبط عشواء بواسطة اثني عشر زوجاً من النظارات عديمة الجدوى والمخبّأة في جارور مكتبه لكي يخفي بأنه في الواقع كان يحاور أشباحاً لا يكاد يفك رموز كلامهم ويتوصل إلى هويتهم بإشارات غريزية، وهو مستغرق في حالة من الإهمال تبينت له بشكل خاص أثناء جلسة له مع وزير الحربية، ولقد كان من سوء حظه أنه عطس فقال له الوزير يرحمك الله سيدي الجنرال، ثم عطس مرة ثانية فأعاد الوزير يرحمك الله سيدي الجنرال، ثم عطس مرة ثالثة، فكرر الثاني يرحمك الله سيدي الجنرال، ولكن بعد تسع عطسات متعاقبة لم أكرّر له يرحمك الله سيدي الجنرال، ولقد شعرت بالرعب لفرط ما كان ذلك الرأس المتشنج من الذهول ينذر بالتداعي، رأيت العينين المغرورقتين بالدموع، تلك الدموع التي كانت ترشني بلا رأفة من أعماق مستنقع الاحتضار، رأيت، لسان المشنوق، لسان البهيمة المنهوكة التي كانت تحتضر بين ذراعي من دون وجود أحد حتى يشهد ببراءتي، وعندئذ لم يخطر ببالي إلا فكرة واحدة، الهروب بعيداً عن المكتب قبل فوات الأوان، لكنه منعني من ذلك بسيل من الأوامر صارخاً بي بين كل عطستين ليست بك حاجة إلى الذعر أيها العريف روزندو ساكريستان، اهدأ، يا للفوضى، لست مغفّلاً حتى أموت أمامك، صرخ به، وبالفعل لم يمت، بل واصل عطاسه حتى عتبة الموت، عائماً في فضاء اللاوعي مملوء

بديدان حباحب سمتية مضيئة ولكنه كان متعلقاً بيقين كون أمّه بندثيون لن تكبدني عار الموت بعد نوبة من البصاق المتكرر بحضور مرؤوس، بلا حماقات، الموت أفضل من الإهانة، والعيش مع البقر أفضل من العيش مع ناس يجرؤون على تركك تموت بلا تكريم، يا للفوضى، ولم يعد إلى الحديث عن الله مع القاصد الرسولي حتى لا يلاحظ بأنه يشرب كوب الشوكولا بالملعقة الصغيرة، ولم يعد إلى لعب الدومينو خشية أن يتجرأ أحد على تركه يربح رأفة به، لم يعد يرغب في رؤية أحد، أماه، حتى لا يكتشف أحد بأنه، رغم مراقبته الدقيقة لأقواله وأفعاله، رغم هوسه بعدم جرّ قدميه المفلطحتين، وهو ما كان يفعله في نهاية المطاف، ورغم رصانة شيخوخته، كان يشعر بأنه على الحافة من هوّة آلام آخر الديكتاتوريين المنكوبين الذين كان يحتفظ بهم سجناء أكثر مما كانوا محميين في بيت الصخور كي يمنعهم من إصابة العالم بعدوى طاعون دناءاتهم، ولقد أحسّ بذلك للمرّة الأولى في ذلك الصباح عندما كان وحيداً ونام في حوض الفناء الخاص خلال استحمامه في الماء الممزوج بالأوراق، كنت أحلم بك، أماه، كنت أحلم بأنك أنتِ التي خلقت الزيزان التي كانت تنفجر لفرط ما كانت تشدو فوق رأسي بين أغصان اللوز المزهرة في الحياة الواقعية، حلمت بأنك أنت التي كنت تلوّنين للصفاريات أصواتها المبرقشة عندما استيقظ مذعوراً تحت تأثير جشأة غير منتظرة من كرشه تحت الماء، أماه، استيقظ والغيظ يحقن دمه في ذلك الحوض الفاسد، حوض فضيحتي، الذي كان يطفو فوقه لوتس المردقوش والخبازى، والزهور الحديثة المتناثرة من شجرة البرتقال، والسلاحف التي كانت جذلى بجدّة تلك الكمية من «الكاكا»[8] الطري المذهب لسيدي الجنرال فوق الماء المعطر، يا للفوضى،

غير أنه استطاع أن يصمد لفضيحة الشيخوخة تلك ولفضائح أخرى عديدة، ولقد قلص عدد مستخدميه إلى الحدّ الأدنى كي يتمكن من مجابهتهم بلا شهود، فليس لأحد أن يراه تائهاً في البيت المقفر، طيلة أيام وليال، ورأسه ملفوف بخرق مغموسة في الكحول الممزوج بالكافور، وهو يئن من اليأس ووجهه إلى الحائط متقززاً من جرعات دواء العطاس، مرعوباً بصداع نصفي لا يطاق ولم يخبر به أحداً قط بدءاً بطبيبه الشخصي مدركاً جيّداً أن ذلك الألم يشبه سائر آلام العجز العبثيّة، كان يحس بالألم يأتي مثل رعد حجري وذلك قبل ظهور السحب الكثيفة السوداء للزوبعة في السماء، فكان يأمر بأن لا أحد يزعجني حالما كانت الدوّامة تشرع في الدوران داخل صدغيه، لا أحد يدخل هنا مهما حدث، كان يأمر، حالما يشعر بطقطقة عظام جمجمته أثناء الدورة الثانية للدوّامة، حتى وإن كان الله هو القادم، كان يأمر، حتى وإن متّ، يا للفوضى، وقد أعماه ذلك الألم الأثيم الذي لم يكن يهادنه ولو لحظة كي يفكر، حتى اللحظة التي هطلت فيها الأمطار المباركة واضعة نهاية لقرون اليأس، عندئذ أشار لنا، فوجدناه مولوداً من جديد عند الطاولة الصغيرة المجهزة للعشاء أمام شاشة التلفزيون الخرساء، ولقد كنّا نقدم له أسياخ اللحم، وشحم الخنزير مع الفاصوليا، والرزّ بجوز الهند، وقطعاً من الموز المقلي، وهي وجبة غير معقولة بالنسبة لسنّه، فكان يتركها تبرد ولا يكاد يتذوّق منها في حين كان يشاهد الشريط نفسه فاغراً فمه للتلفزيون، مدركاً أن الحكومة تريد أن تخفي عنه شيئاً بما أنهم أعادوا البرنامج نفسه الخاص بقناته الخاصة المقفلة من دون الانتباه، حتى، إلى أن البكرات رُكّبت بالمقلوب، يا للفوضى كان يقول، محاولاً نسيان ما

كانوا يضمرونه، ومع ذلك إذا تفاقم الوضع فلا بدّ من اكتشافه، كان يقول وهو يغط قرب عشائه، وعندما تدق الساعة الثامنة في الكاتدرائية يقف بصحنه الكامل ويلقي بالأكل في المراحيض كعادته كل مساء في الساعة نفسها منذ زمن طويل وذلك لكي يخفي إذلال معدته التي كانت ترفض كل شيء، ولكي يخدع، بفضل أساطير أزمنته المجيدة، تلك الضغينة التي كانت تتملكه كلما استسلم لضعف الشيخوخة، ولكي ينسى بأنه كفّ عن الحياة تقريباً، وبأنه، هو، ولا أحد غيره، الذي كان يكتب على جدران المراحيض عاش الجنرال، عاش الفحل، وهو الذي شرب خفية دواء شافياً للحيوانات، ليكرّم، بالعدد الذي يشاؤه من المرّات، في ليلة واحدة، وحتى ثلاث مرات في كل مرة، ذكرى ثلاث نساء مختلفات، وكانت تلك سذاجة شيخوخة دفع ثمنها دموعاً من الغيظ، لا من الألم، وهو ممسك بطرفي المرحاض منتحباً أمّاه بندثيون ألفارادو قلبي، اكرهيني، طهريني بمياهك النارية، متحملاً عقاب سذاجته بكبرياء، لأنه كان يدرك جيّداً بأن ما كان ينقصه في ذلك الوقت وما كان ينقصه في كل وقت، وهو على الفراش، ليس الشرف وإنما الحبّ، لقد كان بحاجة إلى نساء أقل بروداً من النساء اللواتي يقدمهن لي شريكي وزير الخارجية حتى لا أفقد عادتي الجميلة منذ أن أغلقت المدرسة المجاورة، عرائس لحم بلا عظم من أجلك أنت وحدك سيدي الجنرال، يتم إرسالهنّ بالطائرة مع الإعفاء الجمركي من بيوت الدعارة المزينة بالزجاج في أمستردام، ومن المهرجانات السينمائية في بودابست، ومن شواطئ إيطاليا سيدي الجنرال، انظر إلى هذه الآيات في الجمال، أجمل بنات العالم اللواتي رآهنّ جالسات بطريقة مهذّبة مثل مدرّسات غناء في غبش

المكتب، وكن يتعرين مثل فنانات، ويتمدّدن على الأريكة المخملية وسيور «مايوهات» الاستحمام مطبوعة، مثل سالب التصوير الشمسي، فوق جلدهن الدافئ، وكأنه سكّر مذهّب، كانت تفوح منهن رائحة معجون أسنان ذي نكهة نعناع، ورائحة زهور وقوارير، وهن مضطجعات قرب ثور الإسمنت الضخم الذي لم يرغب في خلع ثيابه العسكرية في حين كنت أحاول تشجيعه ملتجئة إلى أبهظ الوسائل كلفة حتى اللحظة التي تعب فيها من تحمل الدعوات اللّبقة من قبل تلك الفتنة المذهلة الشبيهة بفتنة سمكة ميتة، وقال لها حسبك يا ابنتي، اجعلي نفسك راهبة، وقد اكتأب من رخاوتها إلى حدّ أنه، في ذلك المساء، وعند الساعة الثامنة، عندما رأى إحدى النساء المكلفات بغسل ملابس الجنود، أوقعها بضربة من قدمه على حافة حوض الغسيل حيث عبثاً حاولت الإفلات منه بتخويفه، لا أقدر اليوم جنرال، صدقني، لي أعذاري، لكنه قلبها على وجهها فوق خشبة الغسيل ولقّحها من الخلف بحماسة توراتية حتى أن المسكينة أحست بطقطقة الموت تغزو قلبها، وأفلتت كلمة وهي تلهث يا لك من متوحش، يا جنرال، لقد تربّيت بين الهمج، غير أنه أحس بالإطراء من أنين التوجّع أكثر مما في المدائح المسعورة لمتملقيه المحترفين، ولقد منح تلك المرأة الغسالة معاشاً مدى الحياة من أجل تربية أطفالها، وعاد إلى الغناء بعد أعوام عديدة وهو يطعم الأبقار في الإسطبل، يا قمر ديسمبر، يا مشعاً في الأعالي، كان يغنّي، من دون التفكير في الموت إذ لم يكن ينبغي حتى في آخر ليلة من حياته أن يستسلم لضعف التفكير في أي شيء خارج الحسّ العام، فأعاد إحصاء البقرات مرتين منشداً، أنت يا مشعل دربي، أنت يا نجمة قطبي، وأدرك بأن ثمة أربع

بقرات ناقصة، فعاد إلى البيت وهو يعدّ، أثناء مروره، الدجاجات الهاجعة فوق مشاجب حكام المستعمرات، وغطّى أقفاص الطيور النائمة التي عدّها ووفّر لها الحماية طيلة الليل، ثمانية وأربعون، أشعل النار في الروث الذي نثرته البقرات طيلة النهار، من الرواق حتى قاعة الاجتماعات، وتذكر طفولة نائية كانت تظهر له لأوّل مرة صورته الشخصية وهو يرتجف من برد الصحراء العالية وصورة أمه بندثيون ألفارادو التي كانت تفتكّ، من نسور إحدى المزابل، مصارين خروف من أجل الغداء، كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة عندما طاف بكل أرجاء البيت في الاتجاه المعاكس مستضيئاً بمصباحه في حين كان يطفئ المصابيح حتى الرواق، ولقد بدا على التوالي جنرالاً واحداً ثم جنرالين اثنين ثم أربعة عشر جنرالاً مع مصباح في المرايا المعتمة، رأى بقرة وحدواتها الأربع إلى أعلى في مرآة قاعة الموسيقى، يا بقرتي الصغيرة، يا بقرتي الصغيرة، قال، لكنها كانت ميتة، يا للفوضى، اتجه نحو مهجع الحرس ليقول لهم بأن هناك بقرة ميتة في إحدى المرايا، انقلوها غداً باكراً من دون أخطاء، أمر، قبل أن يمتلئ البيت بالعقبان، تفقد بمصباحه المكاتب القديمة في الطبقة الأرضية بحثاً عن البقرات الشاردة، وكانت ثلاثاً، بحث عنها في المراحيض، تحت الطاولات، داخل كل مرآة، صعد إلى الطابق الأول وفتش الغرفات غرفة غرفة ولم يجد سوى دجاجة نائمة تحت كلّة قماش التول الوردي، كلة راهبة من عصر آخر نسي اسمها، تناول ملعقة عسل كعادته كل ليلة قبل النوم، أعاد الأصيص إلى مخبئه حيث كانت توجد أيضاً ورقة صغيرة مع تاريخ ميلاد الشاعر الشهير روبن داريو، تقبّله الله فوق أعلى كرسي في مملكته المقدّسة، أعاد لفّ

الورقة الصغيرة وأعادها إلى موضعها وهو يردد الصلاة الجميلة غيباً أيها الأب يا معلّم السحر الغنائي(٩) الذي يحفظ الطائرات السابحة في الجوّ ويصون عابرات المحيطات في البحر، مجرجراً قدمي الأرِق الذي لا أمل في شفائه عبر آخر الصباحات الخضراء الخاطفة المنبعثة من دوران المنارة، كان يسمع رياح البحر المفقود المعذبة، ويسمع موسيقى الرّوح متناهية من عرس ماجن حيث أوشك على الموت غدراً بعد إهمال إلهي، وجد بقرة شاردة واعترض طريقها من دون أن يلمسها، يا بقرتي الصغيرة، يا بقرتي الصغيرة، عاد إلى غرفته وشاهد، أثناء مروره أمام النوافذ، موكب أنوار المدينة من دون بحر في كل الشبابيك، فوجئ بالبخار الحار المندفع من لغز أحشائه، وبسرٍ تنفّسه العارم، نظر إليه ثلاثاً وعشرين مرّة بلا انقطاع وأحسّ كعادته دائماً وأبداً بشعور من الريبة تجاه ذلك المحيط الشاسع الذي لا يسبر له غور والذي هو، ذلك الشعب النائم ويده على قلبه، أدرك أنه ممقوت من الذين كانوا يحبونه أكثر، أحسّ بأن شموع القديسين كانت تضيئه، أحسّ بأن اسمه يذكر لتغيير مصير النساء المشرفات على الولادة وتغيير قدر المحتضرين، أحس بأن ذاكرته ممجّدة بالذات من أولئك الذين كانوا يلعنون أمّه عندما يشاهدون العينين الصامتتين، والشفتين الحزينتين، ويد الخطيبة المتأملة خلف زجاج الفولاذ الشفاف في الأزمنة النائية وهو في سيارة الليموزين السائرة في نومها، ولقد كنا نلثم آثار جزمته على الوحل ونرسل إليه بتعويذات ضد الموت الخبيث في ليالي القيظ عندما كنا نشاهد، من باحات منازلنا، تلك الأنوار الشاردة في النوافذ الخالية من الروح في البيت المدني، لا أحد يحبّنا، تنهّد قائلاً، مدخلاً رأسه في الغرفة القديمة

لمربية الطيور الشاحبة، وملوّنة الصفاريّات، بندثيون ألفارادو ذات الجسد المزروع بالصدأ، موتاً جميلاً، أماه، قال لها، موتاً جميلاً، يا بني، أجابته وهي في مدفنها في قبو الكنيسة، ولقد كانت الساعة منتصف الليل تماماً عندما علق مصباحه فوق بابه، مصاباً في أعماقه بالانفتال القاتل للصفير المكتوم من فتقه المقيت، ولم تبق حقيقة أخرى في العالم سوى حقيقة ألمه، ولآخر مرّة أغلق رتاجات غرفته الثلاثة، وأغلق المزاليج الثلاثة ثم الدعامات الثلاث، وقدم ذبيحته الأخيرة على المحرقة، عقاراً ضئيلاً في سطْله الصحّي، وارتمى على الأرض العارية ببنطاله ذي القماش الخشن الذي كان يرتديه أثناء مكوثه في البيت منذ أن كفَّ عن حضور الاجتماعات، وبقميصه المخطط من دون ياقة اصطناعية، وبخفّي العليل، اضطجع على وجهه، وساعده الأيمن منثنٍ تحت رأسه على هيئة وسادة، ونام فوراً، ولكنه استيقظ في الساعة العاشرة وعشر دقائق فارغ الرأس مبتل الثياب بعرق أصفر وفاتر عشية الزّوبعة، مَنْ هناك، سأل مزعزعاً من يقين كونه سمع أحداً ما ناداه أثناء نومه باسم لم يكن اسمه، نيكانور، ولمرّة ثانية، نيكانور، شخص ما كانت له القدرة على التسلل إلى غرفته من دون مسّ الرّتاجات، ذلك أنه كان يدخل ويخرج حسب هواه مخترقاً الجدران، وعندئذ رآه، إنّه الموت سيدي الجنرال، موته، مرتدياً جلبابَ توبةٍ من القنّب الرث، ويده الخشبية مزودة في طرفها بنصل معقوف وجمجمته مزروعة ببراعم من طحالب القبور، وزهور ترابية في شقوق عظامه وعيناه الميتتان العتيقتان مذهولتان في محجريهما الخاليين من اللحم، وما إن رآه بالكامل حتى أدرك لماذا ناداه نيكانور إذ أنه الاسم الذي ينادي به الموت كل واحد منّا في اللحظة التي يتوجّب

علينا فيها الموت، غير أنه قال لا، للموت، لأن ساعته لم تَحنْ بعد، ينبغي أن يحدث ذلك أثناء النوم في غبش المكتب كما واصلت التنبؤ بذلك، المياه المنذرة في جفنات العرافات، عندئذ ردّ عليه الموت كلا، جنرال، لن يحصل ذلك إلا هنا، وقدماك حافيتان وأنت بلباس البائسين الذي ترتديه، مع أن الذين اكتشفوا الجثة أكدوا فيما بعد بأنهم وجدوه على أرض المكتب ببزة الكتان الخالية من الشارات والمهماز الذهبي على كعبه الأيسر وذلك كي لا يعاكس تنبؤات عرافاته، في أقل اللحظات اختياراً، بالنسبة له عندما بدأ يدرك، بعد أعوام وأعوام من الأوهام العقيمة؛ بأن المرء لا يعيش، سحقاً إذاً، وإنما يقاوم من أجل البقاء، ولا يتعلم إلا بعد فوات الأوان بأن الحيوات الأكثر رحابة ونفعاً لا تسمح لك إلا بتعلم كيفية العيش، ولقد أدرك عدم قدرته على الحبّ في لغز كفّي يديه الخرساوين وفي الأرقام غير المرئية في لعبة الورق وحاول تعويض هذا القدر الدنيء بالعبادة المتفانية للآفة الوحيدة التي اسمها السلطة، ولقد جعل من نفسه ضحية لبدعته حتى يضحّي بنفسه في نيران هذه المحرقة اللامتناهية ولقد أتخم نفسه بالخداع وبالجريمة، ونَمَا بين أحضان القسوة والخزي وتجاوز بخله المحموم وخوفه الوراثي لا لشيء إلا لكي يحافظ حتى النهاية على كرته الزجاجية في قبضته من دون أن يعلم بأن في ذلك آفة لا نهاية لها، من إشباعها يتولد جوعها، حتى نهاية الأزمنة سيدي الجنرال، ولقد عرف منذ أصوله الأولى بأنهم كانوا يخدعونه طلباً لمراضاته، وبأنه كان يدفع كي يُخدع، وبأنهم كانوا يحشدون بقوة السلاح تلك الحشود التي كانت تجمع لدى مروره مع صراخات الفرح ولافتاتها المهتمة به، الحياة الأبدية للعظيم الأقدم من عمره، غير أنه كان قد تعلم

العيش مع كل مصائب المجد تلك، خلال اكتشافه مع مرّ السنين، بأنّ الكذب هو أنسب من الشك، وأنفع من الحب، وأبقى من الحقيقة، وتوصّل بذلك إلى التوهم المخزي في الحكم والقيادة من دون أن تكون له سلطة، وفي أنْ يكون مُمَجداً بلا مجد ومطاعاً بلا نفوذ عندما اقتنع وهو في ذلك النثار من أوراق خريفه الصفراء بأنه لن يكون أبداً سيّد سلطته الكاملة، وأنه محكوم بألا يرى الحياة إلا من قفاها وبأن يحل خيوط الدرز، ثم يصلح خيوط النسيج، وكل غرزة في سداة الأوهام المخيمة على الواقع من دون أن يرتاب ولو متأخراً بأن الحياة الوحيدة التي يمكن تحمّلها إنما هي تلك التي كان بوسعنا تبيُّنها، تلك التي كنَّا نشاهدها نحن من هذا الجانب الذي لا يتطابق مع جانبك، سيدي الجنرال، من جانب الفقراء، حيث كانت توجد تلك الأكوام من الأوراق الميّتة، أوراق أعوامنا التي لا يُحصى لها عدد واللحظات الهاربة من السعادة، حيث كان الحبّ ملوثاً بجراثيم الموت، غير أنه كان الحب سيدي الجنرال، كل الحب، وحيث لم تكن أنت بالذات سوى رؤية غامضة من عينين مثيرتين للشفقة عبر ستائر مغبرة في بوابة قطار، كنتَ شفتيْن صامتتين ترتجفان، ووداعاً هارباً من قفّاز ساتان في يد شيخ لا قدر له، لم نعرف قط مَنْ كان، ولا كيف كان، ولا إنْ كان شيئاً آخر غير أكذوبة من أكاذيب الخيال، وطاغية من أجل الضحك لم يميّز قط وجه الحياة من قفاها، هذه الحياة التي كنّا نحبّها بشغف لا ينتهي ولم تجرؤ قط على تصوّرها خوفاً من أن تعرف ما كنا نعرفه جيداً، أي أنها حياة قاسية وسريعة الزوال ولكن لا وجود لغيرها، جنرال، إذ كنّا نعلم، نحن، بأننا كنا نوجد في حين ظل هو يجهل ذلك حتى النهاية مع الصفير المكتوم المنبعث من فتق ميت قديم، حصده

عكاز الموت بضربة فورية، فانطلق محلّقاً في الجلبة المدلهمّة، جلبة آخر أوراق خريفه الصقيعيّة، باتجاه مملكة الظلام، مملكة النسيان الحقيقي، متشبثاً بجلباب الموت الرث، غريباً عن هتافات الحشود المهتاجة التي كانت تهرع إلى الشوارع جذلى، منشدة موته بأناشيد الحبور، غريباً إلى الأبد عن موسيقى معزوفات التحرر، عن أسهم الفرح الناريّة، وعن أجراس البهجة التي زفت للملأ البُشرى بأن زمن الأبدية الهائل كان أخيراً قد انتهى.

(١٩٦٨-١٩٧٥)

الهوامش:

١- إشارة إلى «ماركة» شهيرة .
٢- أفاع ضخمة من فصيلة البواء .
٣- أنطون بروكنر : مؤلف موسيقي نمساوي (١٨٢٤-١٨٩٦) .
٤- عاش الفحل .
٥- المليبار : وحدة لقياس الضغط الجوي .
٦- Licenciado .
٧- من الحيوانات البحرية المجوّفة .
٨- براز بلغة الأطفال .
٩- مطلع قصيدة أهداها روبن داريو إلى الشاعر الفرنسي فرلين .



نوبل ١٩٨٢

• ولد غابرييل غارسيا ماركيز عام ١٩٢٨ في أراكاتاكا، شمال كولومبيا، ودرس في بوغوتا العاصمة في مدرسة يسوعية، لينتقل بعدها إلى الجامعة.

• عمل صحفياً وجاب كثيراً من بلدان العالم أهمها روما، وباريس (عام ١٩٦٠ حيث كان بلا مال سوى ثمن تذكرة العودة الذي استعاده، فاضطر إلى بيع الزجاجات الفارغة والاشتراك مع آخرين من مواطني أميركا اللاتينية في تبادل العظام ليصنعوا منه الحساء!) - كتب حينذاك روايته "ليس للكولونيل من يكاتبه". كما أنه أقام في مكسيكو وكتب عدة سيناريوهات سينمائية. نشر ماركيز أول قصة عام ١٩٥٥ وكانت "غرباء الموز". ولم يتجاوز وقتها عدد نسخها الألف نسخة.

• ذاع صيته بعد نشره لرائعته "مائة عام من العزلة" عام ١٩٦٧، والتي نبّهت العالم إليه ككاتب متميز (تُرجمت إلى ٣٢ لغة بينها العربية)، لا بل فجرت اهتماماً استثنائياً بأدب أميركا اللاتينية ككل.



ISBN:2-84305-776-X
9 782843 057762